
فضيلة العلامة الإنساني الكبير
محمد أمين شيخو
(قدس الله سره)
جمعه وحققه فضيلة المربي الأستاذ
عبد القادر يحيى الشهير بالديراني
حقيقة
تيمورلنك العظيم
تظهر
في القرن الواحد والعشرين
المجلد الثاني
حلب
حماه
حمص
دمشق
المماليك
بين النهرين
بغداد
اصفهان
إيران
القدس
الإسكندرية
القاهرة
مصر
المدينة المنورة

فضيلة العلاَّمة الإنساني الكبير
محمَّد أمين شيخو
قدَّس الله سره

حقيقة تيمورلنك العظيم

تظهر في القرن الواحد والعشرين

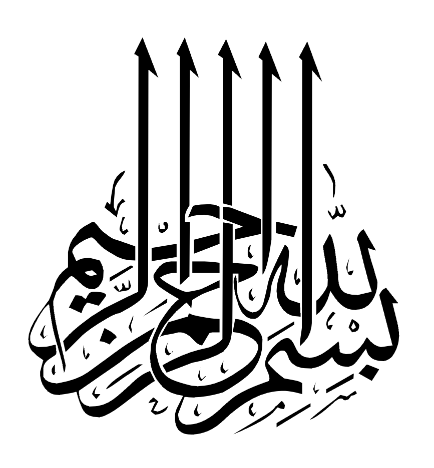
(الجزء الثاني)

جمعه وحقَّقه الباحث المفكِّر الأستاذ
عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

حقائق مذهلة، وكشفٌ لم يسبق إليه مثيل في رواية علمية واقعية مُنصفة لا جدل فيها ولا غموض تنصف الحقيقة وتنتصر للحق المبين.

فهرس





مقدِّمة:

بيِّنة من ربِّكم

توطئة:

قال تعالى: ﴿..وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: كي لا يبقى كافر منقطعاً عن الله، بعيداً عنه، يتعذب في الشقاء والحرمان، وبدلالة الله تعالى الكل يهتدون ويدخلون الجنة وهذه هي الغاية من الجهاد. ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ..﴾: حتماً لا بدَّ من ذلك مهما دار الزمان. ﴿..وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[1]، فكانت الرسالة السماوية مصدر محق الطغيان وإبطال الباطل ونشر الهداية والمحبة الإنسانية وإقامة أسس العدل والإصلاح.

كان للإسلام عزه ونصره في أمة العرب، حين دخلوا في دين الله أفواجاً وغدوا حملة لوائه جنوداً وأنصاراً، وأُلقي على كاهلهم أعباء الدعوة الإسلامية لتبليغها بقية الشعوب والأمم الأخرى، فكان السيف لازماً لكل من أصرَّ يبغي الفتنة والتعدي على دعوة الإسلام الإنسانية، استبقاءً للظلم والظلمات، تأخذه العزة بالإثم، وما فيه من الفتنة أشدُّ عليه من القتل، تخفيفاً عليه من شرور نفسه يوم يلقى ربَّه بوجه أسود، تولى كبره وطغيان نزواته.

---

[1] سورة الأنفال: الآية (٧ ـ ٨).

وانطلقت المواكب المؤمنة زاحفة على ممالك الفرس والروم الاستعمارية للشام والعراق فمصر، تجاهد لإنقاذ إخوانها العرب ليرفعوا عنهم عبوديّة الاستعمار والإذلال بإعلاء كلمة الله تعالى، مبلغة رسالته السماوية، فكانت المعارك المشهودة والوقائع الشهيرة، وما غمره التاريخ المسيّس أعظم، لتتوالى الانتصارات الحاسمة تكلِّلُ هامات المسلمين، وتنهزم جيوش فارس والروم في كل وقعة وميدان، ويورث الله الأرض لعباده الصادقين، ويُدين لهم العباد، ويذل لسلطانهم كل طاغية لا يؤمن بالله ورسوله العظيمﷺ.

وبابتعاد الناس بمرور الزمن عن منبع الديانة السماوية وحياكة الدسائس الداخلية والخارجية، ابتعد المسلمون عن الشرع الشريف، سواء شعروا أم لم يشعروا، ووقعت الطامة الكبرى من التفرقة والاقتتال والتنافس على الدنيا، ولكن وَعَد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم من الصحب الكرام وتابعيهم بإحسان، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً، إن عبدوه وما أشركوا به تعالى شيئاً.

وهذا الوعد الصادق ليس محصوراً بزمان أو مكان ولا بأمة دون أمة أو شعب دون شعب، بل لمن جاهد في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، واليوم نقف في بحثنا على سيرة رجل قام وحيداً ينشد ذلك الوعد، ويرنو ببصره نحو المستحيل المستغلق على البشرية جمعاء، إلا أن يكون الله دليله ورسول الله ﷺ سراجه المنير، فسطَّر مجداً خالداً للإسلام، وعزّاً للمسلمين على العالم آنذاك، يوم كانت القراصنة البحرية تهاجم معاقل أرومة المسلمين في عقر دارهم، كالاسكندرية وبيروت وطرابلس والشام من القراصنة الجنويين بعهد السلطان برقوق ملك مصر الفاسد المفسد، يوم تولّى المسلمون أهلَ الإعراض والإلحاد ووالوهم ضد بعضهم البعض.

يوم قتل الأخ أخاه والابن أباه في سبيل إمارةٍ أو مُلْك ولايةٍ.

فحطَّم قاهرُ الملوك تيمورلنك تكبّر أعظم الدول المتكبرة المتعجرفة التي تعتدي على المسلمين، وانهارت أمام إسلامه المتين، وانهزمت جحافل تلك الجيوش المستكبرة فُلُولاً مذعورة أمام كتائب الحق بما رسمه ذلك الإنسان المؤمن من خطط حكيمة، فلمع في سماء الفتح الإسلامي من الأبطال الخالدين، من يعتز التاريخ بهم إلى قيام الساعة.

كان ابناً لزاهدٍ ضحّى بالدنيا عن مقدرة، فبشَّره الله به سيفاً يضيء العالم[1]. فأخرجهم من الظلمات إلى النور، وأنقذهم من الذل والعبودية للدنيا ولغير الله سبحانه، ونقل الشعوب المظلومة إلى حياة العدالة والحرية والمساواة والأخوة الحقيقية والكرامة، التي تنفي كل ضيم وهوان، ربّى جيلاً وأجيالاً كادت تحيد عن الصراط السوي نقلها بوحي من روح الإسلام وعزة رسالته الإنسانية الكاملة، فكانت وقائع شيبت رؤوس الظلم، ومحقت ظلمة وغور الباطل وهدَّت قواعد البغي والطغيان، أعداء الحق والحياة في الأرض آنذاك.

وقائع! أوقدها رجل من أتباع سيدنا محمَّد ﷺ لَّما يلحق به في الزمن، آمن بربه فجعل من روحه ودمه وجسمه هبة للجهاد الإنساني المقدس، كوى الظالمين ودمَّر عروش أعداء الحق، وجمع كلمة المسلمين تحت لواء واحد، وهيأ للإسلام مَدداً زاخراً يتجدد مع الأيام ويبقيه لأجيال.

《إنه تيمورلنك العظيم》 .

❁❁❁

---

(١) لطفاًانظر الصفحة/٥٥/من كتاب (**حقيقة تيمورلنك العظيم تظهر في القرن الواحد والعشرين**) المجلد الأول: بحث (**السيف الذي أضاء العالم**).

رأينا في الجزء الأول من الكتاب، بعضاً من النزر اليسير اليسير من مآثر تيمور بيك الشريفة قدّس سرّه، منها:

١) استغناؤه عن مُلكه، وعدم مطالبة عمه بحقه الشرعي بزعامة قبيلة البرلاس.

٢) استغناؤه عن ملكه مرةً ثانيةً الذي أخذه بالقوة، وردُّه المغول بعد أن أوقع بين ملكهم وقائديه، ولما جاءه حسين حفيد الملك كورغان المتوفى، ترك له السلطان وهو حقه المكتسب بتدبيره الحربي وبكسبه عدداً من المعارك المظفرة بخطط عجيبة من الرهبة وبعدد من الجند قليل..

٣) أصبح أسيراً بخطأ لم يكشف عن شخصه قرابة شهرين عند علي بيك في القبيلة الفارسية. إذ كان مطلوباً للإعدام من قِبَل خاقان المغول بسبب جهل وحماقة السلطان حسين.

٤) كان التتر المسلمون مستعمرين من قِبَل المغول الكفرة ولابدَّ أن يكون الخليفة مغولياً صابئاً فوق بلاد التتر قوياً كان أم ضعيفاً. فحرر المسلمين التتر من التبعية لكفرة المغول أولاً، ثم لما بغى المغول وكرروا التعديات قاتلهم وأزال انحرافهم وجعلَ الإسلام دين الحق يرفرف في بلاد التتر والمغول أيضاً.

٥) قضى على الجنكيز خانية ورفع رايات دين الإسلام في تلك البقاع الوثنية. وكان له الفضل كله في هزيمة المغول الصابئة المتوحشين، وحوّل دول الممالك حول موسكو إلى مسلمين. أنشأ الإسلامَ في كافة بلاد القوقاز بفتوحاته وإنشاءاته العظيمة وأسّس فيها إسلاماً قوياً.

٦) القضاء على قطاع الطرق القادمين من البلاد الإسلامية وغير الإسلامية.

٧) خُطط نشر الرهبة لحفظ أرواح المسلمين وغيرهم كانت منه عجائب، منها انتزاعه حصن كارشي بمئتي رجل من حاميته الثلاثة آلاف.

٨) استقطاب كل مناوئ من المسلمين للسلطة الإسلامية تحت ظل السلطان حسين، والحفاظ على توازن عجيب مع حفظ للأرواح والأملاك لعامة مسلمي بلاد التتر .. خوفاً من الفتنة والاقتتال في قومه المسلمين على دنيا فانية.

٩) إخماده ثورة البادقشانيين على السلطان حسين دون قتال، واسترداده ستمائة أسير بمفرده وليس معه سوى رجل واحد، بخطة تكاد أن تكون معجزة سطّرها التاريخ.

١٠) استيعابه لكافة الشعوب التي دخلت تحت ظل حكمه، وتسخير كافة طاقاتهم لنصرة دين الإسلام الرحيم بإلهام إلٓهي وتخطيط ذكي وتدبير حكيم.

١١) قضاؤه على الهوردة الذهبية ذات العداء المتوارث مع الشعوب التترية المسلمة، وبالتدبير الحسن استوعب المناوئين له والمحبّين وسار بهم نحو الإسلام الذي تصدى فيما بعد لكل صنوف الاعتداءات الأخرى.

١٢) وضع يده على بلاد فارس وعراق العجم، واستتب الأمن والأمان في أقوام ما كان يغمض لها جفنٌ إثر المنازعات بين الأمراء المسلمين والاقتتال للتوسع الدنيوي والوصول لسدة الحكم.

١٣) قضاؤه على الحشاشين أعداء الإسلام وإصلاح معظمهم بعد أن استفحل أمرهم.

١٤) استنجاد أهل العراق به من فظائع سلطانهم أحمد بن أويس المجاهر بالقبائح والمولّي سفلة الناس وأوباشهم على رقاب المسلمين .. وإسراعه لنجدتهم وتخليصهم منه ومن شركائه رغم انتقاضهم ونقضهم عهوده مرات عديدة..

١٥) أخرج أمم القوقاز من الظلمات إلى النور بأن هداهم للإسلام. حيث أن العصر الذهبي للإسلام في منطقة القوقاز كان في عهده /١٣٣٦ـ ١٤٠٥م/ الذي فتح أذربيجان وداغستان وأصبح الإسلام راسخاً فيها وقد اهتم (تيمور بيك) شخصياً بالقضاء على كل ما يتنافى مع الإسلام حتى أصبح الإسلام هو الدين الوحيد وقد وجه ضربة عنيفة لأكبر قوة في وسط وشمال القوقاز وهي مملكة شعب "الآلان" وهم أجداد شعب الأوستين.

وفي هذا الكتاب
(الجزء الثاني)

نقف على أهم نقطتين في تاريخ فتوحاته والتي كانت مثار نقمة الكتبة والمؤرخين عليه، وهي: دخوله إلى بلاد الشام وانتصاره على المماليك الجراكسة، وقهره لسلطان العثمانيين بيازيد في عاصمته أنقرة مع دأبه من قبل على المراسلات الوديّة معه للتعاون على نصرة الإسلام والجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله، ورفضهم كل تعاون وودّ مما ألجأه لتدبيرات سلمية تحفظ حدود دولته، وتمنع هذين السلطانيْن المتنافسين على لقب السلطنة من الصراع الجبهي بين بعضهما البعض، ومن ثم كان تأديبهما بشكل جبهي لزاماً، فنصره الله عليهما، ونرى في طيات هذا الكتاب عجائب مما صنع ومما صنعوا، مما هدف له ومما عليه أزمعوا..

منها:

قتل أهل الشام ابنه وصهره بغوطة دمشق، وقد أحرقوا كبده حزناً وأسى عليهما، وبالرغم من ذلك ما كان منه إلا أن عفا عنهم ولم ينتقم أبداً، ودأب على عدم إهراق دماء المسلمين، وصبر وصبر حتى ألهمه الله تدبيراً حربياً فرَّ فيه

الجيش المملوكي وسلطانهم فرج إلى مصر، رغم أن دمشق[1] كانت خالية ممن يدافع عنها.. طلب السلم من علمائهم وفضلائهم ومعهم ابن خلدون، وتمَّ له ذلك فدخل دمشق سلماً دون سفك دم مسلم واحد.. صلى بالجامع الأموي، وزار قبور الأنبياء والأولياء وأمهات المؤمنين عليهن السلام، وبنى على أضرحتهن أبنية لمقاماتهن.. وبعد كل هذا كان أولئك يأبون إلا الحرب ويحاولون جهدهم لاغتياله... وهو يتناسى كل ذلك حلماً ورحمةً.

معاً في تضاعيف هذا الكتاب نقف على شيء من الحقيقة في حقبة تشعّ بالمحبة والودّ طمسها كتبة الملوك والسلاطين بأحبار الأقلام.

❁❁❁

في هذا المجلّد: نقف على حقيقة الوضع المزري في أرومة البلاد الإسلامية حين قدوم المصلح العظيم من الشرق البعيد إلى هواة للفوقيّة والاستعلاء في الأرض بغير الحق، فانفرد بأحكامه وأساليبه من دقة بلغت حد الإعجاز، لما اكتنفتها يد العناية الإلَـهيّة من تأييد ونصر، وإلقاء رعب في صفوف المعادين، فوضع الأحكام للأحداث الواقعية ومقتضياتها برأي سديد، وعزم أكيد، حتى شملت إصلاحاته القلوب والعقول، مع الحفاظ على دماء الأبرياء، وفقاً لنظام الرهبة والإشاعة، والخطط التي اختصرت السنين إلى أيام، وندع طيّات هذا الكتاب تحدثنا عنها ..

---

(1) **دمشق**: هي عاصمة الجمهورية العربية السّورية وأكثر مدنها سكاناً، تقع دمشق في الجهة الجنوبية الغربية من البلاد، إلى الشمال الشرقي من جبل الشيخ، في سهلٍ فسيحٍ ومُنبَسطٍ، ويخترقها نهر بردى الذي يسقي بساتينها وجنائنها، ويطلّ عليها لجهة الشّمال جبل قاسيون.

حقّاً:

جاء به اللطيف الخبير علاجاً لمرضى القلوب

تمهيد: سبحانه وتعالى لا معقِّب لحكمه، إذ لا يحتاج إلى استدراك أو تعقيب، فقد قيض لزمنٍ كاد الإسلام فيه يندثر بين أهله، يقتل بعضهم بعضاً، رجلاً من الأكفاء الكرام، كانت آيات القرآن الكريم أُسسه ومصدر الإلهام والهداية، فسار على تعبئة عظيمة حكيمة سدت منافذ الخطر والهجوم المزعزع للكيان الإسلامي، ففتح القلوب وأخضعها بهيبة ربّانيّة كساه إيّاها ربُّه تعالى، كثرة الابتهال والتضرُّع والدعاء والهدف الإصلاحي المنشود والصدق والعزيمة والشكيمة كل ذلك كان السبب بما كساه، فدانت له قلوب كالحديد في صلابتها، وكالنار في شرِّها المستطير، إذ جمع ثلَّة من المؤمنين حوله، جمعهم الهدف المشترك بما شرّبهم وغذاهم به من إيمانه الراسخ برب العالمين، فكان النصر حليفه، إذ أنجز الله ما وعده، تزاحم القوم إلى رضاه، ومن ثم إلى جنَّة عرضها السموات والأرض وإحدى الحسنيين ديدنهم بطاعته، فإما نصر مؤزّر وعزّ للإسلام وسؤدد وإما يتخذهم تعالى بها شهداء.

فرّت شياطين الجن ليتبعهم إخوانهم في الغي من سطوته بمخالفيه الخارجين عن حدود الله وشرعه، وتكتلوا وتجمعوا فمن خراسان وفارس وجورجيا[١] وخوارزم[٢]

(١) **جورجيا**: تقع في منطقة جنوب القوقاز من أوراسيا، أي غرب آسيا وشرق أوروبا، تشكل روسيا حدودها الشمالية حيث تمتد مع قمة مجموعة جبال القوقاز الكبرى.

(٢) **خوارزم**: منطقة في آسيا الوسطى، تقع عند المجرى الأدنى لنهر جيحون. تحدها من الشرق صحراء (قزيل كوم) التي تفصلها عن (ما وراء النهر). وتفصلها من الغرب صحراء (قرا قوم) عن خراسان، وتتلاقى في جنوبها الصحراوان حيث ينفذ نهر جيحون، وتقف حدودها الشمالية عند شواطئ بحر خوارزم (آرال).

وكرمان[1] وسيستان[2] وأرضروم[3] ووو ... في كل بلدة وفي كل حصن وقلعة وُجد منهم من فرَّ ببغيه والتجأ إلى قوم هم بمنأى عن الحقيقة ((المماليك والعثمانيين))، فأراهم ملكهم العثماني الخاطئ ما رأى من جبروت مؤدّبه وأرشدهم سوء الطريق. فكان نواة للفتنة وهم أدواتها. فصمَّت آذانهم عن كل نداء سلمي، وعميت أبصارهم وبصائرهم عن كل حقيقة، إلا ما أراهم مبلغوهم، والناس بين مصدِّق ومتردِّد كموج البحر بعضه يموج في بعض، يميلون يمنة ويسرة، حيث تتقاذفهم الشائعات والدعايات المبرمجة لصالح الحكام الغُفَّل عن الحق والحقيقة، فنقلوا لنا أخباراً أملتها عليهم عقولهم وتصوراتهم وتحليلاتهم، ومنهم من أخضعها لتكون متوافقة مع هوى الحكام وسياستهم.

فجاء التحذير في قوله تعالى: ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ** ﴾[4].

اليوم نقف على حقيقة (تيمورلنك العظيم)، قاهر العالم وماحي شرور الطغيان.

الذي ما صارع العالم بعدد ولا بقوة ولا بكثرة عتاد وسلاح إنّما صارعه بهذا الدين الحق، فالرعب والذعر كانا جنداً من جنده، خبر عيانٍ لا بيان، إذ بعد مئات السنين على انتقاله إلى الرفيق الأعلى، نجد ذلك مخطوطاً بين طيات مترجمي حياته.

لنرى في أعماله قصصاً ترقى لحدود فوق الطاقة البشرية بتأييد من الله تعالى بحقائق ووقائع خالدة تقول: (**أيها المسلمون لا تلتمسوا العزة بغير هذا الدين فتُذَلُّوا**).

---

(١) **كرمان**: إحدى محافظات إيران الثلاثين، تقع في جنوب شرقي البلاد، تعد ثاني أكبر محافظة في إيران ويصل عدد سكان المحافظة لمليوني نسمة.

(٢) **سيستان**: تقع جنوبي شرقي إيران على الحدود مع باكستان وأفغانستان، وتعد ثالث أكبر محافظة في إيران.

(٣) **أرضروم**: مدينة تركية، تقع في هضبة ترتفع /١٨٠٠/م عن سطح البحر في هضبة الأناضول وتبعد أرضروم نحو/١٥٠/كم إلى الشمال الغربي من بحيرة وان، اسمها الحالي بالتركية: أرزروم أو أرزن الروم، وانتقل الاسم إلى العربية بلفظ أرض الروم (أرضروم).

(٤) سورة الحجرات: الآية(٦).

أثراً بعد عين

لو وقفنا فيه على حقيقة الأوضاع الداخلية التي سادت بلاد الشام ومصر إبَّان حكم الظاهر برقوق[1] وطموحه بقيام دولة مماليك جركسية.

سنرى:

أن الضعف الإيماني والتردِّي الأخلاقي والتقاتل على الدنيا الدنية، سبّب طمع الكفرة في بلاد الإسلام، وأدّى إلى التكالب عليها كما طمع الصليبيون بها وغزوها في عقر دارها، ولولا النفَس المحمدي الشمولي وعطف الإلّه لزالت بلاد الإسلام كزوال الأندلس، لكنه الدين القويم، الذي ارتضاه رب العالمين الرحمن الرحيم أضاء حينها على يد النبلاء السلاجقة الأحرار، فصفعوا الروم من الخلف، وتبعتهم جحافل العثمانيين، وأصلحهم تيمورلنك العظيم، فعادت مياه الحياة والنعيم والسعادة إلى قلوب المسلمين، وعادوا فسادوا على العالمين براية الحق الخفاقة بالنور المحمدي المقيم: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ** ﴾[2].

وإننا نأى عن ذكر التاريخ الأسود للظاهر برقوق مؤسس دولة المماليك الثانية لأنه عهد فساد أوصلهم تكالبهم على الدنيا إلى أن غزتهم الكفرة في عقر دارهم عندها جاء تيمور بيك للإصلاح.

❁❁❁

---

(1) **الظاهر برقوق**: اسمه الكامل هو برقوق بن أنس بن عبد الله الشركسي، وقد سمي برقوق لنتوء في عينيه.

(2) سورة التوبة: الآية(٣٣).

متى كانت القراصنة البحرية تهاجم البر الإسلامي؟!...

استطاع السلطان برقوق وابنه فرج أن يحققا أرباحاً طائلة من احتكار التجارة، ونتج عن ذلك تعرُّض شواطئ دولة المماليك الثانية لهجمات القراصنة الجنوية[1] والقطالونيين[2]، ومن ثم انضم إليهم عدد من الروادسة[3] والقبارصة[4]. منها:

❖ /٧٨٥هـ/ هاجم الجنويون صيدا[5] وبيروت[6] ونزلوا إلى البر. وحاولوا مهاجمة ثغري رشيد ودمياط[7]، وأعادوا الكرة على بيروت وقتلوا عدداً كبيراً من سكانها.

❖ /٧٨٨هـ/ لجأ الجنوية إلى مصالحة السلطان برقوق، ولم يتأخر السلطان عن قبول الهدايا منهم حرصاً على مصالحه التجارية في البحر المتوسط.

❖ /٧٩٠هـ/ انتهز الجنويون فرصة انشغال برقوق بحروب السيطرة على العرش مع الترك وعادوا إلى أعمال القرصنة، حيث تمكنوا من الاستيلاء على مراكب مشحونة بالجراكسة الذين جلبوا من بلادهم، ومن بين هؤلاء الجراكسة أخت السلطان برقوق وجمع من أقاربه.

---

(١) **الجنوية**: نسبة إلى (**جنوة**) وهي مدينة قديمة في شمال غرب إيطاليا على البحر المتوسط تقع على الخليج المسمى باسمها.

(٢) **القطالونيين**: هم سكان أندورا التي تقع جنوب غرب أوروبا ويشكلون أقلية في بلدهم بنسبة٣١.٥٪ أما الأسبان والبرتغاليون والإيطاليون والفرنسيون والبريطانيون يشكلون ٦٧.٧٪ من سكان أندورا. كانت هذه الغارات أشبه بغارات القراصنة القصد منها السلب والنهب واختطاف الأهالي بغية المطالبة بفدياتهم.

(٣) **الروادسة**: نسبة إلى جزيرة رودس وهي جزيرة تقع في اليونان. تعرف الجزيرة تاريخياً بكونها موقع تواجد أبولو رودس سابقاً، وهو أحد عجائب الدنيا السبع.

(٤) ساعد موقع قبرص الاستراتيجي الهام في قبالة الساحل السوري على تزايد الغارات.

(٥) **صيدا**: مدينة قديمة بناها الفينيقيون على الساحل الشرقي للبحر المتوسط وتقع شمالي مدينة صور وهي اليوم من مدن الجمهورية اللبنانية.

(٦) **بيروت**: مدينة تقع على الساحل الشرقي للبحر المتوسط كانت وما زالت مرفأً مهماً. وقد هدمت في زلزال أصاب المدينة في أواخر القرن السادس للميلاد، والمدينة اليوم عاصمة الجمهورية اللبنانية.

(٧) **دمياط**: مدينة من أهم مدن الوجه البحري في مصر قديماً وحديثاً، تقع عند مصب الفرع الشرقي من نهر النيل في البحر.

❖ /٧٩٢هـ/ تحرك أسطول قراصنة مشترك من جنويين وصقالبة وبيزا[١]. وهاجموا ميناء طرابلس[٢] ثم توجهوا غرباً حيث استولوا على جزيرة جيربا[٣] في خليج قابس[٤]، ومنها هاجموا ثغر المهدية وحاصروه.

❖ /٨٠٤هـ/ في عهد السلطان فرج كثر هجوم الفرنجة على الموانئ بسبب الإنقسام الداخلي، حتى أنهم توغلوا في القرى الداخلية.

❖ /٨٠٦هـ/ توجه حاكم جنوا على رأس أسطول ضم إليه قراصنة الروادسة والقبارصة وعزم على ضرب الاسكندرية، ونشب عن ذلك قتال شديد في شوارع الاسكندرية مع الفرنجة والدولة الجركسية. ومن ثم توجه إلى طرابلس وبيروت حيث نهبهما.

❖ وتعرضت شواطئ المغرب العربي لأخطار صليبية كثيرة في حين تنازع الأمراء الجراكسة من يكون المقرَّب للسلطان[٥].

❁❁❁

---

[١] **بيزا**: مدينة إيطالية في إقليم (توسكانا)، تقع قرب الساحل الغربي للبحر التيراني.

[٢] **طرابلس**: اسمها مأخوذ من (تريبوليس) أي (المدن الثلاثة). مدينة مشهورة تقع على الساحل الشرقي للبحر المتوسط كانت من المراكز الفكرية والتجارية الهامة في العهد الإسلامي وهي الآن من مدن الجمهورية اللبنانية.

[٣] **جزيرة جيربا**: جزيرة تونسية تقع داخل خليج «قابس» في جنوب شرق «تونس» وتحتل مساحة/ ٥١٤/ كيلو متراً مربعاً، عاصمتها «أم الدسوق»، علماً أنّها تعدّ أكبر الجزر في سواحل أفريقيا الشمالية.

[٤] **خليج قابس**: أو (خليج سيرتس الصغير كما كان يسمى قديماً) هو خليج في المياه الإقليمية التونسية يقع شرقي البلاد متفرعاً من البحر المتوسط.

[٥] قيام دولة المماليك الثانية د. حكيم أمين عبد السيد/صفحة١٥١ وما بعدها/.
ابن قاضي شهبة ذيل تاريخ الإسلام مجلد /٣/ صفحة/١٩٥/.
كردعلي خطط الشام جـ٢ صفحة/١٨٦/.
المقريزي السلوك جـ٣ صفحة /٤١/.

محاولات لعلها تجدي

رغم الأعمال المنافية للدعوة السلمية التي دعا إليها السلطان تيمور بيك من قِبل السلطان المملوكي وصاحب قيصريّة، والتحدي العلني الذي قاما به فضلاً عن تحدي السلطان العثماني بيازيد للسلطان تيمور بيك كبراً وطغياناً، لم يتحرك نحو واحد منهما وقد وجد أن بقاءه في بغداد يعرض قواته لخسارة كبيرة بسبب قلة المؤونة بها، وإن اتحاداً بين المماليك والأتراك العثمانيين ضده سيعرِّض المسلمين بشكل عام لخسارات كبيرة.

لذا اتجه نحو الشمال الغربي ليهاجم كل واحد على حِدَة بخطط تضمن حياة السكان الوادعين، فاستولى على ماردين[1] بعد حصارها، إذ صعد عساكره إلى سورها بالسلالم فهرب كثير من أهلها إلى القلعة وقاتله بعضهم واستولى عليها وكتب إلى من بالقلعة يقول: « **نُعلم أهل قلعة ماردين والضعفاء والعجزة المساكين إننا قد عفونا عنهم وأعطيناهم الأمان على نفوسهم ودمائهم فليأمنوا وليضاعفوا لنا الأدعية**»، ثم ارتحل يوم السبت إلى البَشْرِية.

ثم اكتسح أرمينيا الكبرى[2] واسترجع قلعة أونيك وهزم العشائر التركمانية الذين دأبوا على الاعتداء على قوافل الحجاج، ومن ثم عرج على بلاد قرا يوسف التركماني[3]، واكتسح بعدها بلاد الجراكسة في شمال شرق البحر الأسود، وفي تلك

---

(١) **ماردين**: مدينة تقع إلى الشمال من سوريا والجنوب من تركيا، ورد اسمها في عدد من المعاجم، وهي على لفظ جمع مارد، ومارد هو كل شيء استعصى وامتنع، ويفيد في اللغة السريانية معنى الحصن، وهي في غاية المناعة، لدرجة أن الغزاة ملوا حصارها وتعذر عليهم نوالها.

(٢) **أرمينيا**: بلاد واسعة تقع جنوب غرب قارة آسيا، كانت بين الخزر شرقاً ووادي الفرات غرباً.

(٣) **قرا يوسف التركماني**: زعيم قبيلة الشاة السوداء، وكان قرا يوسف نواة الفتن بين السلطان تيمور بيك والمماليك والأتراك، وله يد طولى في قطع الطريق على الحجاج إلى بيت الله الحرام، ذكرنا في المجلد الأول فقرات عنه مما يستطيع به القارئ أن يقف على بعض أحواله.

الأثناء تحرك توكتاميش خان الهوردة الذهبية مهاجماً بلاد ما وراء النهر، فاضطر السلطان تيمور بيك إلى الاشتباك معه حتى إنهاء قضيته كما سبق وذكرنا.

ومن ثم زحف شرقاً نحو الهند تاركاً بغداد تحت حكم ابنه ميران شاه كما مرَّ معنا.

وما أن علم السلطان برقوق برحيل السلطان تيمور بيك حتى تحرك بجيشه إلى أن وصل دمشق، وجعل همَّه أن يكون شرف استعادة بغداد من نصيب دولته المملوكية الثانية.

وكتب السلطان برقوق لأحمد بن أويس تقليداً بنيابة السلطنة ببغداد، وزوده بالأمراء والمماليك والخيل والجمال والسلاح والنقد بما أدهشه وجعله تابعاً رسمياً للسلطنة المملوكية الثانية.

ويصف ابن صصري صاحب كتاب (الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية) رجوع أحمد بن أويس إلى بغداد فيقول:

(وفرح السلطان برقوق بدخول السلطان أحمد بن أويس[1] إلى بغداد، لكون أنه قام معه، لكنّه لم يفلح فإن السلطان أحمد بن أويس مؤذٍ ظالم، قليل الدين، وما هذه شيمة الملوك ولا يعتبر بما جرى عليه من هروبه من العراق. ولا يحمد الله تعالى على رجوع الملك إليه.

ولقد ذكر لي إنسان من بغداد جاء إلى دمشق أن السلطان أحمد لما دخل بغداد ظلم أهلها وأخذ أموالهم، وفعل معهم كل قبيح، والنحس ما يجيء منه جيد حتى ذكروا أن الذي كان فيها من جهة تيمور بيك أجود منه، فقد كان محسناً في حق أهل بغداد وبقوا يتأسفون عليه.

[1] **السلطان أحمد بن أويس الجلايري**: جلس على تخت سلطنة بغداد بعد أن قتل أخيه وعدداً كبيراً من أمرائه المعروفين ومن هم تربة السلطنة وأعيان رجالها، واتصل بجمع من الأجلاف وأصحاب الدنايا والسفاهات فكان نديمهم، وكان يجاهر بالقبائح ((يعمل عمل قوم لوط))، واتصل بجمع من الأمراء والأوباش فاضطربت الأحوال وتشوشت الأمور. وقد أعطاه السلطان برقوق تقليداً بنيابة السلطنة ببغداد. لطفاً انظر المجلد الأول: فضائح سلطان المسلمين أحمد بن أويس ٣٥٩-٣٦٣.

وذكر أن إنساناً كبيراً وجد مصحفاً للسلطان أحمد من الذي نهبت له في أيام تيمور بيك، فأراد الرجل أن يعمل حشمة وردّ المصحف إليه، فلمّا أبصره قال للرجل: "**وأين الكتب التي كانت مع المصحف**"؟.

قال: "**هذا وجدته مع بعض الناس وفيه اسم السلطان أحمد فشريته وجبته إليك تقرباً لخاطرك**"، فقال له:

"**لا أعرف ما تقول أريد الكتب التي كانت معه كلهم وإلا قتلتك**"، فطلع الرجل حائراً وقد وقع في يد هذا الظالم، ولم يُسيّبه حتى أخذ منه خمسين ألف درهم. فإنه كان من كبار الناس، فبهذا سادت الملوك! ولم يعد أحد يردّ عليه شيء، وهذا من نحس تدبيره).

بيد أن السلطان تيمور بيك رغم انشغاله في غزواته لقلعة تكريت[1] في ربيع الأول سنة /٧٩٧هـ/ وروسيا في ربيع الثاني من السنة نفسها والهند سنة/٧٩٩هـ/ واكتساحه لعدد كبير من بلاد الشرق الأوسط سنة/٨٠٠هـ/ لم يكف عن مراسلة الظاهر برقوق، إذ أرسل سنة/٨٠٠هـ/ رسله إلى السلطان برقوق يطلب منه مرة أخرى أن يطلق سراح قريبه أطلمش، مبيناً وداعياً إلى الحلول السلمية، ولم يشأ السلطان تيمور بيك أن يغزو دولة المماليك الجراكسة في بلاد الشام موطن الإسلام وعظمته الأولى، وأن يضطرب أمر المسلمين جراء غزوه لها، رغم ما عمَّ فيها من ضعف إيماني شديد وبعد عن الشرع الشريف، ويقول **ابن صصري** واصفاً حالة مماليك الظاهر برقوق يوم بعثهم إلى دمشق لرد الجيش التيموري:

---

[1] **تكريت**: تقع على الضفة اليمنى لنهر دجلة وعلى بعد١٨٠كيلومتراً شمال مدينة بغداد و٣٣٠ كيلومتراً جنوب الموصل. وهي تميل بحافة شديدة الإنحدار على نهر دجلة، يتراوح ارتفاعها بين ٤٥/٥٠ م تقريباً، ومنطقة تكريت شبه متموجة ترتفع عن سطح البحر ١١٠ م.

"ثم استهل شهر رمضان المعظم يوم الثلاثاء، وأما مماليك السلطان برقوق فإنهم طال عليهم المقام في دمشق وفرغت نفقاتهم وأكثرهم في سكْر وغير ذلك، فمنهم من باع فيله، ومنهم من باع قماشه، وانكشفت أحوالهم، وجرى لهم كما قال المثل ((عديم ووقع في سلة تين)) وتهتكوا في دمشق غاية التهتك وقد قال الصادق ﷺ: ‹ **إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت**›[1] وأكثرهم تغيّر عليه الماء والهواء فضعف منهم خلق كثير، ومات منهم جماعة، وحصل للناس ضرر كبير من مماليك السلطان وغيرهم، فإنهم بقوا يطلعون إلى بساتين الناس وإلى البلاد القريبة التي في الغوطة ويأخذون التبن والشعير وأيّ من تكلم قتلوه. اللهم فرج عن المسلمين:

فإن كان رب البيت بالطبل ضارباً فما شيمة أهل البيت إلا الرقص والناس على دين ملوكهم". (انتهى كلام ابن صصري).

۞۞۞

[1] سنن أبي داود ـ ج٢/رقم:٤٧٩٧/ عن ابن مسعود.

ويحدثنا محمد كردعلي في كتابه خطط الشام:

وفاة برقوق وسلطنة ابنه الحَدث القاصر

الملك الناصر فرج والأمراء المتنازعين

وفي سنة /٨٠١ هـ/ توفي الظاهر برقوق، وتولى السلطنة بعده ابنه الناصر فرج وله من العمر نحو اثنتي عشرة سنة، فكانت وفاته من زيادة سوء طالع الشام حيث كَثُر طمع القريب والبعيد في اكتساح البلاد.

وفي سنة /٨٠٢ هـ/ خامر نائبُ الشام (تنم) وأظهر العصيان، وأطلق من كان مسجوناً من الأمراء بقلعة دمشق، ثم جمع عسكراً عظيماً من الشام وقصد نحو الديار المصرية، ووصل أوائل عسكره غزة، فجيَّش السلطان الملك الناصر فرج وسار إلى الشام، فلما وصل خرج أقبغا اللكاش نائب غزة هو ونائب حماة ونائب صفد وطرابلس وحلب وكثير من العربان حتى ظن تنم نفسه أصبح سلطاناً. وخرج بعسكره إلى قتال الملك، فدهش النواب لمرأى جيش السلطان فرج وانقلبوا معه، فكان أول من دخل تحت طاعته نائب حماة ثم نائب صفد. فلما رأى عسكر نائب الشام دخول النواب تحت طاعة السلطان، خامر الجميع على تنم نائب الشام وانقلبوا عليه، وتوجهوا إليه في غزّة، فَمَلَكَ السلطان غزّة، وبلغ ذلك نائب دمشق فخرج منها هو وبقية الأمراء وأتوا إلى مدينة الرملة، فصار السلطان في غزة وهم في الرملة، فراسلهم السلطان في الصلح فأبوا، فتلاقى العسكران (على مكان يسمى الحبتين)، فكان بينهم هناك وقعة عظيمة، فوقعت الكسرة على تنم نائب الشام وأُمسك، واحتاطوا على بركة ودوابه، وقبض الملك الناصر فرج على جملة من

الأمراء الذين خامروا عليه، وقيدهم وحبسهم في قلعة دمشق. ودخلها في موكب عظيم وأمامه تنم نائب دمشق مقيداً راكباً على بغل أبلق، ومعه عشرة من أمراء دمشق وهم في قيود فحبسهم في القلعة، ثم قتل وخنق عدة أمراء منهم.

وذكر ابن حجر هذه الحوادث بما نصه، وفيه:

/٨٠٢هـ/ توجه أقبغا اللكاش ومعه جماعة إلى غزة من جهة نائب الشام فملكها في ربيع الأول، وتوجه جليان ومعه جماعة إلى حلب فحاربوا صاحبها ثم تبعهم الأمير تنم بمن تأخر معه، فلما وصل إلى حمص تسلمها وتسلم القلعة ولم يشوش على النائب بل قرر غيره في النيابة، ثم وصل إلى حماة فحاصرها فاتصل به وصول ايتمش ومن معه فرجع منها إلى دمشق، ووصل إليه نائب طرابلس فبلغه بعد أن خرج من طرابلس أن أهلها وثبوا على نائبه وأقفلوا أبواب البلد الجدد فرجع عليهم ودخلها عنوة، وقتل من أهلها مقتلة عظيمة، حتى قيل أن أقل من قتل منهم ألف نفس، منهم مفتي البلد وقاضياها ومحدِّثها، وهرب أكثر أهلها ومن تأخر إما قتل وإما صودر، قال:

وأراد يونس الرماح نائب طرابلس إحراق البلد فاشتريت منه بثلاثمائة وخمسين ألف درهم، جبيت ممن بقي بها من أهلها، هذه أوضاع المسلمين المزرية في بلادهم قبيل مجيء السلطان تيمور بيك لإصلاح البلاد والعباد.

❁❁❁

رسالة السلطان تيمور بيك
بعد وفاة الظاهر برقوق

وما أن وصلت إلى السلطان تيمور بيك أنباء وفاة السلطان برقوق والقاضي أبي العباس أحمد صاحب قيصريّة وما تبع وفاتهما من ازدياد اضطراب بلادهما، حتى تقدم بجيوشه في سنة/٨٠٢هـ/ من الهند، وبعد أن وصل أذربيجان[١] كما ذكرنا اتخذ من تبريز[٢] مركزاً له لإرسال الحملات إلى الجهات التي أملت عليه تحركاته.

إذ لما أدرك السلطان تيمور بيك أنه لا فائدة من محاولة الاتفاق مع بيازيد أو غيره هبط بجنده على بغداد التي اضطربت أحوالها بسبب ثورة أمرائها على أحمد بن أويس، وطرده واستولى عليها للمرة الثانية، ومن ثم أخذ مدينة سيواس سنة/٨٠٣هـ/ بعد أن فرّ سليمان بن بيازيد منها، وتقدم زاحفاً على ملطية[٣]، ومن هناك أرسل السلطان تيمور بيك كتابه الأول إلى السلطان فرج بن برقوق، وجاء في هذا الكتاب:

« لقد بدرت من والدك حركات مستهجنة من جملتها إهانة رسلنا دون سبب، وحبسه أطلمش الذي كان من رجال بلاطنا وعدم إرجاعه، ولما أسلم والدك وديعة الحياة فإن سؤاله وجزاءه قد أوكل إلى الباري يوم

---

(١) **أذربيجان**: جمهورية أذربيجان هي جمهورية تقع في الجزء الشرقي لمنطقة ما وراء جبال القوقاز وتَحُدُّ أذربيجان من الشمال جمهورية داغستان ومن الشمال الغربي جمهورية جورجيا، ومن الجنوب الغربي جمهورية أرمينيا، ومن الجنوب جمهورية إيران.

(٢) **تبريز**: مدينة إيرانية مهمة تقع في شمال غربي إيران.

(٣) **ملطية**: مدينة قديمة في شرق الأناضول، تقع على ارتفاع ٨٨٠م تقريباً عن سطح البحر، عند المجرى الأعلى لنهر الفرات، كانت ملتقى طرق قديمة مهمة.

القيامة . وينبغي عليك أن ترحم نفسك وأهل مملكتك ، وأن تعيد أطلمش إلينا حتى تنجي أهل مصر والشام من انتقام جيشنا الذي يتحرَّق إلى الثأر، وإذا سلكت غير هذا الطريق بدافع من وسوسة شيطان اللجاج وعناد الخلاف ، فإن جميع تلك الديار والبلاد سوف تصير خراباً بمجرد مرور عساكرنا المنصورة وعبورها فيها، وسيكون وزر وبال دماء المسلمين وأموالهم في عنقك»[1].

وحين وصل رسل السلطان تيمور بيك إلى حلب بهذا الكتاب قبض عليهم نائبها كالعادة ليخبر السلطان أولاً بمجيئهم، غير أن السلطان فرج جرياً على تقاليد والده أرسل يأمره بربط الرسل وإهانتهم وإلقائهم في السجن.

❁❁❁

(١) شرف الدين علي يزدي: ظفر نامة ج٢ـ ص٢٧٦.

وعلى حدود بلاد الشام

عندها:

زحف السلطان تيمور بيك في رجب سنة/٨٠٣ هـ/ على البهنسا[١] التي أعد نائبها الأمير مُقبلْ عدته للدفاع عنها، ولكن الذعر تملكه حين وجد ضخامة جيش السلطان تيمور بيك، وأرسل يعرض رغبته في التسليم مع الاعتراف بعجزه وحاجته لمعونة السلطان تيمور بيك الذي أجابه لما أراد، وأحسن استقباله. وصُكَّت النقود باسم السلطان تيمور بيك، ودُعي له في الخطبة بهذه المدينة.

وكذلك زحف إلى عينتاب[٢] شمال حلب، وعلى الرغم أنها امتازت بأسوارها الضخمة ومناعتها فإنها سلمت مفاتيحها إليه وفتحت أبوابها، فعيَّن السلطان تيمور بيك نائباً من قبله، حيث فرَّ نائبها السابق إلى حلب.

والعجيب أنه حين تحدق الأخطار بدولة المماليك الثانية في قلب الإسلام ويزداد الرعب في سورية من الشائعات التي أحاطت بزحف السلطان تيمور بيك حيث أنهم هم يظنونه خطأً كالمغول الكفرة مع ذلك فإن التنافس يزداد بين الأمراء من أجل النفوذ، ويدبرون الفتن من أجل ذلك. تماماً كما كان الوضع بعد مقتل المِلِك كورغان

---

(١) **البهنسا**: تقع هذه المدينة فى الأقليم الـ١٩ من أقاليم مصر العليا ، وذكرت فى النصوص المصرية باسم **بر ـ مجد** وتعني مدى الالتقاء وتضم هذه المدينة العديد من الآثار على مر العصور التاريخية.

(٢) **عينتاب**: وهي مدينة عنتاب أو غازي عنتاب كما يسميها الأتراك، تعتبر أكبر مدينة في تركيا. كانت المدينة تعرف لدى العرب و السلاجقة والعثمانيين باسم عنتاب لكن البرلمان التركي أضاف كلمة غازي لاسم المدينة يوم ٨ فبراير/شباط ١٩٢١ فأصبحت غازي عنتاب.

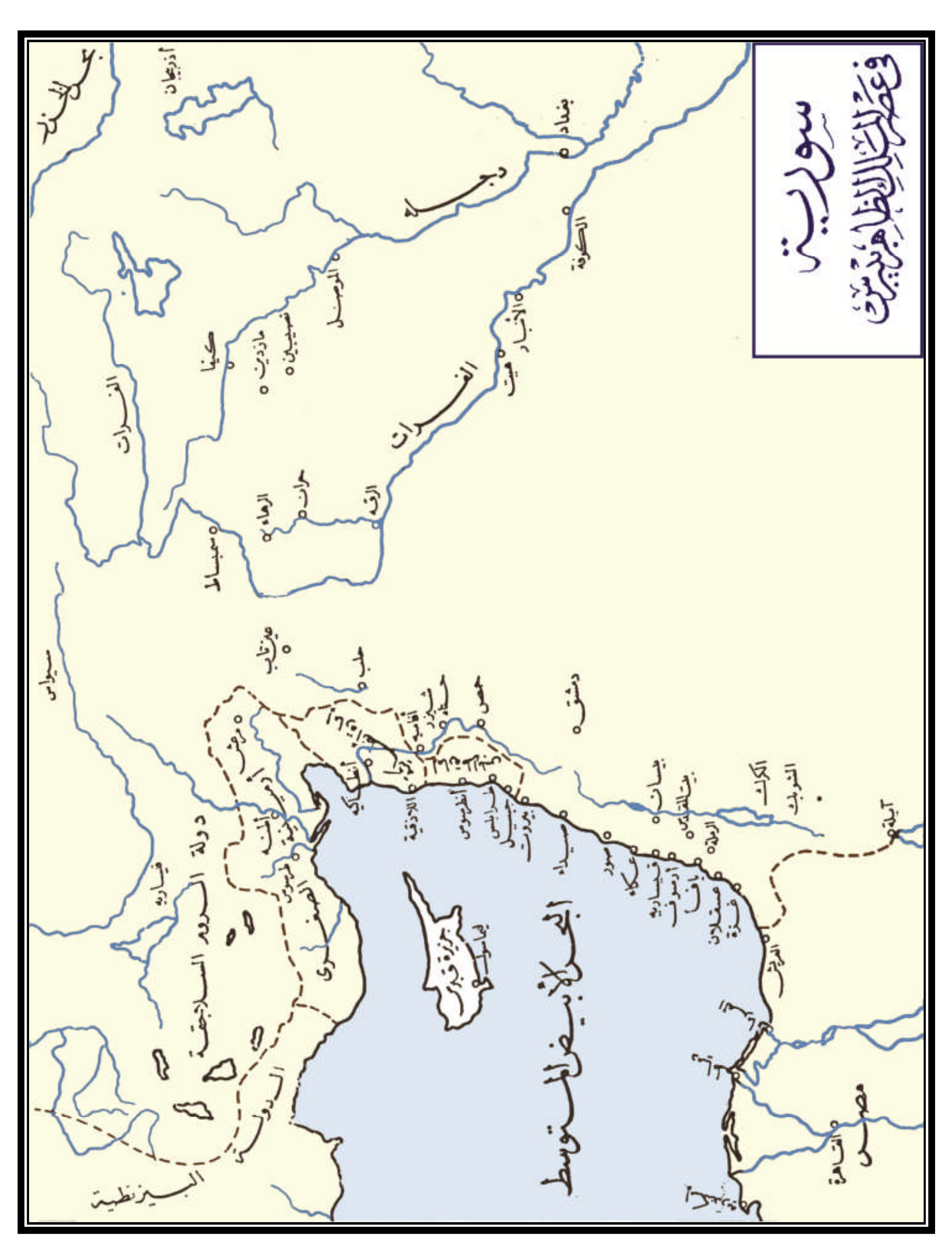
في بلاد ما وراء النهر، وقبل أن يمسك الأمير تيمور بيك بزمام الأمور، حيث كان كل أمير يحتفظ بأملاكه على حِدَة، ويبغي سلب جاره من الأمراء المسلمين، والمغول تزحف بجحافلها تجاههم، فوقع عليهم طوغلوك ملك المغول كحجر يقع على عصافير. كما مرَّ ذكره في المجلد الأول لهذا الكتاب.

وكذلك الآن في قلب الأمة الإسلامية كان الوضع نفسه سائداً إلا أن الغازي فاتح إسلامي جاء لتأديب العاقّين لدينهم ولتهذيب نفوسٍ لا يهمها إلا أنانيتها، وإلا لاندرس الإسلام إلى الأبد لو كان الغازي على غير دين الإسلام.

ويصف ابن تغري بردي حالة البلاد التي لم يوفق السلطان الجديد الحَدثْ فرج بن برقوق في قطع دابر المشاكل التي كانت الدولة تعاني منها فيقول:

(لم يتأهب أحد من المصريين لقتال تيمور بيك ولا التفت إلى ذلك، وكان همٌّ كل واحد منهم ما يوصله إلى سلطنة مصر وإبعاد غيره عنها).

حتى أن الظروف الاقتصادية والصحية السيئة التي أحاطت بالدولة أيضاً لفسقهم جعلت السلطان فرج الصغير السن يطلب المال من التجار للمساعدة في نفقة العساكر، وكذلك لم يمتنع القضاة المأجورون عن الفتوى في أخذ نصف الأوقاف لإقطاعها للأجناد البطالين لإمكان تعبئتهم ضدَّ المسلمين بدل السلام الذي رفضوه، وحرموا الفقراء والمساكين والأرامل حقهم.



سوريا في عصر الملك الظاهر بيبرس

وجَنَتْ على نفسها حلب

(وفتحت رعباً دون صدام قتالي)

حاول السلطان تيمور بيك صرف أمراء سورية عن القتال، فأرسل إلى سودون نائب دمشق وإلى القضاة ورجال الدين في دمشق أنه: إنما زحف على سيواس لتأديب السلطان العثماني، وأنه بقدومه إلى مصر أراد أن تضرب السكة باسمه وأن يذكر اسمه في الخطبة، ثم يرجع بعد أن يقرَّ في مصر سلطاناً عادلاً يخشى الله ويرضى الله عنه، وأنه ليس له من قصد سوى طلب أطلمش قريبه المقبوض عليه. غير أن سودون نائب دمشق لم يسمع كلامه.

عندها زحف السلطان تيمور بيك على حلب[1] التي اجتمع فيها نواب سوريا (دمشق، حلب، حماة، بعلبك، حمص، طرابلس، صفد، وغزَّة) بجيوشهم ونزل على بزاغه (إحدى قرى حلب) وتوقف قليلاً عن الزحف.

وتؤكد المصادر الفارسية أن جيش بلاد الشام كان ضخماً وتكوَّن من المحاربين المدرَّبين، وزُوّد بأسلحة كافية لصد أي هجوم، غير أنه من المخجل حقاً اختلاف الأمراء وقتذاك على الزعامة فلو لم يكن الزحف إسلامياً أي لو كان الزحف صابئاً أو مشركاً.. فما هو مصير المسلمين الذي سيلقونه؟ تنازعوا ففشلوا وذهبت ريحهم، في وقت تأخر فيه السلطان فرج عن الحضور بسبب خوفه من انصراف الأمراء في مصر إلى التنافس على النفوذ والسلطة.

---

(١) **حلب**: تقع على ملتقى طرق تجارية مهمة في الشمال السوري وبذلك أصبحت مفتاحاً للمبادلات بين بلاد الرافدين وبين سورية وفلسطين ومصر ومن ثم بين الشرق والغرب.

وعلى كلٍّ فقد أرسل السلطان تيمور بيك إلى دمرداش نائب حلب كتاباً يعده باستمراره على نيابته لو قبض على سودون نائب دمشق. وجاء في كتاب السلطان تيمور بيك إلى دمرداش :

« إنا لما وصلنا في العام الماضي إلى البلاد الحلبية لأخذ القصاص ممن أهان رسلنا بالرحبة .. فلما وصلنا إلى العراق بلغنا موت برقوق، فبلغنا أمر الهند وما هم عليه من الفساد، فتوجهنا إليهم، فأظفرنا الله بهم، ثم رجعنا إلى الكرج فأظفرنا الله بهم، ثم بلغنا قلة أدب الصبي ابن عثمان فأردنا عرك أذنه فشغلناه بسيواس وغيرها من بلادٍ ما بلغكم، ثم قصدنا بلاد مصر لنضرب بها السكة ويذكر اسمنا في الخطبة، ونحن نرسل الكتب إلى مصر فلا يعود جوابها فنعلمكم أن ترسلوا قريبنا أطلمش الصالح، وإن لم تفعلوا فدماء المسلمين في أعناقكم والسلام».

رأى دمرداش نائب حلب مطاولة السلطان تيمور بيك ومهادنته ريثما تترتب الأمور فاتهمه الأمراء بالعمل مع السلطان تيمور بيك عدوهم، فغضب دمرداش وبرّأ جانبه بإهانته للرسل، واحتفظ برأيه لنفسه.

أخذ نواب حلب وحماة وطرابلس وصفد وغزة في الإعداد لمواجهة القتال داخل حلب، واستولى السلطان تيمور بيك على جيلان دون قتال خارج حلب ومن ثم تقدم لحصارها.

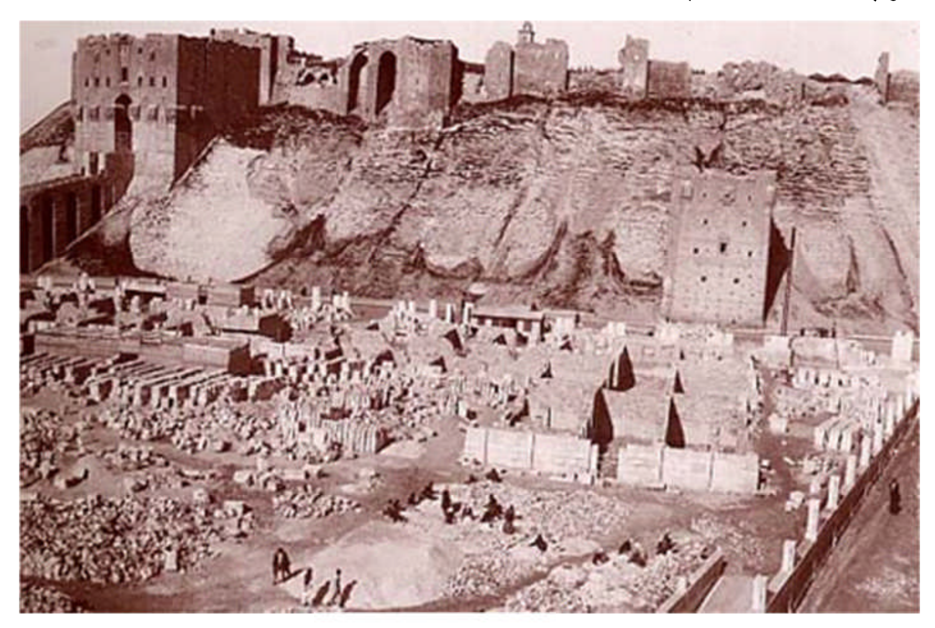
دأب السلطان تيمور بيك أن يكون اقترابه من حلب على مهل، متقدماً إلى الأمام كل يوم، حافراً الخنادق ومقيماً حواجز حول منازله لتفادي أي تصرف أحمق من قبل الأمراء طالبي الزعامة والشهرة، مما قد يعرض المسلمين الآمنين لأرزاء حرب هم بغنى عنها، وقوله :

« إن الحاكم الذي يخاف شعبه سوطه أكثر من شخصيته غير جدير بمنصبه ».

وبذلك راحت تسبقه دعايات الرهبة التي تعمَّدها أثناء تأديبه للمسلمين الشاذين والمنافقين. رغم معارضة دمرداش نائب حلب الخروج من المدينة للتصدي للقوات الغازية فإن أمراء المماليك خرجوا وحفروا الخنادق وأرسلوا يطلبون من العشائر التركمانية والأعراب أن يقوموا بمناجزة الجيش التيموري . وتقرر أيضاً أن يشترك سكان حلب مع العسكر في عمليات الدفاع ، وقد نصبت المنجنيقات والعرَّادات على الأسوار ، وأوصدت الأبواب وتولى سكان كل حي مهمة الدفاع عن حيِّهم.

ويصف المقريزي في سلوك الروح المعنوية السائدة :

(إلا أن الأهواء مختلفة والآراء مغلولة والعزائم محلولة والأمر مدبَّر ولا تصلح القلوب ما أفسدها حب الذات).



قلعة مدينة حلب

وفي هذه الأثناء بعث السلطان تيمور بيك برسول من أقربائه إلى سلطات المدينة يدعوها إلى المصالحة وحقن الدماء فرفضوا . وللحال تقدم الجيش التيموري من خلف حواجزهم.

ولم تُجد مقاومة عساكر سورية بسبب مفاجأة السلطان تيمور بيك لهم بجيوشه وفيله ، ففروا دون قتال قاصدين داخل حلب رغبة في الاحتماء بأسوارها ، وفرت أعداد من جند المماليك باتجاه دمشق ، والقسم الأعظم قفل راجعاً إلى حلب ، وحال الازدحام عند أبواب المدينة والفوضى الناتجة إلى عدم استطاعة الحامية إغلاق الأبواب لما أصابهم من الذعر حتى أهلك المماليك بعضهم بعضاً تحت حوافر الخيل ، من شدة الرعب وتناقل المعاصرون هول هذه الواقعة وازدحام الناس عند دخولهم من أبواب المدينة وكيف داس بعضهم بعضاً فيقول ابن عربشاه يصف حالهم :

(فقصدوا المدينة من الباب المفتوح.. فوصلوا إلى باب المدينة وانكرسوا وهجموا فيه يداً واحدة وتكردسوا ، ولا يزال يدوس بعضهم بعضاً حتى صارت العتبة العليا من الباب أرضاً فانسدت الأبواب بالقتلى ، ولم يُمكن الدخول منها أصلاً ، **فتشتتوا في البلاد وتفرقوا في البراري والأطواد ، وكسر المماليك باب إنطاكية (في قلعة حلب) وخرجوا منه كالأغنام قاصدين بلاد الشام ، فوصل فُلّهم إلى دمشق في أبشع صورة ، وحكوا في كيفية هذه الوقعة أشنع سيرة.**

وصعد النواب إلى قلعة حلب[1] وتحصنوا فضاقت عليهم الأرض بما رحبت فاستأمنوا ونزلوا بواسطة دمرداش إليه ، وقد غسل كل منهم من الحياة يديه).

[1] تعلو القلعة ما يقرب من أربعين متراًعن مستوى مدينة حلب، ومازالت أسوارها وأبراجها قائمة، يعود بعضها إلى عصر نورالدين الزنكي، ويحيط القلعة خندق بعمق ثلاثين متراً، وندخل إلى القلعة من بوابة ضخمة من خلال برج دفاعي مستطيل الشكل، ينتهي بالمدخل الكبير للقلعة، ويتكون من دهليز ينتهي بباب ضخم من الحديد المطرّق، تعلوه فتحات للمرامي والمحارق.

حقاً لقد نصر الله تيمور بيك بالرعب وهم الذين قتلوا أنفسهم من جبنهم وحبهم للدنيا، والأنانية من أجل البقاء.

ويقول ابن إياس صاحب بدائع الزهور:

(فلما رأى دمرداش نائب حلب عين الغلب نزل من القلعة هو وبقية النواب وأخذوا في رقابهم مناديل وتوجهوا إلى السلطان تيمور بيك يطلبون منه الأمان، فلما مثلوا بين يديه خلع عليهم أقبية مخمل وألبسهم تيجاناً مذهَّبة، ((حقّاً لقد كانت أعماله كلها إنسانية "ارحموا عزيز قوم ذل")) وقال لهم أنتم صرتم نوابي، ثم أرسل معهم جماعة من أمرائه يتسلمون القلعة فاستنزلوا من كان بها).

وأرسل السلطان تيمور بيك كتاباً إلى السلطان فرج يكرر فيه طلب الإفراج عن أطلمش حتى يمكنه الإفراج عن نائبيه وباقي الأسرى إن كان حقّاً يريدهم ويهمه أمرهم، ولكن السلطان فرج وأمراءه كانوا في وادٍ آخر، والحقيقة كانوا أشبه ما يكونوا بلاعبي كرة القدم، ولكن بدلاً من الكرة كان السلطان فرج الذي يتقاذفه المتنافسون فيما بينهم رغبةً في ضمه لصفهم كلٌّ على حِدَة.

وقد خضعت حلب كسائر البلدان التي افتتحها السلطان تيمور بيك من جلوسه إلى الناس وسماع شكاويهم، وفك مظالمهم وإقامة القِصاص والعدل والحدود الصارمة على المستحقين.

❁❁❁

السلطان تيمور وعلماء حلب

طلب السلطان تيمور بيك علماء حلب وقضاتها وأجلسهم في مجلسه، وطلب من معه من أهل العلم (أميرهم عنده وهو عبد الجبار الخوارزمي صاحب السلطان تيمور بيك وإمامه وعالمه)، فقال له، قل لهم:

« إني سأسألهم مسألة سألت عنها علماء سمرقند وبخارى وهراة وسائر البلاد التي افتتحتها، فلم يفصحوا عن جواب، فلا يكونوا مثلهم، ولا يجبني إلا أعلمكم وأفضلكم، وليعرف ما يتكلم، فإني خالطت العلماء ولي بهم اختصاص وإلفْة، ولي في العلم طلب قديم ».

أوجس العلماء خيفة في أنفسهم إذ كان يبلغهم عنه زوراً وبهتاناً أنه يتعنَّت العلماء في الأسئلة، ويجعل ذلك سبباً لقتلهم أو تعذيبهم.

فقال القاضي شرف الدين موسى الأنصاري عن القاضي ابن الشحنة: هذا شيخنا ومدرس هذه البلاد ومفتيها سلوه وبالله المستعان.

فقال عبد الجبار للقاضي ابن الشحنة: سلطاننا يقول: **« إنه بالأمس قتل منَّا ومنكم فمن الشهيد، قتيلنا أم قتيلكم؟»**.

فوجم الجمع وازدرد كلٌّ واحد منهم ريقه، وقالوا بأنفسهم هذا الذي بلغنا عنه من التعنت. وسكت القوم.

فقال القاضي ابن الشحنة:

هذا سؤال سئل عنه رسول الله ﷺ وأجاب عنه.

وألقى السلطان تيمور بيك سمعه وبصره إلى القاضي وقال لعبد الجبار: **« كيف سئل رسول الله ﷺ عن هذا وكيف أجاب؟»**.

فقال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله إن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، فأي ذلك في سبيل الله ؟.

فقال رسول الله ﷺ: ‹ **من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله تعالى** ›[1]. ومن قاتل منَّا ومنكم لإعلاء كلمة الله فهو الشهيد.

فقال السلطان تيمور بيك: « **خوب خوب** » أي جيِّد جيِّد (بلغته).

من هذه المناقشة السامية تنكشف طويّة تيمور بيك وحبّه وإعجابه بالتضحية لا لدنيا يصيبها ولا استكباراً في الأرض، بل لتكون كلمة الله هي العليا، وينال عليها رضاه، وهكذا حقاً كان قتاله للإصلاح ما استطاع .

وقال عبد الجبار: ما أحسن ما قلت، وانفتح باب المؤانسة فقال السلطان تيمور بيك ليبين أنه قاتل لجعل كلمة الله هي العليا:

« **قد أخذت بلاد كذا وكذا وعدَّد سائر بلاد العجم والعراق والهند**[2] **وسائر بلاد التتار**» يريد بذلك أن يبين للعلماء بعد ما قالوا الجواب وهو الحق إنما أخذ البلاد التي عددها من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا وقد حصل ذلك ووقع بفضل الله تعالى، فقال ابن الشحنة وهو يرى السلطان تيمور بيك مسروراً: اجعل شكر هذه النعمة عفوك عن هذه الأمة ولا تقتل أحداً.

فقال السلطان تيمور بيك مطمئناً إياه وغيره من العلماء:

« **والله إني لا أقتل أحداً قصداً وإنما أنتم قتلتم أنفسكم في الأبواب ، والله لا أقتل أحداً منكم وأنتم آمنون على أنفسكم وأموالكم** ».

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن مردويه.

(٢) **الهند**: جمهورية الهند هي دولة في جنوب آسيا، تشمل معظم أراضي شبه القارة الهندية. هي ثاني أكبر البلدان في العالم من حيث تعداد السكان، يزيد عدد سكانها اليوم على المليار نسمة، كما تحتل المرتبة السابعة عالمياً من حيث المساحة.

هذا ما طلبه ابن الشحنة ووافق عليه السلطان تيمور بيك، فكيف يتهمونه بقتل الأطفال على صدور أمهاتهم وجعل المساجد اصطبلات للخيل؟!.

ومن ثم تكررت الأسئلة منه والأجوبة من العلماء والقضاة.

فطمع كلٌّ من الفقهاء الحاضرين وجعل يبادر إلى الجواب ويظن أنه معلم في المدرسة. لقد قضى مع العلماء وقتاً طويلاً وبالرغم أنه بيّن لهم أنهم بعمر أولاده فأراد أن يسبر غور تفكيرهم، لأن الذي لا يفكّر وينقل نقلاً دون أن يعي لا جدوى من نقاشه مهما طالت المباحثات.

ومن ثم سألهم ما أعجزهم فأرعدهم، والحقيقة أين علمه العظيم من علمهم البسيط؟! وأخذ ابن الشحنة في ملاطفته والاعتذار فعاد السلطان تيمور بيك إلى دون ما كان عليه من البسط، وبذلك أراهم كما قيل:

مرُّ المذاقة على أعدائه "الجهلة" **بشع**

حلو الفكاهة للأصحاب "الكُمّل" **كالعسل**

وحضر السلطان تيمور بيك صلاة المغرب، وأقيمت الصلاة وأمَّ الجمع عبد الجبار وصلى السلطان تيمور بيك إلى جانب ابن الشحنة قائماً يركع ويسجد، وقبل مغادرته حلب طلب من الأمراء الذين عينهم للإقامة بحلب قائلاً:

« **إن هذين الرجلين** "القاضي شرف الدين موسى الشافعي والقاضي ابن الشحنة الحنفي" **نزول عندكم بحلب فأحسنوا إليهما وإلى أتباعهما وأصحابهما ومن ينضم إليهما، ولا تمكّنوا أحداً من أذيتهما ورتّبوا لهما معاشاً، ولا تدعوهما في القلعة، بل اجعلوا إقامتهما في المدرسة يعني السلطانية التي تجاه القلعة** » ففعلوا ما أوصاهم به، وأحسن إليهما نائبه وقبل شفاعتهما وتفقد أحوالهما وفي مدة إقامته بحلب وقلعتها أخذ في الإحسان إليهما.

❁❁❁

سالمت حماة فسلمت

ولكن قلعتها!!..

توجه السلطان تيمور بيك بجيشه تلقاء الشام بعد أن أنجز أمر مدينة حلب وضبط أثقالها، ووكل بعض أمرائه من ذوي الشجاعة والمنعة كالأمير موسى بن حاجي طغاي، وكان ذا عزم شديد ورأي سديد.

مرَّ ميرزا شاه بن تيمور بيك بمدينة حماة[1] حيث قرر أهلها الاستسلام، ففتحوا باباً من المدينة ودخل ميرزا شاه في نفر قليل من أصحابه، ونادى بالأمان فقدم الناس عليه وقدَّموا له أنواع الطعام فقبلها، وأقام في المدينة رجلين يحفظانها، وخرج إلى مخيَّمه وبات فيه، ثم عاد في اليوم التالي ووعد الناس بخير ثم انصرف.

وبالرغم من أن القلعة كانت ممتنعة عليه ولم يتسلمها فإنه واصل مسيره دون أن يتعرض لأهلها بسوء فظنوا ذلك ضعفاً منه ورهبة منهم، رغم المسالمة التي أبداها. ولكن أهل القلعة قاموا بعمل أخرق عرَّضوا أنفسهم لدفع الثمن غالياً فيما بعد، إذ نزل فريق منهم إلى المدينة وقتلوا الرجلين اللذين أقامهما ميرزا شاه، مما جعل ميرزا شاه يعود إلى القلعة محارباً يُخضع أهلها. ولما قدم السلطان تيمور بيك إلى حماة استراح فيها عشرين يوماً.

---

(1) **حماة**: تقع في وسط دولة سورية، مرتفعة عن سطح البحر بقدر ٢٧٠ متراً، يمر فيها نهر العاصي فيقسمها إلى نصفين، وتعدّ من أقدم المدن في العالم، حيث عُثر فيها على مكتشفات تعود إلى الألف الخامس قبل الميلاد وتعني كلمة (حماة) في الكتب القديمة الحصن أو القلعة وفي اللغات الشرقية يسمى الحصن ((حامات)).

وقد كتب نقشاً باللغة الفارسية على الحائط القبلي بالجامع النوري[1] كما ذكر ابن عربشاه :

« وسبب تصوير هذا الكلام، هو أن الله تعالى يسَّر لنا فتح البلاد والممالك إلى العراق وبغداد، فجاورنا سلطان مصر ثم راسلناه وبعثنا إليه قصَّادنا بأنواع التحف والهدايا فأهان قصَّادنا من غير موجب لذلك، وكان قصدنا بذلك أن تتعقد المودة بين الجانبين، وتتأكد الصداقة من الطرفين.

ثم بعد ذلك بمدة قبض بعض التراكمة على أناس من جهتنا وأرسلوهم إلى سلطان مصر برقوق فسجنهم وضيّق عليهم، فلزم من هذا أنَّا توجهنا لاستخلاص معتقلينا، من أيدي مخالفينا واتفق لذلك نزولنا بحماة في العشرين من شهر ربيع الآخر سنة/ ٨٠٣هـ / »[2].

---

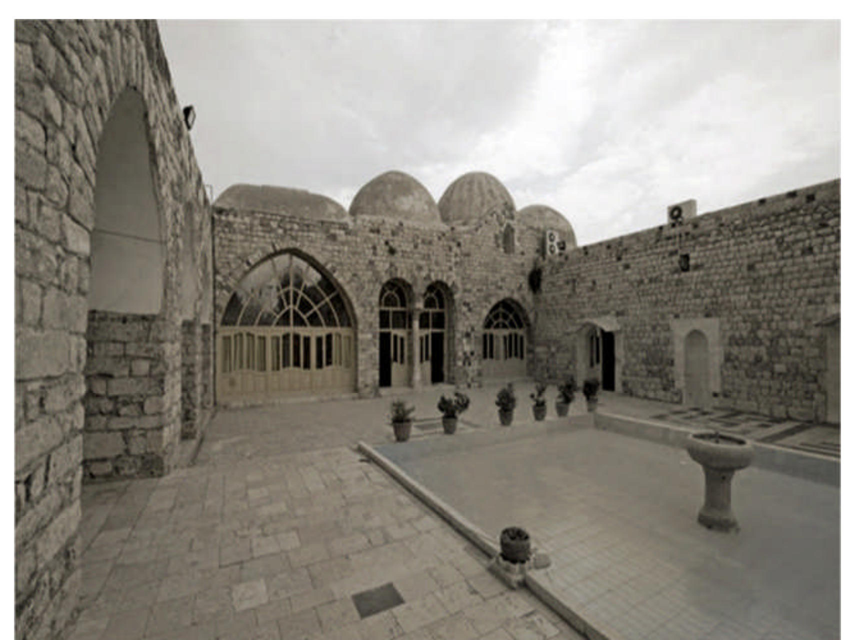
(١) **الجامع النوري**: بناه نور الدين الزنكي بقبابه الخمس لتتم روعة هذا الجامع فهي كبيرة ومختلفة في الشكل.

(٢) يتفق مؤرخو الشام ومصر والمؤرخون التيموريون بأن أعمال السلطان برقوق ومواقفه أدت إلى سير السلطان تيمور بيك لاجتياح بلاد الشام، ويلح شرف الدين يزدي بشكل خاص على إقدام السلطات المملوكية في الرحبة على سجن أعضاء الوفد التيموري عام/٧٩٦هـ/ ويقول أنه نجم عن هذا الحادث عواقب وخيمة.

ويرى العسقلاني في حادثة أسر أطلمش وامتناع برقوق عن تسليمه سبباً آخر ويعلق على ذلك: وكانت هذه الفعلة أعظم الأسباب، ويضيف ابن الشحنة سبباً آخر وهو غضب تيمور على برقوق لمساعدة أحمد جلاير الفاسق الفاجر على استعادة عرشه في بغداد، كل ذلك ولم يكن السلطان تيمور بيك يفكر بغزو بلاد الشام فيضطرب أمرها من غزوه لها، لكنه استثير من مهانتهم له و لرسله ومساعدتهم المغول الكفرة. وبغية إصلاح فساد المسلمين والذي أطمع الكفرة والصليبيين بالعودة للقضاء على الدين الإسلامي من جذوره لضعف المسلمين وتناحرهم على الدنيا الدنيّة، وبغية اجتثاث بؤر الإجرام والفسق والمكر اللعين، فالمحافظة على رفع شأن العلماء العاملين الصادقين المخلصين، لا المنتهزين المنافقين باسم الدين، بل العلماء الساعين حقّاً لإعلاء كلمة الدين فإصلاح البلاد والعباد بعد حلول أنواع الفساد.

الجامع النوري ـ مدينة حماة





الجامع النوري ـ مدينة حماة

ولا ريب أن سبب تلك الكتابة ما أدركه السلطان تيمور بيك من شائعات حول أسباب مجيئه وسياسة الحكام التي اعتمدت عليها لكسب الرأي العام الإسلامي ومناصرة العوام لهم، وفعلاً كان ذلك وتحقق ما علمه بفراسته، فشوِّهَتْ سيرته أيَّما تشويه، ولم يذُم ويقدح سيرته إلا الكتبةُ المسلمون للتاريخ إرضاءً لسياسة الحكام وتمجيد أعمالهم مقابل تشويه سيرة الفاتح والمصلح العظيم السلطان تيمور بيك.

وقد ذكروا لذلك حكايات وأرقاماً لا تتعدى أن تكون من خرافات العجائز، فمثلاً :

ـ ذكروا أن جيش السلطان تيمور بيك بلغ المليون جندي بينما العساكر السورية التي تجمعت في حلب لمقاومة المليون ثلاثة آلاف جندي مملوكي. ولم يخرجوا إلى ظاهر المدينة إلا تحت ضغط سكان المدينة، وكان من سوء تعبئتهم القتالية أن جعلوا النساء والأطفال قلباً للجيش المملوكي من المشاة، وأن القتلى كانوا في تلك المعركة عشرين ألفاً .

ـ فانظر إلى تلك التناقضات.

ـ فعجباً كيف انطلت أمثال تلك الأكاذيب على النقلة لكتب التاريخ المسيَّس؟!.

❁❁❁

مدينة حمص

ولما وصل السلطان تيمور بيك إلى حمص[1] لم يتعرض لها، وخرج إليه رجل من الناس يُدعى (عمر بن الرواس) فتقرب إليه وقدم له هدايا فاخرة، فامتحنه وولاّه أمور البلد، وولّى القضاء رئيساً يدعى (شمس الدين بن الحداد)، ونادى بالأمان للقاصي والداني.

وبذلك كانت حمص هي المدينة الوحيدة في بلاد الشام التي سلمت من الحرب، بسبب ما أظهروه من المسالمة (حيث تبايعوا وتشاوروا وفي استفادة ربح الأمن لم يتماروا) كما ذكر ابن عربشاه.

ثم غادرها إلى بعلبك[2]، فتضرع إليه أهلها وقدموا له الهدايا، ولم يمض فيها وقتاً طويلاً بسبب شدة البرد فيها، وكان الفصل شتاءً فتقدم منها باتجاه دمشق.

مدينة حمص جامع خالد بن الوليد

---

(١) **حمص**: مدينة **تقع** في وسط سوريا يمر فيها نهر العاصي. وهي ثالث أهم المدن السورية ويعود تاريخها إلى عام ٢٣٠٠ قبل الميلاد.

(٢) **بعلبك**: مدينة لبنانية تقع في شمال سهل البقاع وشرق نهر الليطاني، وتحيط بها من الشرق والغرب سلسلتا جبال لبنان الشرقية والغربية. تعلو بعلبك عن سطح البحر ١١٦٣ م.

على أبواب دمشق
(صراعات)

تمهيد:

سيطر الخاصكية(صغار الأمراء) على السلطان، واشتبكوا مع كبار الأمراء في معارك طاحنة في دروب القاهرة المؤدية إلى القلعة، وقد انتهت هذه المعارك بهزيمة إيتَمش ومن معه، وفرارهم إلى الشام، وبذلك أصبح "**يشبك النعماني وسودن طاز**" هما الحاكمين الفعليين في مصر مهد الصراعات والاقتتال الدامي في سبيل الحكم بذاك العصر.

وفي دمشق كان الأمير (تُنَم) على علم تام بما يجري في القاهرة، فلم يضيع الوقت، وتجاهل منذ البداية الامتثال لمراسيم السلطان على اعتبار أنها صادرة عن الأمير يشبك، فأعلن تمرده ثم بدأ يمهِّد للسيطرة على جميع نيابات الشام إلى أن تمَّ له ذلك، وأصبح السيد المطاع في بلاد الشام، وانقسمت البلاد قسمين حيث انضم إليه إيتمش وحزبه.

فقام الأمراء في مصر باعتقال عدد كبير من الأمراء والقادة والموظفين لمجرد الشبهة بأنهم أنصار تُنَم، وعند تل العجول قرب غزة التقت طلائع الجيشين في معركة انكسرت فيها طلائع تُنَم، ومن ثم أصرَّ تُنم على المعركة الفاصلة في غزة، فهُزم هزيمة ساحقة، ووقع تحت الأسر، وهرب من تبقى من الأمراء من أنصار تنم إلى دمشق، كإيتمش وتغري بردي وجماعتهما، فأودعهم نائب دمشق السجن ريثما يأتي السلطان، حيث ذبح بقلعة دمشق أربعة عشر أميراً من كبار الأمراء، معظمهم

في الثلاثينات من العمر، وكان أولهم إيتمش، وبقي تُنم ويونس نائب طرابلس تحت العذاب حتى دلاَّ على الأموال ومن ثم خُنقا.

ونجا تغري بردي بشفاعة أخته والدة السلطان فرج.

وهذا غيض من فيض من وضع المسلمين المزري، وقتلهم بعضهم بعضاً تكالباً على الدنيا حتى جاءهم الصالح المصلح تيمور بيك العظيم بغية الإصلاح ما استطاع.

❁❁❁

الدعاية والأخبار

أطلق السلطان تيمور بيك أسنبغا الدوادار وعبد القهار اللذين جاءا من مصر إلى حلب لكشف أخبار الجيش التيموري لسلطان مصر المملوكي اللذيْن شاهدا عظمة الجيش التيموري ومعه الفيلة .. وما أن وردا مدينة دمشق وقد حملا معهما الخبر باحتلال حلب حتى صاحا بالناس :

معاشر المسلمين الفرار مما لا يطاق. لا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة ، من يستطِعْ منكم فليطلب النجاة لنفسه بل ولا يبيتن الليلة في بيته ولا يغالط نفسه بالمداهنة. فليس الخبر كالمعاينة. فتفرقت الآراء ، واختلفت الأهواء ، وماج الناس وتفرقوا ، فهرب بعضهم إلى القدس ، وبعضهم إلى مصر ، واعتصم آخرون في قمم الجبال. وبقي في المدينة من رأى أن الشهادة في دمشق أفضل من الموت برداً ، أو على أيدي بعض الأعداء من سكان جبال لبنان والأعراب الذين يتربصون بهم الدوائر ، أما من كابر وأصرَّ على البقاء فقد اتَّهم أسنبغا وعبد القهار بالخيانة والتواطؤ مع السلطان تيمور بيك ، وقالوا لهما : إنما أردتم بذلك تخويف الناس وتشريدهم وإجلاءهم عن أوطانهم وتجريدهم وتفريق كلمتهم وتمزيق جلدتهم ، وإلا فالأمن حاصل ، والسلطان بحمد الله واصل ، وما زالوا على ذلك اللجاج حتى قدم عليهم المنهزمون من حماة قبل وصول السلطان تيمور بيك إليها إثر سماعهم سقوط حلب ، فعظم خوف أهلها وهمُّوا بالجلاء ، وزاد رعبهم قدوم أهل بعلبك فيما بعد بنسائهم وأولادهم وأنعامهم خوفاً من الشائعات ، فمنعهم نائب المدينة ونُودي (من سافر نُهِبْ) فعاد إليها من كان خرج منها ، وحصنت دمشق ونصبت المجانيق على القلعة

والمكاحل على الأسوار واستعدوا للقتال. أما الوضع في مصر لما وصلت الأخبار فقد ركب الشيخ عمر البلقيني والقضاة ونادى بالطرقات في الناس (بالجهاد في سبيل الله لعدوكم الأكبر تيمور، فإنه أخذ البلاد ووصل إلى حلب، وقتل الأطفال على صدور الأمهات، وأخرب الدور والمساجد والجوامع وجعلها اصطبلات للدواب، وأنه قاصدكم يخرب بلادكم ويقتل رجالكم وأطفالكم، ويسبي حريمكم). وفي حين كان الشيخ عمر البلقيني ومعه القضاة يصرخون ويجأرون بهذا الكلام ويحثون الناس على الجهاد، كان السلطان تيمور بيك حينها يكرم النواب المماليك بحلب ويلبسهم تيجاناً مذهبة ويكرمهم غاية الإكرام ويجمع العلماء حوله ويسامرهم ويناقشهم، ولم يكد ينادي هؤلاء بهذا النداء المرعب المخيف والذي كان زوراً وبهتاناً بحق سيّد ذلك الزمان حتى انطلقت ألسنة العامة بالوقيعة بأعيان الدولة، مما دفع الأمراء إلى سرعة تعبئة الجيش والاتجاه بالسلطان إلى سوريا. ونزل بالريدانية بأمرائه وعساكره ومعه الخليفة والقضاة، ومن ثم سار حتى نزل غزة وكأنه في رحلة استجمام أو صيد، وفي غزة عقد مجلساً عسكرياً لبحث أفضل السبل للتغلب على الزحف التيموري الذي كان في حماة في تلك الفترة، وقد ظهرت الأحقاد والضغائن بين الأمراء، وحاول كل منهم إظهار خصمه بمظهر العاجز الذي لا رأي له. ولم يستطع السلطان بدوره السيطرة على الموقف بسبب ضعف شخصيته وصغر سنِّه وكثرة الآراء، فانقسم جيش السلطان إلى قوات مختلفة اتَّجهت كل منها إلى ناحية دون خطة موضوعة..

❁❁❁

تاريخ الشائعات

التاريخ الذي وصل إلينا مشوِّهاً سيرة الفاتح العظيم تيمور بيك كان ينهل من الشارع والإشاعة، ونذكر أمثلة على ذلك من تاريخ ابن قاضي شهبة فقد ورد فيه:

❖ أخذ تيمور بيك الخارجي مارْدين على غرّة بضرب من الخديعة وعصت عليه القلعة، حكاه ابن حِجِّي، لكنه حكى قبل ذلك أنه أخذها قبل ذلك بأشهر، ووقع صاحبها في قبضته وسبب ذلك اختلاف الأخبار الواردة كما شاهدناه. صفحة/٥١٣/.

❖ وفيه: جاءت الأخبار بأن طائفة من جيش تيمور بيك ويقال ابنه معهم وصلت إلى مارْدين، واختلف النقل في سبب ذلك. صفحة/٦١٧/.

❖ ومنها: أن ابن تيمور بيك قصد بغداد وأراد أن يفعل بأهلها كما فعل أبوه، فخرجوا إليه فقاتلوه وكسروه كسرة فظيعة. هكذا شاع بين الناس. صفحة/٦٦١/.

❖ ويذكر عن غضب الأمير الكبير طُلب جلبان بسبب اختلاف مكاتبات نائب حلب من أنه لا حاجة لقدومه فإن حلب تغلب التيموريين، والمجيء لا فائدة منه، ويستحث الجيش في غير رسالة على القدوم. صفحة/٦٢١/.

❖ وهكذا فقد كان للإشاعات والدعاية دور كبير في زرع الرعب في عوام الناس وخواصهم قادة وأمراء وحتى السلطان فرج.

وراح المؤرخون يتصورون ما يمدّهم به الشارع من معلومات وهمية مهولة، ويخطونها وكأنها وقائع ثابتة.

ويحدثنا ابن صصري بكل بساطة :

(والناس معذورين ، فإنهم سمعوا من الإشاعات المختلقة عما عمل تيمور في بغداد بأهلها كعمل المغول الكفرة ، وأنهم يحرقون الناس بالنار حتى يحضروا الأموال ، وأن معه طوائف كثيرة ، فخافت الناس منه ، وأنه قاصد بلاد الشام.

وذكروا أن معه خمسمائة ألف مقاتل ، وباعت الناس الغالي بالرخيص ، ومزقت أنفس الناس من أمور متواترة وفتن خلّف بعضها بعضاً ، والأمر كله إلى الله تعالى يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد ، سبحانه لا إلٓه إلا هو رب العرش العظيم).



السلطة في دمشق

كانت في دمشق سلطتان تعملان بشكل متعارض، السلطة الإدارية بقيادة نائب الغيبة والحاجب، والتي كانت تؤمن بعدم جدوى المقاومة، فأخذت تروِّج فكرة تسليم البلد بأمان. وذلك إثر وصول رسل السلطان تيمور بيك يطلبون تسليم المدينة.

أما السلطة العسكرية التي تمثلت بنائب القلعة الذي بعث ينادي بالاستعداد للقتال، وأن من كان بحاجة لسلاح فليأت إلى القلعة لاستلام سلاحه، وهدد الذين قبلوا بالتسليم **بحرق المدينة.**

(هذا وقد حرقت بعدها. لا بدَّ وأنه هو الذي حقق تهديده فيما بعد حقداً من نفسه وشروراً).

لكن الروح المعنوية لم تكن تزداد إلا سوءاً، حيث وصل نائب حمص المملوكي فارّاً يبلغ عن وصول الزحف التيموري إلى حماة، وأنه على وشك التقدم منها إلى حمص التي تمكن أهلها من الحصول على الأمان لأنفسهم، وتوافد على دمشق في هذه الأثناء أيضاً من سكان بعلبك والزبداني ووادي بردى الذين أخافهم تقدم الجيش التيموري.

وأعلن القادمون أن طلائع الأعداء قد بلغت سهل البقاع، ومما زاد في سوء الحال أن الوافدين على دمشق اصطحبوا معهم دوابهم، كما اشتد البرد وسقطت الثلوج الغزيرة على المدينة والمناطق المحيطة بها استبشاراً بقدومه.

❁❁❁

السلطان فرج في الطريق إلى دمشق

رغم خبر وصول السلطان فرج إلى دمشق ظلّ الأمراء منقسمين، وأخذوا يكيلون الاتهامات لبعضهم البعض، وقد ارتأى أن يعين تغري بردي نائباً لدمشق، ولكن الأمراء الذين شاركوا في قتل تُنم وإيتمش وأصحابهما وسيطروا على مقدرات الأمور قالوا للسلطان وقادته:

كيف تقتلون رفاقه ثم تسلِّمونه الشام، فيتوجه إليها ويتحالف مع تيمورلنك يعود ليقاتلنا جميعاً حتى يأخذ بثأره منا؟ فتراجع السلطان وفض المجلس.

ورغم ضعف السلطان وأفون رأيه وحاشيته فإن الثقة والطمأنينة لأهل دمشق عادت إليهم بوصوله، وأخذوا يبتهلون إلى الله بنصرته. وقد نزل بناحية قبة يلبغا[١].

بينما كان السلطان تيمور بيك يواصل إرسال الرسل والنداءات السلمية، وكما ذكر ابن قاضي شهبة أن السلطان تيمور بيك طالب بإرسال أطلمش، وأن تكون الخطبة والسكة باسمه، وحدد مدة أربعين يوماً ليصل رد القضاة والأئمة إليه، وبعث رسالة أخرى حملها أحد الأمراء المماليك الذين كانوا في أسره، وكان يستعجل فيها جواب رسالته الأولى، ويُذكِّر بقرب انقضاء مدة الإنذار، مما زاد مخاوف الناس وهمَّ بعض رجال الإدارة المملوكية وعلى رأسهم نائب الغيبة والحاجب بالفرار، فلحق بهم العوام وأدركوهم عند قرية القبيبات[٢] في جنوب دمشق وردوهما بالسيوف والمقالع.

(١) **قبة يلبغا**: من أشهر القبب في دمشق في العصر المملوكي، وكانت محطة للاستراحة للقادمين إلى دمشق أو المسافرين منها إلى القاهرة أو الأراضي المقدسة وهي تقع في منطقة ((القدم)) عند بوابة الله التي تسمى أيضاً باب مصر.

(٢) **قرية القبيبات**: الميدان الفوقاني كان سابقاً قرية القبيبات ولاتزال حارة اسمها القبيبات، وسميت كذلك لأن سقوف هذه القرية كانت قباب مثل قرى شمالي سورية، وفيها جامع الكريمي، وكان يسمى جامع القبيبات واسمه اليوم جامع الدقاق.

وقد هرب الجند المكلفون بحراسة باب الجابية[1] ولم يتمكن الناس من إدراكهم. وهكذا نجحت فكرة الدفاع عن المدينة والثبات فيها أخيراً بضغط من الأهالي الأصليين.

وكان القضاة في دمشق قد أخذوا يبذلون المساعي لتعبئة الشعور العام وإعداد الناس للمقاومة، وعند باب النصر[2] أحد أبواب دمشق تليت فتوى قاضي القضاة بوجوب قتال تيمور بيك وجيشه والحضّ على ذلك. وقد تجولوا في أنحاء المدينة وهم يرددون ذلك.

ومضى نائب القلعة في الوقت نفسه في اتخاذ المزيد من إجراءات الدفاع، فطلب من أصحاب المنازل القائمة حول أسوار القلعة إخلاء دورهم، لأنه سوف يعمل على إحراق تلك الدور حتى لا يتخذها المغيرون مخابئ للاحتماء بها والإغارة منها على الأسوار.

واستطاع السلطان تيمور بيك في تلك الأثناء أن يروِّج بين الصفوف المملوكية أخباراً لتثبيط العزائم وحلِّها وتفريق الكلمة، وانطلت على الجميع ولم يحاول أحدٌ التأكد من صحتها.

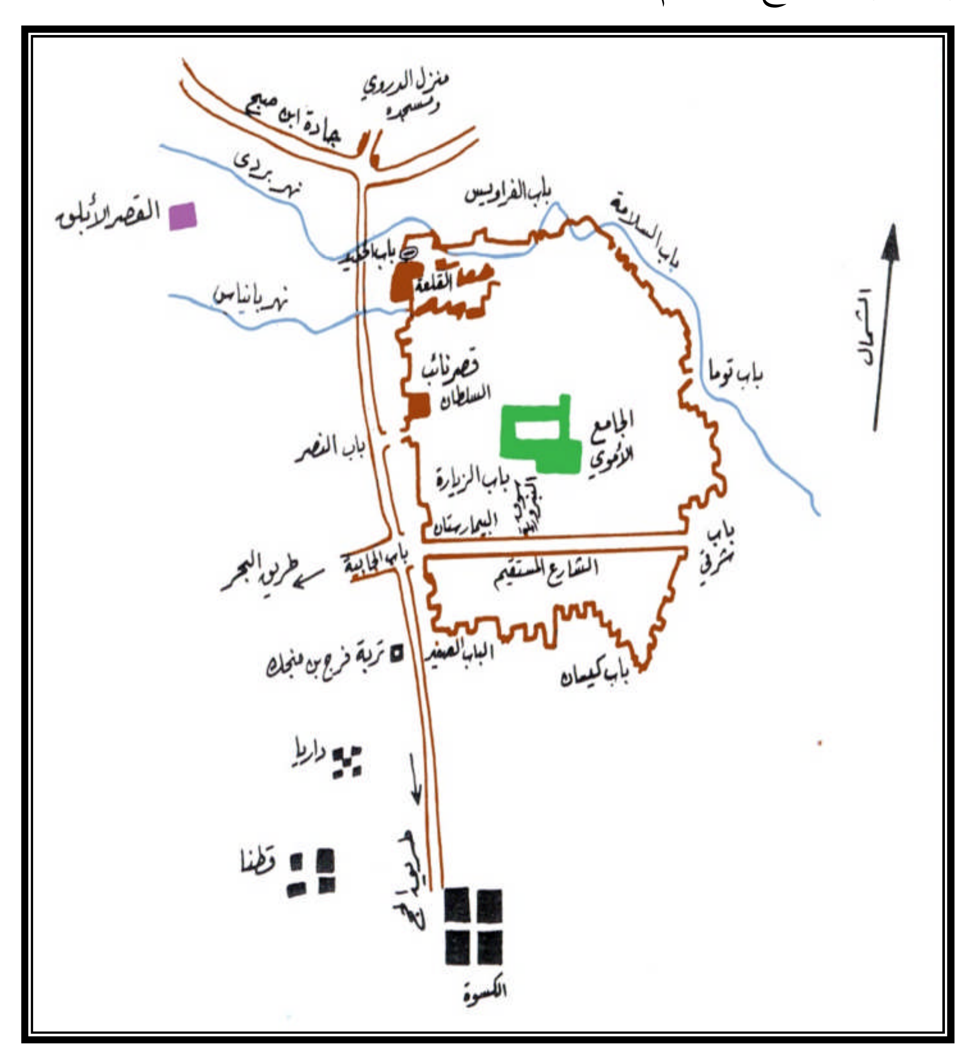
ذلك لأن جميع العساكر تقريباً كانوا يتهربون من لقاء السلطان تيمور بيك، لذا رحبوا بهذه الأخبار أيَّما ترحيب، وانحلت عزائمهم عن القتال، وتحقق للسلطان

(١) **باب الجابية**: اختفى حالياً ويقع غرب سور المدينة عند نهاية السوق الطويل (الشارع المستقيم) مواجهاً الباب الشرقي في الطرف الثاني من الشارع وكان يتألف من ثلاث فتحات أكبرها الوسطى وسمي بهذا الاسم لأنه يؤدي الى قرية الجابية التي تقع في الجولان، وأعاد إنشاء الباب نور الدين عام ١١٦٤م ثم جدده ناصر الدين داوود بن عيسى .

(٢) **باب النصر**: لم يعد باب النصر موجوداً كسابقه، وكان يقع على الجهة الغربية للسور جنوب القلعة مباشرة من سوق الأورام (بداية سوق الحميدية حالياً من جهة شارع النصر) أنشأه نور الدين ثم هُدم أيام الوالي العثماني محمد رشدي باشا الشرواني سنة ١٨٦٣م.

تيمور بيك أول النصر السلمي دون إراقة دماء المسلمين بأيسر الطرق بحرب الإشاعة والحالة النفسية.

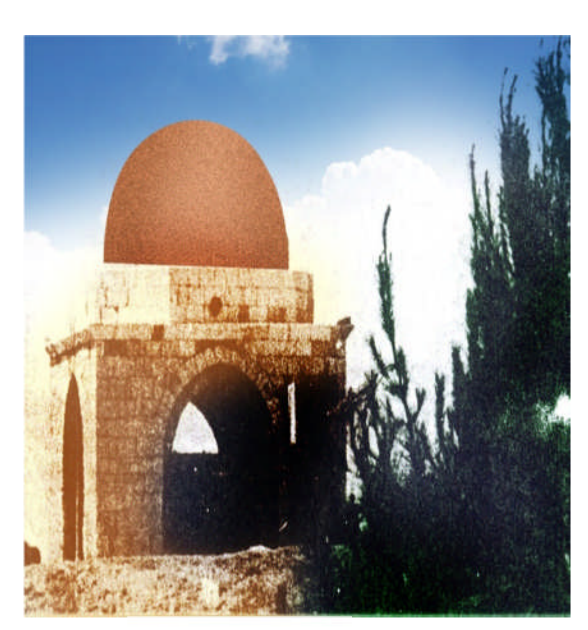
فلو كان كما يزعم المرجفون، لدمّر دمشق من أول يوم، ولما منحهم مهلة أربعين يوماً لقبول الصلح والسلام.



دمشق في نهاية القرن الميلادي الرابع عشر

وجهاً لوجه

عسكر السلطان فرج بجيشه في سهل قبة يلبغا على بعد قليل من الأسوار القبلية لدمشق. أما السلطان تيمور بيك فإنه زحف بسرعة من بعلبك إلى قطنا[1] من جهة جبل الثلج[2] ومن ثم عسكر على المرتفعات المشرفة على قبة يلبغا في نقطة يشرف منها على تحركات الجيش المملوكي في منطقة الربوة.



قبة السيار[3]

وكلا الطرفين أخذ يستعد ويحفر الخنادق، وبعث السلطان تيمور بيك إلى السلطان فرج في طلب الصلح وإرسال قريبه أطلمش، وأنه هو أيضاً يبعث من عنده من الأمراء المقبوض عليهم في وقعة حلب، فأشار تغري بردي ودمرداش وقطلوبغا الكركي في

(١) **قطنا**: تقع قطنا في الحضن الشرقي من جبل الشيخ (الحرمون) ، و هي مركز منطقة تابعة لمحافظة ريف دمشق ، و تبعد عن مركز مدينة دمشق ٢٥ كم ، و تقع على محدَب بين وادي المعرة شمالاً المفتوح وعرطوز شرقاً، ووادي المخاضة جنوباً الذي يبدأ برأس النبع.

(٢) **جبل الثلج**: أسماه العرب جبل الشيخ لوجود الثلج على قممه غالبية أيام السنة حيث يشبه بياض العمامة على رأس الشيخ أو الجبل الشيخ لمهابته وعظمته وكبره عما حوله، يقع جبل الشيخ أو جبل حرمون عند مثلث الحدود اللبنانية ـ السورية ـ الفلسطينية.

(٣) **قبة السيار**: مشرفة على طريق الشام بين الربوة المذكورة بالقرآن والشادروان من أعالي جبل قاسيون.. مدينة دمشق

قبول ذلك لما يعرفونه من اختلاف الكلمة بين صفوفهم، فلم يُجِب أحد لرأيهم، وأبى البقية إلا القتال.

وتوالت الرسائل من السلطان تيمور بيك يكرر طلبه فيها بإطلاق سراح أطلمش على أن يطلق من عنده من أسرى المماليك ولا يُجاب.

وبقي السلطان تيمور بيك في مكانه بضعة أيام، وكان يرسل في كل يوم طائفةً من عسكره تقترب من جيش مصر ثم تعود دون قتال، وظل على ذلك الحال قرابة شهر.

ويتحدث ابن قاضي شهبة عن تعدٍّ من قبل قوات مملوكية تعاونها قوات من عرب بني الغزاوي على قوات تيمورية تقدمت نحو موضع يقال له (جب) وباؤوا بالفشل الذريع، إذ سرعان ما جاء التيموريين مددٌ جديد يؤيدهم مُرسَلٌ من قِبل السلطان تيمور بيك. ثم أرسل السلطان تيمور بيك رسولاً آخر إلى السلطان فرج يطلب الصلح وكرر القول ثانياً، وظهر للأمراء ولجميع العساكر صدق مقالته، وأن ذلك على حقيقته، وقد جاء في كتابه:

«لقد علمت آثار حزمنا وعزمنا في الأمور، وعلو همتنا في تحصيل المطالب، وإتمام المقاصد والمآرب، وإن العقلاء ليعلمون أن تشبث الرجال بالأمور هو نوع من الغيرة والحميّة، سواء كان الرجال ملوكاً أو من أفراد الشعب، وإن الهدف الأصلي للملوك من قيادة الجيوش وفتح الممالك مع كل هذا الرعب والخطر، هو رعاية شريعة الله في الحال، وبقاء الذكر الجميل في المآل، وليس هو جمع المال وتكثير المنال.

إن أهم الأعمال في الدنيا رعاية الناموس الإلهي وإبقاء الذكر الطيب كمنهاج للسالكين، وإلا فإن المرء يكفيه نصف رغيف من الخبز. وقد

طلبت أطلمش مرات، ولكنكم لم ترسلوه وتعللتم بعلل واهية لتأخير إرساله، حتى ثارت فينا النخوة لنسير إلى بلادكم، وننزل أنواع الخراب والدمار بالناس والأحوال في دياركم، (إذا نطق الصخر، فسيجيب بأن شجرة الخطأ لا تعطي ثمراً).

وبرغم هذا كله، فإنك إذا أرسلت أطلمش، وزينت السكة والخطبة باسمنا، وطويت بساط النزاع بيننا، ورحمت نفسك وأهل ديارك، لانتهى كل شيء، وإلا فإن جيشنا الجرار سوف يعصف بالمخالفين. هناك طريقان:

طريق المداراة وطريق اللجاج، والأول يؤدي إلى الأمن والثاني يؤدي إلى الحرب ، وقد أظهرت لك العقل فانتصح، واختر طريقاً من الطريقين[1]».

استقبل السلطان فرج رسول السلطان تيمور بيك في هذه المرة على غير العادة بالحفاوة والإكرام اللائقين، وبعد عرض عسكري كبير أمام المبعوث أعيد الرسول محمَّلاً بالهدايا، ومعه رسول السلطان فرج حاملاً ردَّه على الكتاب المُرسل، وقد وعد فيه السلطان فرج السلطان تيمور بيك بإطلاق أطلمش في ظرف خمسة أيام، وأنه على استعداد لإعادة علاقات الود معه بعد هذا.

وقد جاء في جواب السلطان فرج :

(نحن عبيد في مقام الطاعة والانقياد، وسنرسل أطلمش خلال خمسة أيام، فإذا تجاوز السلطان عن جرائمنا فإننا لن نهمل أو نقصر في أداء وظائفنا، وإطاعة الأوامر وإظهار الخضوع، وسنفعل كل ما في مكنتنا ومقدورنا لإرضاء خاطركم الشريف ومشاعركم السلطانية)[2].

وللأسف أن بعض الأمراء المماليك أبوا إلا القتال.. وغلبوا عليه.

---

(١) شرف الدين علي يزدي ظفرنامه ج٢ ص ٣١٥.

(٢) شرف الدين علي يزدي ظفرنامه ج٢ ص٣١٧

إذ بعد عشرة أيام رحل السلطان تيمور بيك إلى شقحب قُرب الكسوة في محاولة لجمع الأعلاف للخيل والفيلة. فظن أهل دمشق أنه على وشك الفرار، فاجتمعت العامة حول المماليك وانقضُّوا على فرقة تيمورية كانت متمركزة في الغوطة، وباؤوا بالفشل وانهزموا أيَّما هزيمة. فزحف السلطان تيمور بيك على غوطة دمشق فسُلِّمت له دون قتال وأَمِنَت الحرب.

وقد استشهد "ميرزا بن تيمور بيك وصهره زين الدين" في الغارة التي قام بها المماليك الحمقى.

والغريب أنه عُقد مجلس الأمراء للمشاورة في أمر التقدم للهجوم على السلطان تيمور بيك، وأبدى معظم الأمراء فشل التقدم بسبب خسائر الجيش المملوكي، وما لحق الناس من الضرر، وأن ما بقي من قوات من أجل الدفاع فقط.

وعاود الأمير تغري بردي نصحه بقبول الصلح للأمراء، فكتب السلطان فرج إلى السلطان تيمور بيك مرة أخرى على الصلح مع الاعتذار عن الهجوم الذي قام به بعض الأمراء في الليلة الماضية، وجاء في كتابه:

(إن ما حدث أمس كان من قِبَل بعض الغوغاء دون رغبة منَّا، إذ أن جمعاً من الجهَّال والأوباش قد تجرؤوا عن جهل للهجوم، فلقوا جزاءهم، ونحن باقون على العهد الذي عرضناه، فإذا أوقف الجيش القتال اليوم، فإننا سوف ننفذ غداً كل ما تأمرون به، ونقوم بتقديم العذر عن التقصيرات السابقة بحسب المقدور)[1].

ولكن السلطان تيمور بيك ليس خبّاً حتى يختدع بألفاظ منمقة، وقد تأخر إطلاق أطلمش عن الموعد المحدَّد أياماً عدة دون مبرر.

---

(1) شرف الدين علي يزدي ظفرنامه ج٢ص٣٢٧ .

ولا سيما أن عيونه أوقفوه على حقيقة الحال في داخل دمشق، وإن تلك المراسلات جوفاء كلام بدون تنفيذ، فقط لصرفه، مما جعله يرفض موافقة السلطان فرج وتقدم لإحكام الحصار على المدينة.

❁❁❁

‹الحرب خدعة›[1]

هروب السلطان فرج والمماليك

ما أن رأى السلطان فرج وأمراؤه أن الأمر واقع لا محالة حتى ولُّوا هاربين شطر الديار المصرية على حين غفلة، ووصلوا إلى القاهرة، وصعد السلطان إلى القلعة، وكان بصحبته الخليفة المتوكل وجماعة من النواب، وهم نائب الشام ونائب صفد ونائب غزة، وغالب أمراء دمشق وحضر من العسكر مع السلطان نحو ألف مملوك مع كل أمير اثنين من مماليكه، وليس معهم تروس ولا خيل ولا قماش، شبه عراة.

وما سبب هروب السلطان فرج وحاشيته على هذا الوجه إلا أن السلطان تيمور بيك أرسل يطلب الصلح قبل إحكام الحصار، فأرسل إلى السلطان فرج أميراً من أمرائه ليمشي بينه وبين السلطان بالصلح بعد أن مُني المماليك بانكسارات متوالية ومحاولات فاشلة.

وصارت الرسل تتردَّد بين السلطانين مراراً عديدة، وفي آخر زيارة للرسل الذين أقاموا إلى ثلث الليلة اتفق معهم على أنه في باكر النهار ينعقد الصلح بينهما.

وقد علم السلطان تيمور بيك أن ذلك الأمر خدعة ليس إلا، وأوقفته عيونه على اختفاء عدد من أمراء مصر والمماليك السلطانية، منهم الأمير سودن الطيار، وقاني بيك العلائي رأس نوبة وجُمَق، ومن الخاصكية يشبك النعماني وقمش الحافظي وبَرَسْبُغا الدوادار وطرباي في جماعة أُخرى، وقد وقع الاختلاف عند ذلك بين الأمراء وعادوا إلى ما كانوا عليه من التشاحن في الوظائف والإقطاعات والتحكم في

[1] **حديث شريف**: سنن أبي داود رقم /٢٦٣٤/.

الدولة، وتركوا أمر تيمور بيك وكأنه لم يكن موجوداً، وأخذوا في الكلام فيما بينهم بسبب من اختفى من الأمراء وغيرهم.

وهنا أشاع السلطان تيمور بيك عن طريق عيونه أن الأمراء الذين اختفوا توجهوا جميعاً إلى مصر ليسلطنوا الشيخ لاجين الجركسي أحد الأجناد البرانية. وسرت الإشاعة بين من تبقّى من الأمراء سريان النار في الهشيم، وقد عظم وقع ذلك الأمر على مدبري المملكة، فأجمعوا على أخذ السلطان فرج والعودة به إلى الديار المصرية في الليل، ولم يُعلموا بذلك إلا جماعة يسيرة رغم أن أمر لاجين الجركسي لا يستحق ذلك، إذ كان تمراز نائب الغيبة في مصر يكفي السلطان أمرهم، ولكنها الحرب النفسية التي أثارها السلطان تيمور بيك لحفظ الأرواح أتت عليهم كالصواعق واحدة إثر أخرى. إذ أنَّ اختيار المسمى (لاجين الجركسي) للإشاعة أنسب الحلول، ويدلُّنا على وقوف السلطان تيمور بيك على الأحوال الداخلية للبلاد بشكل كبير ودقيق.

حيث كان لاجين بمثابة شيخ الجراكسة في مصر، وكان المنجمون يغررونه أكثر من مرة بأنه سيملك مصر، حتى صدَّق ذلك وحدَّث نفسه بالسلطنة، وصار يعدُ الناس بأنه إذا أصبح سلطاناً فإنه سيبطل الأوقاف ويحرق كتب الفقه، ويولي القضاء قاضياً حنفياً من الجراكسة، وليس من المصريين...

فكانت كلمته مسموعة عند قومه، ويستشهدون بها وكأنها شيء مقدَّس وهكذا.

وعلى جناح السرعة خرج السلطان فرج مع أمرائه عند الفجر واتجهوا إلى دمر ومنها إلى البقاع ثم عرجوا إلى صفد وانطلقوا إلى الساحل ويمموا وجوههم نحو غزة.. وتركوا العساكر والرعية من المسلمين غنماً بلا راع، وجدُّوا السير ليلاً ونهاراً ثم

لحق بهم من بقي من الأمراء وأرباب الدولة وأمرائها.. وعندما بلغوا غزة وجدوا فيها الأمراء الهاربين فلم يعاتبوهم حيث أدركوا أنها إشاعة ليست إلا..

وقد اعتذر الأمراء الذين ساروا إلى مصر بعذر واهٍ فقبله السلطان ومن معه، حيث كانوا كلهم سواءً بالفرار والجبن والرعب والخوف، وقد وصلوا إلى القاهرة في أسوأ حال من التعب والعري والجوع.

إذ يقول ابن تغري بردي:

(أخبرني غير واحد من أعيان مماليك الظاهر برقوق أنهم لما أُبلغوا خروج السلطان ركبوا في الحال غير أنه لم يمنعهم من السفر إلا كثرة السلاح الملقى على الأرض في الطريق والذي رماه المماليك الهاربون ليخففوا عن خيولهم وكان الذي يتأخر يقع في أيدي الجيش التيموري إذا نجا من الأعراب وسكان الجبال ..

وقد ترك الأمراء أموالهم وخيولهم وأطلابهم وسائر ما معهم بدمشق) وأخذ كل واحد منهم يسرع لينجو بنفسه .

وكذلك قال الصيرفي:

(إنه لم يتخلَّف في دمشق غير أربعة من صغار الأمراء وإن الذين كانوا يرافقون السلطان كانوا زهاء الخمسمائة أمير، وقد ألقى الجميع بسلاحهم وعتادهم وتركوا جمالهم وأثقالهم..

ودخل السلطان القاهرة ومعه الخليفة والأمراء ونحو ألف من المماليك السلطانية، ونائب دمشق تغري بردي وحاجب الحجاب بها وغالب أمرائها ونواب الشام وهم في شر حال، وقد شوهد كثير منهم وقد دخلوا عراة، فكادت عقول الناس تطير، وشرعوا يبيعون متاعهم استعداداً للهروب إلى الصحاري)..

أما السلطان تيمور بيك فقد لاحظ ما آل إليه أمر المماليك (وسُمعت الجلبة والضوضاء والمشاحنات بين صفوف المماليك حين الفرار) إلى معسكر الجيش التيموري.

فأمر بإضرام النار في أماكن متعددة متباعدة ليوهم من تبقى من الجيش المملوكي أو من تسول نفسه حمل السلاح ضده أن عساكره ملؤوا جميع نواحي المدينة بقدر أماكن النار..

فخرج بقية أمراء مصر وأعيانها من القضاة وغيرهم في الحال لَّما علموا بخروج السلطان من دمشق هارباً، فركبوا في أثره وأخذوا الطريق المتجه إلى القاهرة، فلم يقعوا للسلطان على أثر، فتخطفتهم العشائر وسلبوهم وأتوا على ما معهم، فمات كثيرٌ منهم خوفاً وبرداً وجوعاً، ووصل البقية شبه عراة.

والحقيقة أن "أعمالهم (الخبيثة) عمّالهم كيلت عليهم ثم ردّت إليهم "، والحقيقة أن هذه كانت بغية تيمور بيك في عدم سفك دماء المسلمين.

أما عامة الناس في دمشق فقد ترامت إلى أسماعهم أخبار الانسحاب فكانوا بين مصدِّق ومكذِّب، وكانوا يلازمون الأسوار ليلاً ونهاراً، وقد استعدُّوا للقتال، ثم صعدوا إلى الأماكن العالية فوجدوا مخيم السلطان فرج وقد أتت عليه النار تذروه الرياح، وتبين لهم أنه لم يبق في قبة يلبغا أحد، فخشعت أصواتهم، وسكنت حركاتهم، وأخذتهم العبرات، ووقع عليهم خبر هروب السلطان ليقصم ظهرهم، ويُسقط ما في أيديهم، ويبيتوا حيارى لا يدرون ما يفعلون..

ولكنهم رغم كل المثبطات عن سفك الدماء وعلى ضعفهم البالغ أصرّوا وأغلقوا أبواب القلعة وركبوا أسوار البلد ونادوا بالجهاد، فتهيأ أهل دمشق للقتال.



ازدحام الناس عند أبواب دمشق

وكان ممن بقي بالمدينة من لا يعلم بهروب السلطان، وراح السلطان تيمور بيك يزرع الرهبة فيمن بقي، فقام بتشكيل الجيش للقتال، وأوهمهم ببدء الهجوم، وكان الهجوم على شكل صف واحد امتد طوله إلى ثلاثة أو أربعة فراسخ[1]، وكانت بعض أعداد من الفيلة تتقدم صفوف الجند التي كانت تزحف من سفوح قاسيون

(١) **الفرسخ**: يساوي ثلاثة أميال، والميل مسيرة نصف ساعة، فالفرسخ يساوي مسيرة ساعة ونصف، ويعادل تقريباً خمسة كيلو مترات.

باتجاه أسوار المدينة الشمالية، وأراد أن يكون الهجوم الوهمي سريعاً ومفاجئاً، حتى أنه لم ينتبه المدافعون على الفور، ولم يشعروا إلا والجيش التيموري قد اقترب من الأسوار ولا يفصله عنها إلا نهر بردى...

وفي تلك الأثناء بعث برجلين من خاصته وصاحا من بُعد(الأمير يريد الصلح فابعثوا رجلاً عاقلاً حتى يحدثه الأمير في ذلك)[١].

وعقد كبراء المدينة اجتماعاً تم فيه الاتفاق على خروج السادات والأئمة والعلماء والصلحاء للصلح، ووقع اختيارهم في إرسال قاضي القضاة تقي الدين إبراهيم بن مفلح الحنبلي، فأُرخيَ من سور دمشق إلى الأرض لأنَّ نائب القلعة ظل على رأيه بالقتال، فرفض فتح البوابة، وتوجه ابن مفلح إلى السلطان تيمور بيك واجتمع به، وعاد إلى دمشق مستبشراً يقول: إن تيمور بيك تلطف معه في القول وترفَّق له في الكلام وقال له:

«هذه بلدة الأنبياء والصحابة وقد أعتقتها لرسول الله ﷺ صدقة عني وعن أولادي، ولولا حنقي على نائب دمشق عند إهانته لرسولي ما أتيتها، وقد صار سودون المذكور في قبضتي وفي أسري، وقد كان الغرض في مجيئي إلى هنا، ولم يبقَ لي الآن غرض إلا العودة، ولكن لا بدَّ من أخذ الطقزات[٢]».

وذكر عن السلطان تيمور بيك أنه لما زار قبر أم حبيبة عليها السلام إحدى أمهاتنا زوجات الرسول ﷺ بعد دخوله دمشق قال:

---

(١) ويتفق المقريزي والعسقلاني وابن تغري بردي بأن طلب الصلح جاء من السلطان تيمور بيك، فكم كان رؤوفاً بهم؟!.

(٢) **الطقزات**: الهدايا الرمزية، يريد بذلك أن يجالس العلماء ويتبادل معهم الهدايا كما فعل مع ابن خلدون وغيره من العلماء وأيضاً يناقشهم لعل أحد منهم يرقى في المقامات ويعرفه.



صورة قديمة لمقبرة الباب الصغير في دمشق وفيها مقامات الصحابة وزوجات الرسول ﷺ

«يا أهل الشام مثل هذا القبر يكون بلا قبة؟!». وأنه أمر جنده ببناء الغرفة و القبة عليه. وذكر عنه أنه كان في مجلسه كثيراً ما يذكر الله تعالى ويستغفره، وأن السبحة لا تزال في يده.

وشرح ابن مفلح محاسن كثيرة عن السلطان تيمور بيك لأهل الشام، ورغّبهم في طاعته، عكس ما نقله الفارون من حلب وحماة.

فصار أهل البلد فرقتين بين مؤيد ومعارض لابن مفلح، ومن ثم غلب رأي ابن مفلح بالصلح. ونادى في الناس: إنه من خالف ذلك قتل وهدر دمه، فكفَّ الناس عن الخلاف، ولكن نائب القلعة ظل معارضاً لفكرة التفاوض حتى أنه منع وفد المفاوضة من الخروج من باب النصر المجاور للقلعة، وهو أقرب الأبواب إلى القصر الأبلق حيث كان ينزل السلطان تيمور بيك، وهدد **بإحراق المدينة** عليهم إن فعلوا ذلك، فلم يلتفتوا إلى قوله وقالوا له: أنت تحكم على قلعتك ونحن نحكم على بلدنا، وتركوا باب النصر وتحول الوفد المفاوض من أهل دمشق إلى الباب الصغير[1]، وأُرخوا من هناك بالحبال، واستقبلهم عند السور أحد القادة التيمورية

[1] **الباب الصغير**: سمي الباب الصغير لأنه أصغر أبواب دمشق، وأنشىء صغيراً لخطورة الجهة الجنوبية على دمشق فهي مفتوحة ولا توجد أمامها حواجز من الأنهار والأشجار كالجهة الشمالية وهويطلق عليه باب الشاغور وقد جدده نور الدين وعليه كتابة بالخط الكوفي تشير إلى أن نور الدين رفع حق التسفير عن التجار الذاهبين الى العراق والقافلين منها، جدد الباب ثانية زمن المماليك بيد السلطان عيسى بن الملك العادل.

ويدعى شاه ملك، واستقبلهم بحفاوة بالغة وقد أسفرت المفاوضات مع السلطان تيمور بيك أن أقرَّ جماعة من الوفد في عدة وظائف: ما بين قاضي القضاة والوزير ونحو ذلك، وجاء في نص الأمان:

«ليعلم سكان دمشق أن اللّه تعالى ملّكنا بلاد الشام بفضله العميم، علماً منه بما في قلوبنا من الرحمة للرعية، فليعلم الأشراف والشيوخ والتجار والعوام أنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم وحريمهم» .

ودخل السلطان تيمور بيك مدينة دمشق وصلى في الجامع الأموي الكبير، وولى إثر ذلك شاه ملك حاكماً على دمشق، وتسلم كلٌّ من أعضاء الوفد وظيفته التي أوكلت إليه.

وأقام شاه ملك على باب دمشق ليحفظ المدينة من أي أذى يقوم به عسكرهم.

كما أقيمت إلى جوار الباب الصغير (أحد أبواب دمشق) نقطة حراسة للمحافظة على الباب، وبدأت أعمال الدوريات الجديدة للإشراف على الأمن وحماية العامة حيث أصبحوا كالغنم بلا راع، لذا وجب على السلطان تيمور بيك أن يحل محل الفارين من القادة الذين هربوا إلى مصر مع السلطان فرج، وحاولت الإدارة الجديدة أن تتألف قلوب الأهالي بمعاملاتهم الحسنة، وقد تلي نصُّ الأمان في الجامع الأموي.

ولما اعتدى بعض الجند من أتباع السلطان تيمور بيك على الناس أمر القائد التيموري عطاء الله الذي أسندت إليه مهمة الإشراف على الجنود بضربهم بشدّة في سوق البزورية.

غضب السلطان تيمور بيك على الشيخ ابن مفلح بسبب استعماله (الفلقة) لإرغام الناس على الدفع لخزينة المدينة (حيث لكل بلد خزينة ينتظم سيرها من خلال جباية الأموال من الناس، وقد كان النائب سودون قد استنفد معظم أموال

الدمشقيين وغيرهم من البلاد وكذا الحال بمصر تجهيزاً لحرب السلطان تيمور بيك مما جعل الناس يرفضون الدفع فيما بعد بعدما رأوا وتأكدوا من معاملة تيمور بيك الإنسانية، ويتضح ذلك من الأمان الذي تلي بالجامع الأموي، وكذلك منعه للاعتداء حتى ولو كان من رجاله الذين يحاربون معه. ويؤكد ألد أعداءه ابن عربشاه أن السلطان تيمور بيك لا يهادن أبداً بحدٍّ من حدود الله ، ولو كان من أقرب المقربين إليه، بالرغم من استحقاق المدينة لمصادرة أموالها وإجلاء أهلها، يقول:

« لو تعدى أحد على أحد وكان عند تيمور بمنزلة الوالد أو الولد ،أو استطال بمقدار حبَّة أو تلفظ بغارة أو نهبة، فإنه يهدر ماله ودمه ولا ينجيه استغفاره وندمه ولا يجديه أهله وخدمه ولا يقال انتعش لمن زلت به قدمه، وكانت قاعدة لا تُخرم،وبنية لا تهدم». وكذلك يقول:

«أُعطيَ لنائب غزة وصفد صلاحياتٌ إن استطال أحدٌ من أجناد تيمور أو أي أحد ولو أنه من إخوة (نائب غزة) وأولاده فليقابله بالمنع والإنكار والضرب والإشهار »وقد حدث أن بعض الجند التيموري عمدوا إلى أموال الناس فاغتصبوها فأمر السلطان تيمور بيك بضربهم وتشهيرهم في سوق الخريزاتية.

وجاء في الأعيان:

(والقول بأن ذلك مخادعة لا يقبله عقل، فلم يكن تيمور يخاف من أعظم منهم حتى يخادعهم).

حتى أن المماليك الذين أرسلهم تيمور بيك هدية إلى سلطان مصر وكانوا من أهل بغداد، وقد تحقق السلطان الظاهر برقوق صدق مقالهم وعلم أنهم أحرار... إذاً كل ما قيل أن جنده كانوا يقتلون ويعذبون ويصلبون ويحرقون لجبي الأموال محض كذب

وافتراء وتجنِّي وما اختلقت تلك القصص الوهمية عن تلك الابتزازات والسلب والنهب والمخادعة إلا لزرع بذور الجفاء بين الشرق الإسلامي وغربه. وقد تبين لأهل دمشق صدق تيمور بيك وعدالته، مما طمأن الناس وهدأ روعهم.

واستطاعت الإدارة الجديدة أن تجد لها من خلال اختلاف سكان دمشق مجالاً لزيادة تدخُّلها في شؤون المدينة، وقد أخذ بعضهم يشكوا البعض الآخر إلى الحكام الجدد.

أما السلطان تيمور بيك فإنه لم يشأ أن يضيع وقته في دمشق، فقام بزيارة أضرحة الأولياء في مقبرة الباب الصغير، وتوجَّه إلى مقام أمهات المؤمنين أم سلمة وأم حبيبة وأمّنا حفظة[1] عليهن السلام زوجات رسول الله سيدنا محمد ﷺ، وأمر ببناء القبب على أضرحتهن ثم زار ضريح سيدنا بلال الحبشي وعاد إلى مقرِّه بالقصر الأبلق (التكية السليمانية اليوم).

ومن ثم أمر السلطان تيمور بيك ابن مفلح أن يكتب له أسماء حارات دمشق جميعها والمخطط فكتب له ذلك، وقد تبين لنا فيما بعد لِمَ أمر بذلك، حيث بنى مدينة تشبه دمشق بحاراتها، وأطلق عليها نفس الاسم ، وهي تبعد عن سمرقند الآن نصف يوم.

حقاً لقد أقام الإمام تيمور بيك مدينةً سمَّاها دمشق قرب عاصمته سمرقند لحبِّه لدمشق الخالدة مدينة الأنبياء كما سمّاها هو بذاته أثناء حواره مع ابن مفلح، فهي مهد الرسالات السماوية وفسطاط المسلمين وظهور السيد المسيح عليه السلام.

ولمكانتها الإسلامية المقدسة ولأنها بنَتْ مجد الإسلام وكانت منبعاً للفتوحات الإسلامية للعالم في العهد الأول لذا أحبها تيمور بيك حباً جمّاً.

---

(١) دلَّت الآثار المخطوطة على أرومة وشاهدة الضريح أن اسم سيدتنا (**حفظة**) عليها السلام وليس "**حفصة**" كما هو متناقل بين المسلمين.

ولم يدخلها عنوة أبداً بل دخلها صلحاً وحلماً ورحمةً وهي واهية من قبل جنودها وسلطان المماليك الذي فرّ بجيشه فلو كان كما قيل لما صالح أهلها وجالس علمائها وصلّى بمسجدها وزار وبنى قباب أضرحتها ، وبنى في بلاده مدينة مثلها.

دخلها صلحاً وهو القوي ولم يهرق فيها دم مسلم ، بل كان يقوم بالقصاص العادل من جنوده ممن يتعدى على حرمة أحد من أهلها. فهو لم ينتقم أبداً من أهل الغوطة الذين قتلوا ابنه وصهره ، ولم ينتهك بجيوشه الضاربة التي قهرت العالم حرمة دمشق لقدسيتها ومكانتها الإسلامية ، ووصايا رسول الله ﷺ للصحابة بالذهاب إلى الشام مهبط الأنبياء ومنبع الرسالات السماوية.

فإن كان قد عفا عن حمص فكيف لا يحفظ دمشق وقد أوصى الرسول ﷺ بها؟!.

سامح الله من اتهم هذا المصلح الرحيم بدمشق وأهاليها زوراً وبهتاناً.

فويل للذين كتبوا الكتب الملفقة الكاذبة بأيديهم ، وويل لهم مما كسبوا ، إذ العكس صحيح ، لقد رحم تيمور بيك دمشق وأهلها ، وحلم عليهم حلم الأنبياء ، فكان أول عمل قام به حين فتح دمشق صلحاً هو زيارة أضرحة الصحابة الكرام والصالحين وآل البيت الطيبين الطاهرين ، فأقام القبب على أضرحة أمهاتنا وآل البيت.

فهو حقاً القائد المسلم الحليم الرحيم ، مجدد الدين الإسلامي القويم على أسس راسخة ، رفعت شأن الإسلام لقرون مشرقةٍ على وجه الدهر بعد تشعّب أهلها وتفرقهم وتقاتلهم ، فكان رحمة لهم .

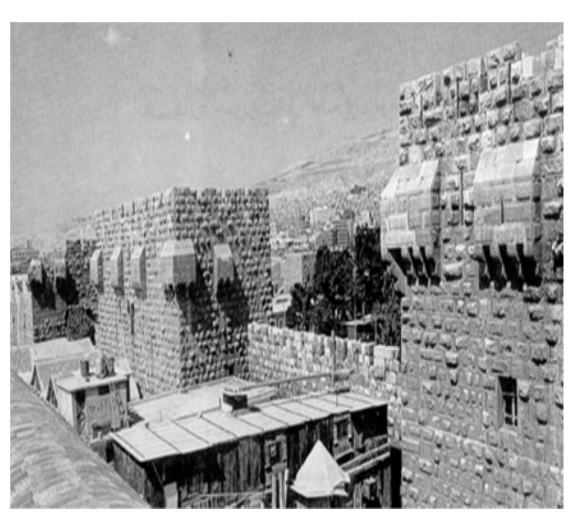
❁❁❁

أما قلعة دمشق

رفض يزدار نائب القلعة الموافقة على ما تمَّ عليه الاتفاق وما آلت إليه الأمور.

ولكن بعد أن أتيح للقيادة العسكرية التيمورية أن تُدخل أعداداً من قواتها إلى المدينة بالتدريج، وكان هدفها من ذلك عدم إثارة مخاوف الأهالي، وكثر تردّدهم بحجة شراء ما يحتاجون إليه، ثم لم يلبث عدد العساكر أن ازداد بنسبة كبيرة بعد أسبوع حتى امتلأت بهم المدينة ثم حاصروا القلعة.

ويشير ابن خلدون أن السلطان تيموربيك عقد اجتماعاً مع أركان حربه ومع عرفاء البنيان والمهندسين تدارسوا فيه طريقة قطع الماء عن القلعة المحاصرة، لاستنزالهم بشكل سلمي، وقد استدعى السلطان تيمور بيك إليه العلماء وسألهم عن حقيقة وجود ممر تحت الأرض يؤدي إلى القلعة، ولما نفى هؤلاء علمهم بوجود أيّ ممرٍّ هددهم باجتياح المدينة وتخريبها محتجاً بعدم استطاعة كبح جماح قواته، وأمهلهم مدة ثلاثة أيام، وكل ذلك كي يقدموا معلومات عن ذلك الممر السري أو تستسلم القلعة. ودفعت تهديدات السلطان تيمور بيك العلماء للسعي لثني نائب القلعة عن موقفه، فأرسلوا إليه اثنين منهم رُفِعا بالحبال من باب القلعة داخل المدينة، ولكن



صورة لقلعة دمشق /١٨٨٧م/

نائب القلعة (يزدار) رفض عرض الاستسلام واعتقل أحد المبعوثين ثم أطلق سراحه بعد أن ضربه، فأمر السلطان تيمور بيك بتكثيف القذائف على بعض الأبراج التي تهدمت نتيجة ذلك. وعند ذلك أضحى باستطاعة القوات التيمورية أن تجتاز الخندق وأن تبدأ بثقب الأسوار، وكذلك كان الهجوم من ناحية باب الجابية بعد أن أُجبر سكان المنطقة على إخلاء منازلهم حفاظاً على حياتهم.


باب الجابية في دمشق

كما أن السلطان تيمور بيك استطاع أن يصرف الماء المحيط بالقلعة ونصب حولها ستين منجنيقاً تعمد أن يستغرق نصبها بضعة أيام، كما أقام ثلاث مصاطب تشرف على أسوارها. واضطر المدافعون عن القلعة أمام شدة الهجوم وتخريب الأسوار إلى الاستسلام وطلب الأمان. وأرسل نائب القلعة المفاتيح للسلطان تيمور بيك الذي وجد في القلعة من أموال وذخائر، بالإضافة إلى كميات كبيرة من الغلال كانت قد جمعت من أموال أوقاف الحرمين المكي والمدني، فأمر ببيع هذه الغلال على الفور **وأرسل أثمانها إلى خدام الأماكن المقدسة في مكة والمدينة المنوّرة.**

لقد تبين السبب في إصراره على تسليم القلعة وهو وجود تلك الأموال الكثيرة فيها مما جعله يصادرها ويعيدها إلى أهلها قبل مغادرته دمشق.

❁❁❁

أماحريق مدينة دمشق

ينقل المؤرخ يزدي ما رآه شاهد عيان كان في دمشق في تلك المرحلة فقال:

إن بعض عمارات المدينة كانت ترتفع إلى أربعة طوابق، وكان الطابق الأرضي فيها يبنى من الحجارة، وأما الطوابق الأخرى فتبنى من الخشب، وقد تفنن سكان دمشق بتزيين منازلهم وزخرفتها: ﴿... وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴾[1] وأتت النيران على هذه المنازل مصادفة في يوم عاصف، أو الأصحّ حرقها نائب القلعة الحاقد على أهل مدينة دمشق لاستسلامهم لتيمور بيك الذي هزمه وأخرجه من القلعة قهراً، وفشلت جميع محاولات الإطفاء التي جرت بإشراف بعض القضاة والأعيان وحاكم المدينة شاه ملك ورجاله وعمَّ الحريق المدينة، واشتعلت النار ثلاثة أيام فيها، حتى بلغت الجامع الأموي فسقط سقفه الخشبي واحترقت أبوابه، ويؤكد يزدي أن السلطان تيمور بيك حاول إنقاذ المسجد من الحريق فأرسل قائده شاه ملك من أجل هذه الغاية، ولكن سقف المسجد كان قد انهار قبل وصوله.

حكم العدالة في البرية ساري

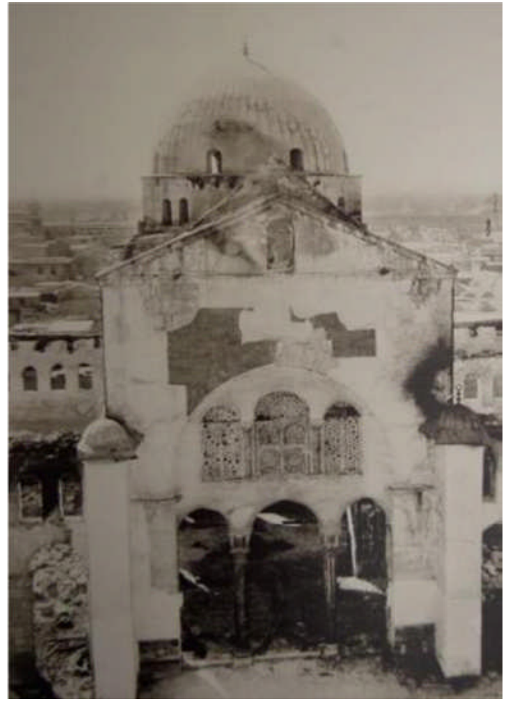
رحم السلطان تيمور بيك (تيمورلنك) أهل دمشق رحمةً عظيمة، وحلم عليهم أياماً وأسابيع طوالاً رغم عنادهم وتعنُّتهم حتى دخلها سلماً.

ولكن كانت عليهم استحقاقات توجب العقاب، رحمهم تيمور بيك لكن الله تعالى قاصصهم بحريق كبير.

---

[1] سورة البقرة: الآية(٢٠٥).

وقد جاء في بدائع الزهور أن السلطان تيمور بيك بكى بحرقة وأسى على مصاب دمشق بالحريق، وذلك أمام وفد مملوكي حضر لمقابلته عام/٨٠٥هـ/، بعدها قال: « **هذا كان مقدوراً** ». مما يفيد ألا علاقة له بالحريق أبداً. وذلك ما ذكره أيضاً كتاب قاهر العالم للسيد فرج.[1].

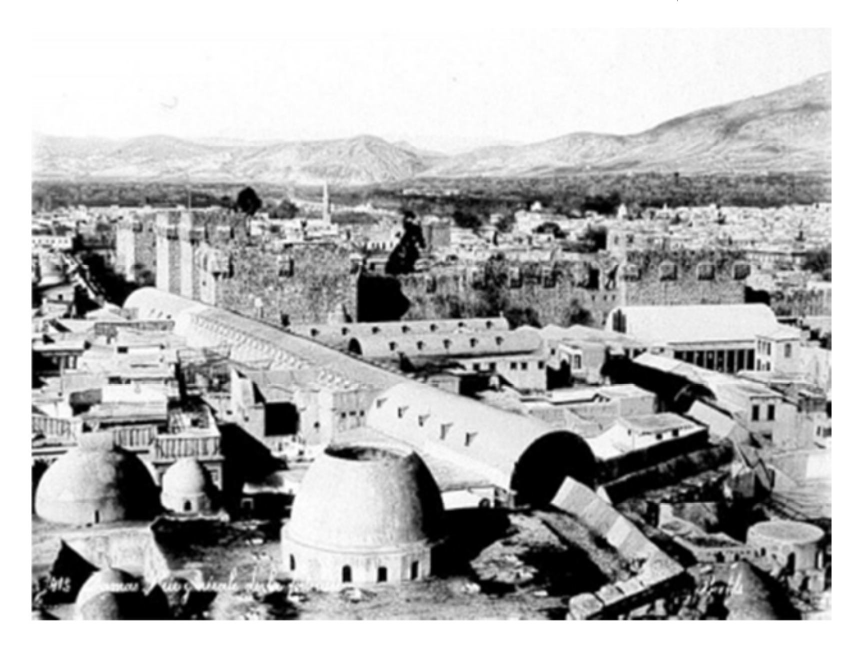


الجامع الأموي وقت الحريق/١٨٩٣/م

هذا وقد حُرق الجامع الأموي مراراً آخرها ببداية القرن العشرين قضاءً وقدراً، هذا وحرق المساجد لم تكن من سمات السلطان تيمور بيك ولا حرق مدن الإسلام خاصة وأنه صلّى بهذا المسجد مع علماء دمشق أكثر من مرة، كما أن أهل دمشق وقلعتها كانوا مستسلمين، فلا محلَّ للافتراءات والدسوس الخبيثة باتهامات مفتراة على من كان يقاتل (**بسيف بيد ومصحف باليد الأخرى**) مع صبره وعدم اقتحامه لدمشق حقناً لدماء المسلمين. وليس أبداً بمستبعد أن يكون لرجال يزدار نائب القلعة يدٌ في الحريق بعد يقينه بالفشل أمام القوات التيمورية بعد مصادرة الأموال التي جمعوها من الناس والأوقاف وإعادتها لأصحابها، وتأييد أهل دمشق لتيمور بيك رغم تهديده لهم مراراً بحرق المدينة.

---

[1] وهو كتاب معاصر جديد أتى على دراسة من الكتب القديمة عن آثار تيمورلنك.



قلعة دمشق وسوق الحميدية

وكذلك يحدِّث المؤرخون عن حرائق عدة شملت أجزاء كبيرة من مدينة دمشق في ذلك العقد من السنين على يد المماليك الجراكسة أثناء منازعاتهم على العرش. ونذكر نبذة موجزة تبين ضياع الحقيقة بين الشائعات المسيَّسة لصالح الحكام الجراكسة.



أبت النفوس الجبانة
إلاّ ارتداء لباس الكذب

دوّى صدى غزو السلطان تيمور بيك لسورية في القاهرة عند عودة السلطان وحاشيته بتلك الصورة المزرية المفاجئة، وما لبثت أنباء الشائعات عن خراب مدن الشام أن انتشرت، فانتشر معها الرعب بين الناس وزاد سوء الأحوال الاقتصادية، إذ أخذ الناس يبيعون ما عندهم ويستعدُّون للهرب من مصر خشية زحف السلطان تيمور بيك إلى القاهرة، وارتفعت أسعار المواد الغذائية غلاءً فاحشاً لشدة الحاجة إليها، على حين هبطت أسعار المنقولات بسبب كثرة المعروض منها. ومما زاد الحال سوءاً أن السلطان فرج عاد فجأة وقرر إرسال فرقة أخرى لقتال التيموريين، لينسى الناس جبنه وفراره، ويخفف من عار هزيمته والتخلي عن بلاده، وفرض على سائر أراضي مصر وأوقافها ضرائب كثيرةً، ثمّ عاد فجبى من سائر أملاك القاهرة ومصر أجرة شهر واستدعى أمناء الحكم والتجار وطلب منهم قروضاً، وأخذ يلبغا السالمي استادار يهاجم الفنادق والحواصل في الليل كما استولى على ما وجد من حواصل الأوقاف، وأدى هذا إلى ارتفاع سعر الخبز وهلاك الكثيرين من الفقراء، واستشرت الأمراض حتى صاروا لا يستطيعون دفن موتاهم لكثرة الأمراض.

ولما اجتمع شمل الهاربين قام الأمير يلبغا السالمي بإصلاح شأنهم، وحمل إليهم السلاح والعتاد لتجهيزهم إلى دمشق بعد مغادرة الجيش التيموري لها.

وقد وصل إلى دمشق رسول من القاهرة يدعى(**بيسق الشيخي**) يحمل رسالة من السلطان فرج إلى السلطان تيمور بيك وجاء فيها:

(لا تحسب أننا جزعنا منك، أو فررنا عنك وإنما خاننا بعض مماليكنا فقارنا بين خطرك وخطرهم: والحكيم إذا بدا بجسمه مرضان داوى الأخطر، فرأيناك أهون الخطرين وأحقر. فثنى عزمنا الشريف عنانه ليعْرك من ذلك القليل الأدب آذانه... وأيم الله لنكرنَّ عليك كرة الأسد الغضبان، ولنوردن منك ومن عسكرك نواهل القنا موارد الأضغان، ولنحصدنكم حصد الهشيم، ولندوسنكم دوس الحطيم... ولنضيقن عليكم سبل الخلاص فلتنادن ولاتَ حين مناص).

ومثل تلك الألفاظ التي عبر عنها ابن عربشاه: كالملح على الجرح وكالريح عند خروج الروح:

ذو الجهل يدعو بما ذو العقل يفعله

في النائبات ولكن بعدما افتضحا

أما السلطان تيمور بيك فقد سأل الرسول بَيْسق عن مدلول اسمه، فأجابه بعدم معرفة ذلك، فزأر به السلطان قائلاً:

«إذا كنت لا تعرف مدلول اسمك فكيف تصلح لحمل رسالة، ولولا عادة الملوك أن لا يهيجوا الرسل وقد مهدوا على ذلك القواعد وسلكوا السبل.. لفعلت معك ما يجب فعله، ولأوصلتك ما أنت أهله، وبعد هذا فلا عتب عليك، وإنما اللوم على من تقدم بهذا الأمر إليك، ولا حرج عليه أيضاً لأن ذلك مبلغ علمه ومدرك عقله وفهمه.

وإن مرسلك أقلُّ من أن أجامله وأذلُّ من أن أراسله، ولكن قل له:

إني واصل إليه على عقبك فليشمِّر للقرار أو يستعدَّ للفرار».

وأمر بإخراج أعضاء الوفد من أمامه بعد أن بلغ الخوف منهم مبلغاً عظيماً وما صدقوا أنهم توجهوا جهة مصر ورؤوسهم على أكتافهم. ولكن السلطان تيمور بيك أعظم من أن يجيب داعي الشيطان وحاشاه.

إذ أن السلطان فرج وأركان مملكته يدعون لحرب مفتوحة لا ينال ضرّها وأرزاءها إلا المسلمون، وأدرك أن مدبِّري أركان دولة المماليك رجال حمقى ليس إلاَّ.. لا يجيدون إلا الهرب والتجني على بعضهم البعض، وتعريض السكان المسلمين الآمنين لضغوطات مالية واقتصادية وما لا يطيقونه، لجمع الأموال وتجهيز الجيش، وذلك بتكليف من السلطان الحدث .. لذلك فقد أمر رجاله بالرحيل عن مدينة دمشق حتى يخفف عن المسلمين وخاصة بمصر الأعباء المالية التي كلفوا بها من قِبل أمراء المماليك بدعوى حربه فأمر بالمغادرة على وجه السرعة إلى حلب، واصطحب معه الصنَّاع والحرفيين وأصحاب المهن الفاخوريين والبنائين، وفضّل الرحيل عن متابعة قتال غير مجدٍ، ودون نتيجة إلاّ تعريض المسلمين للموت والهزائم.

لذلك لم يعد تيمور بيك يعبأ به إذ أدرك أن السلطان فرج لا قيمة له بين رجال دولته ولا رجولة أو شجاعة لديه فهو لا يستحق الجواب وكفاه فراره وهزيمته وعاره تأديباً فهو أقل من أن يجابهه أو يجعله نداًّ وكفاه ما أصابه وأصاب أمراءه من عار وإذلال بل وأدرك أنه بمنزلة الأطفال فأعرض عنه وكفاه ذل مصابه.

وبعد رحيل الجيش التيموري بيومين تحركت القوات المصرية لنجدة الشام عن قصد بعد فوات الأوان، وذلك بعد أن بذل الأمير يلبغا السالمي كما ذكرنا جهوداً جبارة عرّض فيها السكان الآمنين لضغوطات مالية واقتصادية لجمع الأموال وتجهيز الجيش، وذلك بتكليف من السلطان فرج ليكشف عنه ذل فراره من دمشق في السابق.

وما أن تحرك الجيش المصري حتى عاد أدراجه بعدما وصلته أخبار سارّة عن عودة الجيش التيموري ورحيله، واستولى الأمراء والجنود على كل الأموال المغتصبة التي بحوزتهم، وعادوا من جديد لممارسة هواياتهم المفضلة في الصيد والقنص ولعب الكرة في ميادين القاهرة ومنتزهاتها وكأن شيئاً لم يكن.

محاولة غبية فاشلة

وقبل الرحيل ، جاء إلى السلطان تيمور بيك عالم ديني ملتحٍ يلبس جبة وعلى رأسه عمامة طالباً منه العمل في خدمته ، **فسأله الحرس** :

لماذا تركت سلطان المسلمين وأبناء جلدتك؟ أخبرنا ما القصة؟!.

فأجاب : إني من مصر ، وكنت أعمل في بلاط السلطان المملوكي ، وأنا ألجأ سياسياً لكم ، فإن دمي مهدور الآن.

أدخلوه إلى خيمة السلطان تيمور بيك ، وهناك توسل إليه أن يمنحه حق اللجوء ، لأنه أهان السلطان واضطر لأن يفر من القاهرة.

وعندما جلس أمام السلطان تيمور بيك خاطبه بشيء من الاحترام والوقار **وقال له** :

أيها الأمير الجليل ، إنني كنت دائماً أتوق لأن أسجل مآثرك ، وأروي تاريخ حياتك.. ولكن السلطان المملوكي كما تعلم هو عدو لدود لك ، وقد منعني من أن أراك ، وبهذه المرة تفرَّس به السلطان تيمور بيك قائلاً :

« إذن وها أنت هارب الآن من بلاطه وجئت إلي ، أليس كذلك أيها العالم؟».

فأجاب العالم : نعم يا سيدي الأمير .. نعم.

وكانت عينا ذلك الرجل حمراوين جاحظتين ، واستطاع السلطان تيمور بيك أن يدرك أن عيني هذا الرجل تبدوان حمراوين جاحظتين لأنه مدمن على امتصاص الحشيش ، كما أن اللهجة المتقطعة المبتورة التي كان يحدثه بها تشبه لهجة السكارى والحشاشين كلَّ الشبه.

ورآه يمسح وجهه بمنديله ويضع خلسةً قطعةً من الحشيش في فمه وكانت جيبه منتفخة.

وتطلَّع السلطان تيمور بيك إلى حرَّاسه ونبههم إلى هذا الرجل، وأومأ إليهم أن يكونوا على حذر ويقظة.

ثم التفت نحوه وخاطبه قائلاً:

« إذن لقد هربت إليَّ عن عمد وقصد، أليس كذلك أيها العالم المحترم؟».

ـ نعم يا سيدي الأمير.

ـ وجئت لكي...

ـ لكي أراك وأكتب.. لكي ... لكي أقتلك أيها الوحش!. وجأر بصوت مرعب وهجم على السلطان تيمور بيك بضراوة وهو يستلُّ خنجراً حاداً.

ولكن السلطان تيمور بيك الذي "**ناهز عمره السبعين عاماً**" أمسك يد ذلك المجرم الحشاش وبحركة الممارس المعتاد لواها بقوة إلى ظهر المجرم الذي أصبح وجهه لاصقاً بالأرض إثر تلك الحركة القوية السريعة.. مما مكَّن الحرَّاس من الانقضاض عليه فمزّقوه إرباً إرباً.

ويا للسلطان المملوكي الأحمق، فإنه لم يكن قد تعلَّم بعد كيف يستخدم العلماء في أحوال الحرب.. فاستخدم أحد الباطنيين المخمور بالحشيش بثوب العلماء أهل الوقار.

❁❁❁

ولـكـن....

شرع السلطان بيازيد العثماني بسحب قواته من أوروبا عبر ممر البوسفور، ولا يخفى على السلطان تيمور بيك قوة الأتراك وضخامة جيشهم فضلاً عن طاعة الجند لقادتهم، لذا قرر الانسحاب من بلاد الشام كي يعيد تنظيم قواته ولا يعرِّض السكان لأكثر مما تعرضوا له من أرزاء الحكام السابقين، فأرسل كتاباً إلى محمد سلطان وطلب فيه جلب فرقة من سمرقند للمساعدة والنجدة إن لم تُجدِ الحلول السلمية بالحرب القادمة، وكذلك استدعى ابنه شاه روخ أيضاً وطلب إليه أن يأتي من هرات التي كانت تحارب قبائل التركمان وتخمد أنفاسهم.

ولم يستطع حفيده رستم أن يستولي على بغداد بسرعة كما كان يتوقع بالرغم من فرار السلطان ابن أويس مرة ثانية ولجوئه إلى القاهرة، وتركه تعليمات طلب فيها إلى قادته من المماليك أن لا يستسلموا إلا إذا هاجم السلطان تيمور بيك المدينة بنفسه، إذ المقاومة آنذاك لا تجدي ولا فائدة منها.

وهكذا فقد أصبح السلطان تيمور بيك أمام أمرين:

إما أن يواجه القوات العثمانية بقسم من جيشه بصراع جبهي بسبب غياب الفرقة التي توجهت إلى بغداد. وإما أن يقوم بحملة سريعة على بغداد ثم يعود بجيشه كلِّه لملاقاة الأتراك العثمانيين بعد تكرار فشل الكتب السلمية.

وعندما عادت الفرقة التيمورية التي ذهبت إلى فلسطين لكي تطارد المماليك، هدَّ الجيش التيموري خيامه في دمشق وأخذ يقفل راجعاً إلى حلب.

وقد ترك السلطان تيمور بيك في مدينة دمشق حاكماً وحامية، وما كاد يبتعد حتى ثارت الغوغاء في دمشق لتقتل الحاكم والحامية، وتصادف ذلك مع قدوم قوات

مملوكية جديدة معززة بقوات تركية عثمانية وشروعها بمهاجمة القوات التيمورية المنسحبة من الخلف، فأجبروا التتر على العودة جبراً وسرعان ما سيطر السلطان تيمور بيك على فرقه مرتداً في هجوم مضاد ليحقق نصراً حاسماً عليهم، فأدبهم وحقدوا عليه ودسوا على سمعته السامية في كتبهم ما دسوا وأفاض الجبناء بالأكاذيب بهتاناً وزوراً. وأخلى الميدان من كل عدو، ثم قفل راجعاً إلى دمشق، فقد أبت النفوس الخبيثة إلا أن تظهر خبيئتها فكان الردع والتأديب، وعودته للرهبة وإصلاح النفوس اللئيمة لزاماً.

وكذلك بعد أن ورد الخبر للسلطان تيمور بيك بقيام دمرداش المحمدي نائب حلب بجمع جموع من التركمان، وأخذ حلب وقلعتها من النائب والحاكم التيموري بعد أن قتل عدد منهم: فغادر السلطان تيمور بيك دمشق.

❁❁❁

التدبير الحسن والرأي الصائب
المفكّر المصلح لنفسه لا يحتاج لتأديب

كان على صفد وغزة نائبان ألطبنغا العثماني وعمر بن الطحان. ولما كانت وقعة حلب خرج النائبان إليها ووقعا بالأسر. وقد تركا خلفهما نائباً للغيبة علاء الدين الدواداري فلما قدم السلطان تيمور بيك إلى دمشق وحلّ بها شرع كل متولٍ في البلاد يفعل ما أدى إليه الاجتهاد، فمنهم مَنْ حصَّن أماكنه ومكّن كمائنه واستعدَّ للغدر والقتال ملاقياً عمله قد كيل له ثم رُدَّ عليه، ومنهم من ظل مستوفزاً للفرار كنائب بعلبك وغيرها.

وآخرين سالموا وساكنوا وهادنوا كحمص والبيرة وراوندان وحارم وسرمين وشيزر وكرك نوح وطرابلس وصفد.

ويحدثنا ابن عربشاه عن كيفية نجاة أهل صفد فيقول:

(ففكر علاء الدين وقدَّر وتأمل في خلاص صاحبه وبلده وتبصَّر، وكان من أبناء الناس وعنده ذوق الأكياس. واستشار مصيب عقله في ذلك واستنطقه فقال:

داره واترك سرب الفرار ونفقته فهو ظاهر التوفيق ولعل الله بعثه لتأديبنا والعفو أفضل وأرحم.. فبادر السلطان تيمور بيك بالمهادنة وأرسل هداياه.

فشكر له السلطان تيمور بيك صنعه وزاده ذلك عنده منزلة ورفعة وأرسل إليه مرسوم الأمان وأن يعامَل هو وأهل بلده بالمجاملة والإحسان.

فليؤمن روعهم ولتؤنس وحشتهم ولتذهب دهشتهم بحيث أنهم يتبايعون ويتشارون وإلى مُعامليهم من عساكره يتجاورون "**وإن استطال أحد من أجناده ولو**

أنه من إخوته وأولاده فليقابله بالمنع والإنكار والضرب والإشهار وعدم التعدي رأس الأمر كله" وصار يطلب منه ما أراده فيرسله إليه بزيادة.

وتوجه طوائف من العسكر إليهم وباعوا منهم واشتروا واستمرت عقود المصادقة لم تحلّ.

إلى أن قوض السلطان تيمور خيامه عن دمشق ورحل أعقبه علاء الدين الدواداري يقصده طالباً مراحِمه في أمر ألطبنغا العثماني وابن الطحان وقطع قيودهما وجعل العفو عنهما شكر القدرة.

فلما اطَّلع السلطان تيمور على فحواه وفهم ما أبداه وما أنهاه، دعاهما وأكرم مثواهما وأحسن إليهما وذكر لهما شفاعة علاء الدين فيهما ثم آمنهما البأس وأعطاهما ثلاثة أفراس ثم أضاف إليهما من أبلغهما المأمن فوصل كل منهما إلى دار عزَّته وحل ألطبنغا العثماني نائباً في صفد وابن الطحان في غزة).

وهكذا كانت معاملته طيبةً مع المحسنين.

ترقب جزا الحسنى إذا كنت محسناً

ولا تخشَ من سوءٍ إذا أنت لم تُسئْ



نظرة:

للطرائف مع علماء دمشق

بات العلماء في مخيم السلطان تيمور بيك[1] وعادوا في اليوم الثاني يحملون مناشير وظائفهم الجديدة التي عينهم فيها، كما أرسل معهم فرماناً وهو ورقة فيها تسعة أسطر تتضمن أمان السلطان تيمور بيك لأهل دمشق على أنفسهم وأموالهم وحريمهم لما تم الاتفاق على فتح باب المدينة.

إذ ذاك أجمع العلماء على عقد جلسات مناظرة مع السلطان تيمور بيك وكان لابن خلدون دور بارز فيها وقد تمت المناظرات بعد ما تغلب القاضي ابن مفلح على معارضيه برأي فتح المدينة.

إذ كان العلماء يظنون بالسلطان تيمور بيك الظنون من الغدر والخيانة كما أنبأهم اللاجئون من قطاع الطرق واللصوص والفارُّون الموهومون من الإشاعات، والظانون ظنّ السوء لما فيهم من سوء.

أما العلماء الذين اجتمعوا فهم:

ـ القاضي ابن خلدون.

ـ القاضي ابن مفلح.

ـ شهاب الدين بن محي الدين الحنفي.

---

(١) كان عبد الجبار بن عبد الله الخوارزمي لسان الترجمة بين السلطان تيمور بيك والعلماء وكان عالماً موصوفاً بالفضل والذكاء إماماً بارعاً متفنناً بالفقه والأصول والمعاني والبيان والعربية وكان عظيم دولة تيمور بيك يباحث العلماء ولديه فصاحة بالعربية والعجمية والتركية.

ـ ناصر الدين بن محمد بن أبي الطيب.

ـ محمود بن العز قاضي القضاة الحنفي .

ـ شمس الدين النابلسي الحنبلي.

ـ شهاب الدين الحساني الشافعي.

ـ صدر الدين المناوي الشافعي قاضي القضاة في القاهرة.

ويحدثنا ابن خلدون بعد أن توجه إليه هؤلاء العلماء في المدرسة العادلية[1] وملَّكوه أمرهم لما رأوه من اهتمام السلطان تيمور بيك في المرة الأولى فيقول :

(فبتنا تلك الليلة على أهبة الخروج إليه ، فحدث بين بعض الناس تشاجر في الجامع ، ويذكر البعض ما وقع من الاستنامة إلى القول ، وبلغني الخبر من جوف الليل . فخشيت البادرة على نفسي وبكَّرت سحراً إلى جماعة القضاة عند الباب ، وطلبت الخروج أو التدلي من السور ، لما حدث عندي من توهمات ذلك الخبر ، فأبوا علي أولاً ، ثم أصغوا لي ودلّوني من السور ، فوجدت بطانته عند الباب.. وقدَّم لي شاه ملك مركوباً وبعث معي من بطانة السلطان من أوصلني إليه ، فلما وقفت بالباب خرج الإذن بإجلاسي في خيمة تجاور خيمته ثم زيد في التعريف باسمي أني القاضي المالكي المغربي فاستدعاني... وحين دخلت على السلطان تيمور فاتحته بالسلام وأومأت إيماءة الخضوع ، فرفع رأسه ، ومدَّ يده للمصافحة فقبلتها ، وأشار بالجلوس فجلست حيث انتهيت ، ومن ثم استدعى الفقيه عبد الجبار ابن النعمان فأقعده يترجم ما بيننا فسألني : من أين جئت ، من المغرب؟ ولماذا جئت؟.

(1) **المدرسة العادلية**: تقع المدرسة في دمشق القديمة، منطقة العمارة الجوانية ـ باب البريد بين بابي الفرج والفراديس، مقابل المكتبة الظاهرية. وتنسب للملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، والد الملوك الأيوبيين وأخي صلاح الدين. وقد اتخذت مقراً للمتحف الوطني أيام الانتداب الفرنسي ثم أصبحت مقراً للمجمع العلمي العربي، وهي اليوم تابعة لمجمع اللغة العربية.

فقص عليه ابن خلدون قصته وبعدها أصبح السلطان يسأله عن مدن وقرى المغرب بالتفصيل وابن خلدون يُجيبه وفي النهاية قال له :

«أحب أن تكتب لي بلاد المغرب كلها أقاصيها وأدانيها وجبالها وأنهارها وقراها وأمصارها حتى كأني أشاهدها».

فقال ابن خلدون : يحصل ذلك بسعادتك.

(ثم أشار إلى خدمه بإحضار طعام من بيته يسمونه الرشتة ويحكمونه على أبلغ ما يمكن ، فأحضرت الأواني منه وأشار بعرضها علي فمثلت قائماً وتناولتها وشربت واستطيبت).

وهكذا تكرر لقاء ابن خلدون بالسلطان تيمور بيك طيلة وجودهما بدمشق وفي المرة الثانية من اجتماعهما مع وفد من علماء دمشق السابق ذكرهم وأثناء تناولهم للطعام بحضرة السلطان تيمور بيك دخل قاضي القضاة الشافعي صدر الدين المناوي المصري وكان قد هرب مع السلطان فرج فأُدرك في منطقة ميسلون وسيق إلى السلطان تيمور بيك.

فتخطّى الرقاب وجلس من غير سلام أو إذن في المكان الذي اختاره لنفسه ، فوقف له ابن مفلح احتراماً ، ثم التفت المناوي بحماقة إلى السلطان تيمور بيك قائلاً :

(أنت خارجي ، وخاطبه بلهجة عنيفة تشبه لهجة ابن تيمية مع غازان).

مما أدى إلى غيظ السلطان تيمور بيك وأمر بإخراجه.

وكان تيمور بيك في حواره مع العلماء ، يكثر من الاستغفار والتسبيح ، ولم تكن سبحته لتفارقه أبداً.

ويدل على حبّه للعلماء أنه :

عندما ذكر له القاضي محمد بن عمر بن أبي الطيب العثماني أن نسبه ينتهي إلى عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وأن جدّه الأعلى توصل إلى رأس الحسين ونظفه وغسله وطيَّبه ثم دفنه فلذلك كنوه بأبي الطيب.

فقال له السلطان تيمور بيك :

«لولا أني ظاهر العذر[1] لحملتك على عاتقي، ولكن سترى ما أفعل لك ولإخوانك من التكريم والألطاف».

ثم إنه ودَّعهم وبالتعظيم والاحترام شيّعهم.

(اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون).



(١) يقصد كبر سنه ومرضه الذي أصاب ركبته من شدة البرد في ذلك الشتاء القارس.

طالب الخلافة

ويذكر لنا ابن خلدون:

وفي أيام مقامي عند السلطان تيمور (في دمشق) خرج إليه من القلعة رجل من أعقاب الخلفاء بمصر من ذرية الحاكم العباسي الذي نصَّبه الظاهر بيبرس ، فوقف إلى السلطان تيمور يسأله النصفة في أمره ويطلب منه منصب الخلافة كما كان لسلفه، فقال له السلطان تيمور:

«سأحضر لك الفقهاء والقضاة فإن حكموا لك بشيء أنصفتك فيه».

واستُدعي الفقهاء والقضاة واستدعاني فيهم فحضرنا عنده وحضر هذا الرجل الذي يسأل منصب الخلافة.

فقال له عبد الجبار (الترجمان): تكلم فهذا مجلس الإنصاف.

فقال: إن هذه الخلافة لنا ولسلفنا، إن الحديث صحَّ أنَّ:

(الأمر لبني العباس ما بقيت الدنيا) "يعني أمر الخلافة" وإني أحق من صاحب المنصب الآن بمصر، لأن آبائي الذين ورثتهم كانوا قد استحقوه، وصار إلى هذا بغير مستند.

فاستدعى عبد الجبار: كلاًّ منا في أمره، فسكتنا برهة، ثم قال:

ما تقولون في هذا الحديث؟.

قال برهان الدين بن مفلح: الحديث ليس بصحيح.

واستدعى ما عندي في ذلك "أي ما عند ابن خلدون".

فقلت: الأمر كما قلتم من أنه غير صحيح.

فقال السلطان تيمور بيك:

« فما الذي أصار الخلافة في بني العباس إلى هذا العهد في الإسلام؟».

وشافهني بالقول فقلت:

لما أوصى بالخلافة أبو هاشم بن محمد بن الحنفية إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وبثَّ دعاته بخراسان وقام أبو مسلم بهذه الدعوة فملك خراسان والعراق ونزل شيعتهم الكوفة، واختاروا للأمر أبا العباس السفاح ابن صاحب هذه الدعوة، ثم أرادوا أن تكون بيعته على إجماع من أهل السنة والشيعة، فكاتبوا كبار الأمة يومئذ وأهل الحلِّ والعقد بالحجاز والعراق، يشاورونهم في أمره، فوقع اختيارهم كلهم على الرضى عليه، فبايع له شيعته بالكوفة بيعة إجماع وإصفاق. ثم عهد بها إلى أخيه المنصور، وعهد بها المنصور إلى بنيه فلم تزل متناقلة فيهم. إما بعهدٍ أو باختيار أهل العصر. إلى أن كان المستعصم آخرهم ببغداد، فلما استولى هولاكو وقتله، افترق قرابته ولحق بعضهم بمصر بممالأة أهل الحلِّ والعقد من الجند والفقهاء، وانتقل الأمر في بيته إلى هذا الذي بمصر، ولا يُعلم خلاف ذلك.

فقال السلطان تيمور بيك لطالب الخلافة:

«قد سمعت مقال القضاة وأهل الفتيا وظهر أنه ليس لك حق تطلبه عندي فانصرفْ راشداً».

❖ جلب ابن خلدون إلى السلطان تيمور بيك بعض الهدايا، مصحفاً رائعاً حسناً في جزء محذوٍ وسجادة أنيقة للصلاة ونسخة من قصيدة البردة المشهورة للبوصيري في مدح النبي ﷺ وأربع علب من حلاوة مصر الفاخرة.

فلما مثل بين يديه أشار إلى الهدايا التي ذُكرت، وهي بيد خدامه. ثم فتح المصحف فلما رآه السلطان تيمور بيك قام مبادراً فوضعه على رأسه. ثم ناوله البردة فسأله عنها وعن ناظمها فأخبره بما وقف عليه من أمرها. ثم ناوله سجادة الصلاة فتناولها وقبّلها.

ثم وضع علب الحلوى بين يدي السلطان تيمور بيك وتناول منها حرفاً على العادة في التأنيس بذلك، ثم قسم هو ما فيها من الحلوى بين الحاضرين في مجلسه. وتقبَّل ذلك كله وأشعر بالرضى به.

ومن ثم قال ابن خلدون: أَيَّدك الله، لي كلام أذكره بين يديك فقال: « **قل**».

فقال ابن خلدون: أنا غريب بهذه البلاد غربتين، واحدة من المغرب الذي هو وطني ومنشئي وأخرى من مصر وأهل جيلي بها، وقد حصلت في ظلك وأنا أرجو رأيك لي فيما يؤنسني في غربتي، فقال: « **قل الذي تريد أفعله لك** ».

ـ حال الغربة أنستني ما أريد، وعساك أَيَّدك الله أن تعرف لي ما أريد.

ففهم السلطان تيمور بيك قصده في طلب الأمان لنفسه فقال:

« **انتقل من المدينة إلى المخيم عندي وأنا إن شاء الله أوفي كنه قصدك**».

فطلب ابن خلدون وثيقة أمان بإمضاء شاه ملك فأُجيب طلبه، ثم قال: بقي لي طلب آخر.

فقال السلطان: « **وما هو؟!**».

فقال: هؤلاء المخلفون عن سلطان مصر من القرّاء والموقّعين والدّواوين والعمّال صاروا إلى إيالتك والمِلك لا يغفل مثل هؤلاء، فسلطانكم كبير وعمالاتكم متَّسعة وحاجة ملْككم إلى المتصرفين في صنوف الخدم أشد من حاجة غيركم، فقال:

« **وما تريد لهم؟**».

قلت : مكتوب أمان يستنيمون إليه ويعولون في أحوالهم عليه.

فقال السلطان لكاتبه : « **اكتب لهم بذلك** ».

فشكر ابن خلدون له ذلك ودعا وخرج مع الكاتب حتى كتب له مكتوب الأمان. وختمه شاه ملك بخاتم السلطان.

وسأل السلطان تيمور بيك ابن خلدون : «**هل عندك بغلة؟**».

قال : نعم.

قال : « **وتبيعها**».

فاستحيا ابن خلدون وقال :

إن مثلي لا يبيع مثلكم ولو أن لي أمثالها لقدمتها لكم.

وأخذ السلطان بغلة ابن خلدون ، والحكمة من ذلك أن يمتن السلطان الروابط القلبية بينه وبين ابن خلدون فتسمو المحبة بينهما وتثمر وتنجب تاريخاً مجيداً لما لابن خلدون من أهمية كبيرة في ذلك الزمن بين كل العلماء في بلاد السلطان المملوكي.

ولما عاد ابن خلدون إلى مصر كان السلطان فرج حينها قد أرسل مبعوثاً منه إلى السلطان تيمور بيك من أجل الصلح ، فلما رجع المبعوث إلى مصر أرسل مع بعض أصحابه إلى ابن خلدون يقول له :

(إن السلطان تيمور بيك قد بعث معي إليك ثمن البغلة التي ابتاع منك وهذا هو فخذه "يقصد المال" فإنه عزم علينا من خلاص ذمته من مالك هذا).

نظر ابن خلدون إلى المال ولكنه خاف أن يأخذه دون إعلام السلطان فرج ، ولم يستلم المال من المبعوث ، وذهب إلى صاحب الدولة وأخبره الخبر فقال له :

وما عليك (يقصد أن خذ المال ولا شيء عليك).

وقال ابن خلدون وبعثوا إلي بذلك المال بعد مدة، واعتذر الحامل عن نقصه بأنه أعطيه كذلك، وحمدت الله على الخلاص.

وظهر لابن خلدون جلياً واضحاً بالمعاملة مع السلطان تيمور بيك بأن أرسل له ثمن بغلته وأزود من ثمنها للخلاص من ذمتها لأنه اشتراها منه، فكيف يقال عنه أنه استحل مال البلاد المفتوحة؟! وهو لم يقبل ببغلة واحدة أن تبقى عنده دون إعطاء ثمنها؟! وكيف تذكر تلك البغلة وهو المشغول دائماً بالبلاد والعباد؟! ألا يدل ذلك على طيب عنصره؟.

ألم يرَ ابن خلدون بأم عينه كيف سرقه المماليك بأن أنقصوا من ثمن البغلة، فإن كان هؤلاء يفعلون مثل هذه الأمور مع عالم كبير وقاضي ومفتي الديار كابن خلدون فماذا كانوا يفعلون بمن هم دونه حينها.

تكفي تلك القصة التي ساقها ابن خلدون بنفسه لمن أراد أن يعلم سبب قدوم السلطان تيمور بيك إلى هذه البلاد، وما ذاك إلا لضرب المفسدين والفساد.

ولما قرب سفر ابن خلدون واعتزم على الرحيل إلى مصر دخل على السلطان تيمور بيك فلما قضى المعتاد التفت إليه السلطان تيمور بيك وقال:

« أريد أن أكافئك».

فقال: وهل بقي إحسان وراء ما أحسنت به، اصطنعتني وأحللتني في مجلسك محل خواصك وقابلتني من الكرامة والخير بما أرجو الله أن يقابلك بمثله.

بعد عدة أيام قال له السلطان تيمور بيك: **« أتسافر إلى مصر؟»**.

فقال: أيَّدك الله رغبتي إنما هي أنت، وأنت قد آويت وكفلت، فإن كان السفر في خدمتك فنعم وإلا فلا بغية لي فيه، فقال: **«لا بل تسافر إلى عيالك وأهلك »** .

والتفت السلطان تيمور بيك إلى ابنه وكان مسافراً إلى شقحب لمرياع الدواب وحادثه وأوصاه به، ثم رأى ابن خلدون أن السفر مع ابن تيمور بيك غير مستبين الوجهة، والسفر إلى صفد أقرب السواحل إليه وأثبت لأمره. فأوصى ابن تيمور بيك قاصداً كان عنده من نائب صفد بابن خلدون.

وفي الطريق ذهب ابن خلدون وسافر في جمع من أصحابه تاركاً حماية التيموريين فاعترضتهم جماعة من العشير قطعوا عليهم الطريق ونهبوا ما معهم ونجوا إلى قرية في تلك الناحية عرايا.

ومن ثم تيسَّر أمره ووصل غزة مع مركب من مراكب ابن عثمان سلطان العثمانيين ومن ثم إلى مصر، وفوجئ ابن خلدون بعد عودته إلى مصر بوصول ثمن بغلته إليه، أرسله له السلطان العظيم تيمور بيك عن طريق سلطان المماليك حيث كان السلطان فرج حينها...

ونورد هنا أن سبب إطلاق كلمة الأعرج على قاهر الملوك السلطان تيمور بيك يرجع إلى ما نقله ابن عربشاه عن وصف السلطان تيمور بيك حين قدومه بلاد الشام، وأيضاً ما قاله ابن خلدون بهذا الشأن دون استكمال بقية حديثه.

إذ يقول ابن خلدون بهذا الشأن عند وصف لقائه الأول بالسلطان تيمور:

(وجاءه الخبر بفتح باب المدينة "مدينة دمشق" وخروج القضاة وفاءً بما زعموا من الطاعة التي بُذل لهم فيها الأمان، فرفع من بين أيدينا لألم في ركبته من الداء وحُمل على فرسه).

وهذه الآلام التي أصابت ركبة السلطان تيمور بيك وقد ناهز السبعين عاماً سببها البرد فقدومه أيامها من بعلبك في ذلك الشتاء القارس أصاب ركبته بالألم مما اضطره

للمساعدة أثناء القيام، وكثيرون هم الذين يمدون يدهم للسلطان لينهض عن طريقهم لما لهم من الشرف والبركة بمعيته. وهذا ما لاحظه ابن خلدون وكتبه، وبعد فترة من الزمن كانت قد تعافت ركبته من الألم ويدل على ذلك وصف ابن خلدون ذاته له حين دخل عليه بالقصر الأبلق مصطحباً معه بعض الهدايا والتي تقبلها منه السلطان تقبلاً كريماً. فيقول ابن خلدون:

(وجئت بذلك "الهدايا" فدخلت عليه وهو بالقصر الأبلق جالس في إيوانه فلما رآني مقبلاً مُثل قائماً وأشار إلي أن أجلس عن يمينه).

وهنا يظهر جلياً أن السلطان قد تعافى بفضل الله من آلام ركبته الشديدة من جراء ذلك الشتاء المليئ بالثلوج وقد مثل قائماً بمفرده، علماً أن السنة السابقة قبل قدوم السلطان تيمور إلى بلاد الشام كانت سنة جدب وقلة من الأمطار ولكن مع قدومه إلى الشام هطلت الثلوج والأمطار استبشاراً لقدومه.

وعلى هذا لا صحة أبداً لما أوردوه من أن سلطان العالم وقاهر الملوك أعرج. بل هو متبع ومقتفي إمامه وسيده سيدنا محمد ﷺ، حين يمشي كأنه يتقلع من صخر، وهو كسيدنا داود العظيم أعطاه الله علماً وجسماً ﴿...**وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِ**...﴾[1].

فكيف لملك وقائد عظيم حط العلماء رحالهم عنده وكذا سائر الملوك والحكام في العالم أجمع إلا أن يكون كما ذكرنا.

❁❁❁

---

(1) سورة البقرة: الآية(٢٤٧).

دمشق بعد مغادرة السلطان تيمور بيك

عقب رحيل السلطان تيمور بيك سلّط الله عليها وعلى جميع بلاد الشام جراداً لم تعهد مثله منذ قرون، وذلك بعد نشوب الحريق الذي أبكى تيمور بيك عليهم، بالرغم أنهم كانوا مستحقين لذلك الحريق وهجوم الجراد عليهم أيضاً والذي أتى على الأخضر واليابس وأصبح أعزة أهلها أذلة، وقد تاهوا في البراري يجمعون مخلفات الجيش التيموري ليبيعوها ويقتاتوا بثمنها.

ثم انتشر اللصوص والعيَّارون ومن لا أخلاق لهم من الأراذل فهجموا على الناس وصاروا ينهبون ويقتلون وأتوا على ما بقي للناس من متاع وزاد واستمر هذا الحال حتى عودة نائبها (تغري بردي) إليها، بعد أكثر من شهرين من رحيل السلطان تيمور بيك.

ويذكر أحمد بن زيني دحلان صاحب كتاب الفتوحات الإسلامية:

(وفي ثالث شعبان ركب تيمور وسار نحو حلب راجعاً لبلاده، وكانت إقامته بدمشق أربعة وسبعين يوماً ثم بعد رحيله عنها كان كل من بقي يعدو عليهم ويعريهم من البادية والفلاحين وجرى عليهم منهم ما لم يجرِ أبداً من تيمور) بعد أن ثاروا ضده وقاتلوا جنده الذين كانوا يحموهم وتعدّوا إثر مغادرة جيشه دمشق بسلام[1] فذاقوا وبال تعديهم فلم يعد عندهم من يحميهم وأصبحوا لقمة سهلة لكل من يعتدي عليهم وذاقوا وبال تعديهم والله لا يحب المعتدين.

❁❁❁



(1) ج٢ـ ص١٠٥

مـرة ثـانية:

حمص ـ حماة ـ حلب ـ ماردين

خرج السلطان تيمور بيك بقواته من دمشق فمر بقرية القبيبات وتوقف برهة قصيرة في الغوطة ثم تابع تقدمه شمالاً ماراً بالنبك وقارة إلى حمص. وقد بقيت حمص بالأمن والدعة بسبب مسالمة أهلها. وما أن تقدم السلطان تيمور بيك إلى حماة حتى أظهر أهلها بعض المقاومة، فأصابهم ما كالت أيديهم. ودون توقف تابع المسير بجنده إلى حلب وتمركز في الجبُّول إحدى ضواحي حلب ومن هناك أرسل إلى حلب وأخذ قلعتها وهدم أبراج القلعة عقوبة على عصيانهم بسبب تمرد دمرداش المحمدي على النائب والحاكم التيموري وقتله عدداً منهم.



ومن ثم تابع السلطان تيمور بيك فعبر نهر الفرات[1] على زوارق كبيرة عند البيرة إلى الرها[2] ومنها قام بجيوشه في جولة على المناطق الشمالية من بلاد الشام مما اضطر حكام تلك المناطق لأن يجددوا ولاءهم له.

---

(١) **نهر الفرات**: هو أحد الأنهر الكبيرة في جنوب غرب آسيا، ينبع في تركيا ويتألف من التقاء جدولين في آسيا الصغرى، يصب في الخليج العربي، يبلغ طول الفرات حوالي/٢٧٠٠/كم ما يعادل /١٨٠٠/ ميلاً، ويتراوح عرضه بين /٢٠٠/متر إلى أكثر من/٢٠٠٠/ متر عند المصب.

(٢) **الرها**: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام وهي فوق حران في تركيا حالياً.

وكان ممن أرسل إليه حاكم ماردين مجد الدين عيسى وجاء في كتاب السلطان تيمور بيك إليه:

سلام عليكم والعهود بحالها لقد بلغ الأشواق منّا كمالها

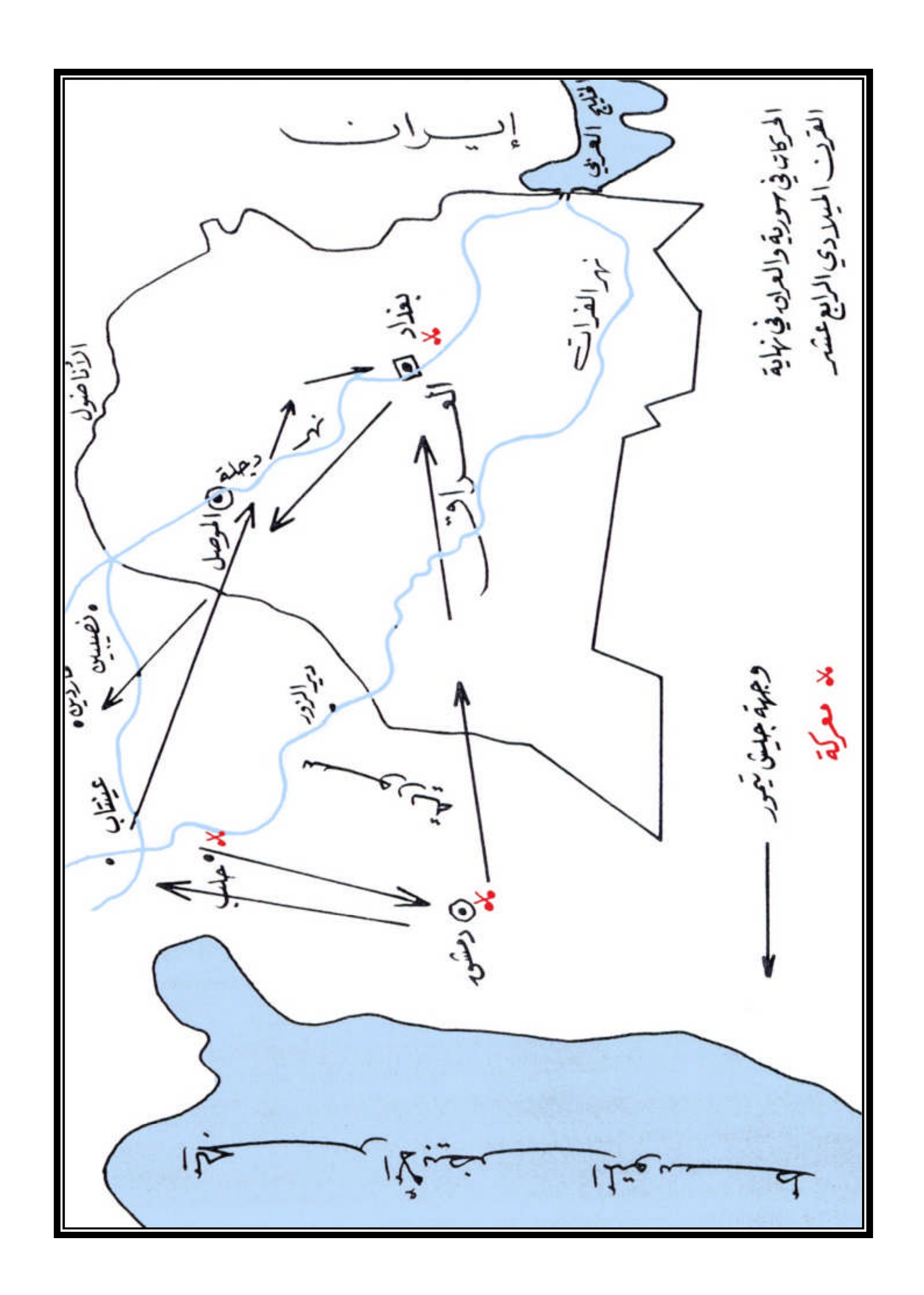
فأبى مجد الدين عيسى أن ينزل عند رغبة السلطان تيمور بيك أو يستمع لطيف كلامه أو يلتفت إليه وأرسل قاصداً إلى السلطان تيمور بيك ومعه بعض الهدايا يعتذر عن حضوره لعدة أمور منها مخافة أن يغدر به السلطان تيمور بيك على حسب ظنِّه السيء، واعتصم في قلعة المدينة الحصينة القائمة على ربوة مرتفعة واعتصم معه السكان. بالرغم من أن السلطان تيمور بيك قام بأسر مجد الدين عيسى حاكم ماردين[١] سابقاً وسجنه ثم أعاده إلى حكومته حاكماً تابعاً له. ولكن وقوف مجد الدين عيسى على الحياد خلال حروب السلطان تيمور بيك في بلاد الشام عملٌ ينم عن الخبث وعدم الإخلاص في ولائه.

ولما لم يكن الوقت كافياً عند السلطان تيمور بيك لضرب حصار اقتصادي حول تلك القلعة ضرب حصاراً سريعاً علَّه يُجدي. وترك السلطان تيمور بيك القلعة والمدينة لعلمه أنها لا بد مستسلمة إليه بعد ورود أخبار سقوط المماليك وهزائمهم ويأس حاكمها من مساعداتهم.

وبالفعل لما عاد السلطان تيمور بيك من حروبه في بلاد الكرج في العام نفسه ندم مجد الدين عيسى على تصرفه السابق وتوسط له شاه روخ فعُفي عنه وقابل السلطان تيمور بيك وجثى أمامه على ركبتيه كما تعهد بدفع ما يترتب عليه من خراج سنوياً. ومن ثمَّ تزوج حفيد السلطان تيمور بيك أبو بكر بن ميران شاه إحدى بنات مجد الدين عيسى.

---

[١] حصن من بلاد الجزيرة.



الحركات في سورية والعراق في نهاية القرن الميلادي الرابع عشر

كيف انتهت مسألة السلطان فرج وبلاد الشام

قبل الانتقال إلى مجال آخر من فتوحات السلطان تيمور بيك وحباً بإيقاف القارئ على ما آل إليه أمر السلطة المملوكية الثانية مع السلطان تيمور بيك نورد وقائع النهاية :

اتجه السلطان تيمور بيك إلى سمرقند بعد انتصاره على العثمانيين وفي الطريق أرسل كتاباً آخر إلى السلطان فرج ينبئه فيه بغزوه الدولة العثمانية وطالبه بإطلاق أطلمش وأنه إذا قدم عليه أرسل ما عنده من الأمراء والنواب المماليك المأسورين.

وأما إذا امتنع السلطان فرج عن تنفيذ مطالبه فإنه سيعود إلى تخريب مصر.

وجاء في الكتاب :

« أصبح ملك جميع بلاد الروم بنصرة الله وعنايته تحت حكم أتباعنا فينبغي أن تزين سكة بلاد الشام ومصر وخطبتها باسمنا وأن تطلقوا سراح أطلمش في الحال، وترسلوه إلى بلاطنا الذي هو ملجأ للعالم، وإذا تغافلتم في هذا الأمر أدنى تغافل فتيقنوا أن راياتنا المظفرة ستتجه بعد عودتها من بلاد الروم إلى مصر وترفرف على ربوعها وقد قلت كل ما في نفسي وأنت تعرف ما بعد ذلك وقد أعذر من أنذر»[1].

وحسماً للموقف طلب السلطان فرج أطلمش من سجنه بالقلعة، وأحضر مصحفاً حلف له أطلمش على إشادته بما للسلطان فرج ولوالده من أفضال عليه. فخلع عليه السلطان فرج وأنعم عليه بخمسة آلاف درهم وأطلقه مصحوباً ببعثةٍ من أمرائه[2].

وحين استقبل السلطان تيمور بيك أطلمش/٨٠٦هـ/ أرسل رسله بكتاب آخر للسلطان فرج وعرض فيه السلطان تيمور بيك رغبته في إقامة علاقات المودة مع

---

(١) ميرخواند روضة الصفا ج٦ ص٢٤٦.

(٢) وعجباً يذكرالمؤرخون العرب تلك القصة التي إن لم تكن تدل على غباء السلطة المملوكية وحمقها تدل على بلاهة رواتها من أن السلطان فرج طلب من أطلمش أن يكون له عيناً على جيش تيمور بيك!.

السلطنة المملوكية الثانية كما شكر الأمراء على إرسال أطلمش وأرسل هدية وخلعة للسلطان فرج.

ثم أرسل له كتاباً آخر يذكر فيه أن قرا يوسف وأحمد بن أويس تعديا على طاهر بن أحمد بن أويس الذي عينه حاكماً على بغداد من قبله وذكر أنه أرسل إليهما ابنه ميران شاه في مائة ألف فارس فهربا منه، وحذر السلطان تيمور بيك السلطان فرج من هذين الفارّين وأنه إذا سمح لأحد منهما بالدخول إلى بلاده فإنه ربما يأخذا البلد منه لضعفه.

وإثر ذلك وما إن قبض نائب دمشق على أحمد بن أويس وقرا يوسف حتى كتب السلطان فرج خطاباً للسلطان تيمور بيك يُخبره بأن الاثنين تحت طلبه.

ومن ثم بدأ السلطان فرج والسلطان تيمور بيك يتبادلان الهدايا، كما أن السلطان تيمور بيك قبل أن تدركه المنيَّة آخر سنة /٨٠٧هـ/ أرسل إلى السلطان فرج عدة هدايا واعتذر له عن اضطراره إلى دخوله بلاده.

نعم لقد اعتذر رغم كل ما أبدوه من سقم سريرة وأفون تدبير وتناسى كل أعمالهم التي تنم عن خروجهم عن جادة الشرع الشريف[1] منها:

---

(١) وقد جاء في خطط الشام لمحمد كردعلي: هذا الرجل الجبار لم يحمل على الشام حملته إلا بأسباب أوجدها النوّاب والأمراء والملوك على الأرجح، فقد ذكر ابن حجر في حوادث سنة/٧٩٨هـ/ أن أطلمش قريب تيمورلنك قبض عليه قرا يوسف التركماني صاحب تبريز وأرسله إلى الملك الظاهر فاعتقله فكانت هذه الفعلة أعظم الأسباب في حركة تيمورلنك إلى البلاد الشامية. وقال في حوادث سنة/٧٩٩هـ/ وصلت كتب من تيمورلنك فعوِّقت رسله بالشام وأرسلت الكتب التي معهم إلى القاهرة ومضمونها التحريض على إرسال قريبه أطلمش الذي أسره قرا يوسف فأمر السلطان أطلمش المذكور أن يكتب إلى قريبه كتاباً يعرفه فيه ما هو عليه من الخير والإحسان بالديار المصرية وأرسل ذلك السلطان مع أجوبته ومضمونها إذا أطلقت من عندك من جهتي أطلقت من عندي من جهتك والسلام. فالقائمون بالأمر هم الذين فتحوا لتيمورلنك السبل لغزو البلاد فيما بعد، مع نيته لإصلاح العباد.

١ـ إهانة بعض رسله بالرحبة وحلب ودمشق.

٢ـ إيواؤهم السلطان أحمد بن أويس وقرا يوسف التركماني قاطعيْ الطريق على حجاج بيت الله الحرام.

٣ـ أسر قريبه أطلمش ومُراسلتهم لأجل الإفراج عنه طيلة خمس سنوات.

٤ـ تحالفهم مع العدو التقليدي (توكتاميش) خان الهوردة الصابئي الكافر.

٥ـ تعدِّياتهم على الحدود وإعادة بغداد لابن أويس.

٦ـ خروجهم عن جادة الشرع الحنيف من قبول الرشوة وأكل مال اليتامى.. مما سبق ذكره.

٧ـ محاولة اغتياله.

٨ـ نقضهم كافة المعاهدات التي تمَّ إبرامها معهم أثناء الحصار والانسحاب.

١٠ـ قتلهم للحامية والحاكم الذين تركهم في دمشق وهجومهم على مؤخرة جيشه لدى انسحابه السلمي وهو في طريق العودة دون حرب وتخريب.

بيد أنه لما قاتلهم بمعركة الكسوة لم يكسر شوكتهم ويُذهب ريحهم، بل حقق نصراً حاسماً عليهم بفضل حربه النفسية والمعنوية والإشاعة وبها تخلُّوا عن المواجهة فغادروا سوريا هاربين راجعين إلى مصر دون تفكير بعودة قريبة. وهم لم يحفظوا ماء وجههم أمام شعبهم ولو بشيء قليل من الخجل. ولكن العليم القدير نصره بالرعب دون سفك الدماء. حقاً لقد كان ذو خلق عظيم حين حلم وسامح أهل الشام عندما غدروا به وقتلوا ابنه وصهره في الغوطة ولم يخرج عن طوره ولم ينتقم ولم يدخل دمشق إلا سلماً.

❁❁❁

ما الأمر؟!

بالرغم من أن الجيش التيموري دخل بغداد مرتين وكذلك حلب وحماة وماردين وغيرها من البلدان التي وصل دخوله لها أحياناً لتسع مرات لكثرة انتقاضاتها لعهودها كبلاد الكرج وجورجيا، أما دمشق فلم تتعرض للفتح سوى مرة واحدة، فلماذا؟!.

لماذا ارتبط اسم السلطان تيمور بيك بمدينة دمشق؟!

تفطَّن الإفرنج إلى قوة الإسلام التي ظهرت في شخص السلطان تيمور بيك.

فيقول: أندريه ميكلي(Andre Meekly) صاحب كتاب الإسلام وحضارته:

(إن نجاح تيمورلنك في الانتفاع من الإسلام بعد قرن ونصف من الغزو المغولي إنما يدل على القدرات الخارقة لإمكانية هذا الدين، وهي قدرات لا تدلُّ على إمكانية إعادة تكوينه بعد كؤوس المذابح المحزنة "التي قام بها المغول" فحسب، وإنما تدل على إمكانية مقاومته لعدم اكتراث المغول بالمسائل الدينية، بل ومقاومة عداء بعضهم الصريح. **"والفضل ما شهدت به الأغيار"** إلا أن هذا الإسلام الذي يتعذَّر إخماده هو إسلام عالم إيران، عالم تحمَّل وحده عسكرياً وثقافياً ثقل هذا الغزو ثم استقرار وامتصاص المغول، إن هذا الإسلام ، بانقطاعه عن العرب تقريباً، سوف يتغذى من داخله، من هذه الحيوية المستقلة بحيث يمتص سنيَّة تيمورلنك على المدى البعيد ليطوِّر الأشكال الأصلية للشيعية الوطنية التي تحترم آل بيت محمَّد ﷺ فقط.. إن الحروب التي قام بها تيمورلنك أدت إلى تبسيط خريطة

سياسية كان مصيرها التفتُّت، وتكوُّن دولة واسعة تحت سلطة تيمورلنك من عاصمته سمرقند لتغطي إيلخانيات فارس القديمة، وجزءاً من إيلخانية دياغتاي "جغطاي"، وامتدت تلك الغزوات عبر حدودها لتشمل كُلاًّ من موسكو ودمشق وآسيا الصغرى والهند ثم الصين).

كانت الخلافة الإسلامية منبعاً للوحدة بين المسلمين، وتأكيداً لمستقبل الإسلام، ولما لم تعد هناك خلافة، حاول المماليك الأُوَل بقيادة الظاهر بيبرس منح هذا اللقب للخلفاء العباسيين الهاربين من مذابح بغداد أيام المغول.

إلا أن ذلك لم يجمعهم فيما بعد، ولم يعد هناك خليفة للمسلمين يجمع كلمتهم.

وكانت صدمة فظيعة، حيث أنَّ طاقة الأمة الإسلامية من أدنى أطراف الإسلام إلى أقصاها تحطمت لفترة ما. إذ العيش بلا خليفة عيشٌ في مهب الريح للذراع الأقوى والعقل الأدهى، ولا ريب أنَّ كلّ طامح يقول: ها أنا ذا .. وتقع الطامة الكبرى في صراع المسلمين بين بعضهم البعض كما حدث في مجريات التاريخ.

ولما كانت هذه الفرقة والاختلاف من أقوى الأسلحة الفتاكة لصالح القوى الخارجيَّة لا سيما الصليبيين، الذين راحوا يشيدون الدعاية للفصل بين الشرق الإسلامي وغربه، على مبدأ (فرِّق تسد)، وحيث كانت دمشق مركزاً للخلافة الأموية فقد وجدوا فيها علَماً سهل الرفع للمناداة بشعارات التفرقة بين الشيعة والسُّنة.

لذا وجد كتبة الإفرنج وسياسيُّوهم ضالّتهم المنشودة بتلك الكتب لزرع التفرقة وراحوا يروِّجون لها.

ونظراً لأهمية كتاب ابن عربشاه بزرع التفرقة والانقسام فقد طُبع في أوروبا منذ عام /١٦٣٦م/ في مدينة ليدن الهولندية (*Leiden*) مع ترجمة له إلى اللغة اللاتينية.

أي قبل أن يطبع في مصر بمائتين وخمسين عاماً وذلك سنة/١٨٦٨م/ وكذلك طبع مرة ثانية في فرانكفورت عام/١٧٦٧م/ مع ترجمة لاتينية أخرى وتعليقات للمستشرق مانجر، كما أنه تُرجم أيضاً إلى اللغة التركية. وقد لاقى كل ذلك استحساناً وأيَّ استحسان عند المسلمين في الغرب الإسلامي، بلاد الشام وأفريقيا.. الذين غفلوا عن الحقيقة:

إن كان هذا بالأقارب ظنُّكم   فما الذي أبقيتمُ للأباعد!...

وللأسف:

يا عجباً قالوا أديب العصر[1]   بل حسْبه من كاذب مغتر

أسطوله يراعُه في شبر   وبحره زجاجة من حبر

مُعَقَّداً من ذَنَب لظهر   تعقيد من قد خُلقوا للمكر

وهبطوا الدنيا لأمر نُكر   إسفنجة جاءت لشرب البحر

مهزلةٌ مضحكةٌ للبشر

نعم، كانت كل تلك الترجمات والترويج لها حتى يُشهَّر بالسلطان تيمور بيك الفاتح العظيم المنتصر على السلطان العثماني بيازيد المتكبر بروايات الإفك والتهويل التي حوتها الكتب العربية لصنع التفرقة بين المسلمين لا سيما الشيعة والسنة.

---

(١) ابن عربشاه.


كتاب عجائب المقدور
في تاريخ تيمور

ورقة من المخطوطة القديمة في المكتبة الظاهرية بدمشق، والمسجلة برقم/٦٨٩٣/
وفي خاتمتها ما يشير إلى مراجعتها سنة /٨٩٨هـ الموافق ١٤٩٢م/.

نلاحظ من هذه المخطوطة كيف تغير عنوان الكتاب إلى عجائب المقدور في نوائب (مصائب) تيمور في أيامنا هذه، ولا عجب أن تنال هذه التغيرات باطن الكتاب للدس والوقيعة. والمحقِّقون لكتاب عجائب المقدور في نوائب تيمور لاحظوا الفروقات الكثيرة بين النسخ الخطية والحجرية، حتى لا يكاد فصل من فصول الكتاب يخلو من عدة ملاحظات[1].

وقد دأب الكتبة الإفرنج على تشويه أيّ صورة تُظهر السلطان تيمور على حقيقته، نذكر منها:

❖ ترجمة كتاب ظفر نامه لشرف الدين يزدي وهو سيرة السلطان تيمور بيك المشهورة إلى الفرنسية ترجمة غير دقيقة (بتي دولا كروا) ونُشر بباريس /١٧٢٢م/. مع عظمة تاريخ تيمور بيك العظيم قاهر العالم فإن هذه الفترة التي تُخْتَم بنهاية حكمه لم تكن فيها آسيا موضع اهتمام المؤرخين المتخصصين أبداً، مع أن تاريخ هذه الفترة يتصل اتصالاً وثيقاً بتاريخ داخل العالم الإسلامي عامة، فضلاً عن تاريخ المسلمين في المغرب في بعض الأحيان. لذا كان الاضطلاع بهذا العمل وأعني (إظهار حقيقة أعظم القادة المسلمين تيمور بيك) لا يخلو من المشقة لقلة المصادر العربية أو المعرَّبة وضآلة الإمكانيات.

❖ رغم أن عدداً من المؤرخين العرب ذكروا أن حريق الجامع الأموي لم يكن متعمَّداً قطعاً من قبل الجيش التيموري نرى أن هذا الرأي يعارضه مدّعي

---

[1] حتى أنك لتجد عناوين لفصول في بعض النسخ لا توجد في أخرى، مثلاً العنوان:
(ذكر ما نقل عن شاه منصور مما أوقع بعسكر تيمور من الحرب والويل تحت جنح الليل). تجد المحقق النزيه أردف بالحاشية: (هذا العنوان ليس في نسخ أُخرى)، والغرابة أن العنوان عكس الموضوع تماماً.

شاهد عيان بزعمه من الفرنجة كما يدعي زوراً وتفريقاً بين صفوف المسلمين ولإذكاء الحرب بينهم وهو الرحالة البافاري (Schiltbeger) الذي ذكر أنه بعد امتلاء المسجد بالناس أشعل تيمور بيك فيه النار (صورة تشويهية).

ـ وبينما يذكر ابن خلدون طريقة دخوله على السلطان تيمور بيك بمفاتحته بالسلام وإيماءة الخضوع وتقبيله يد السلطان. يشير السفير الأسباني (كلافيجو) أنه زار بلاط تيمور بيك ولاحظ أنه لم يعط يده قط لتقبيلها ، لأن ذلك ليس من عاداتهم ، بل إنه بنظرهم يعد شيئاً مستهجناً. وذلك لوضع السلطان تيمور بصورة المحتقر لعلماء دمشق والمزدري لهم. ويذكر ابن خلدون : عدة أفعال قام بها السلطان تيمور بيك عند استقباله منها : (**فلما رآني مثُل قائماً وأشار إلي أن أجلس على يمينه فجلست وأكابر الجغطائية حفافيْة)** ويعترف ابن خلدون لتيمور بيك بأفضاله قائلاً :

(هل بقي إحسان وراء ما أحسنت به؟. اصطنعتني وأحللتني من مجلسك محلَّ خواصِّك وقابلتني من الكرامة والخير بما أرجو الله أن يقابلك بمثله).

ولم يكن ذلك من ابن خلدون مماكرة أو مخادعة ، إذ كتب لسلطان المغرب رسالة من مصر يعلمه عمَّا جرى معه ، إذ يقول :

(حضرت مجلس تيمور وقابلني بالخير، واقتضيت منه الأمان لأهل دمشق ، وأقمت عنده خمسة وثلاثين يوماً أباكره وأراوحه ، ثم صرفني وودعني على أحسن حال ورجعت إلى مصر). فعجباً من بعض المؤرخين أن لا يروا فيما قرؤوه إلاَّ قول كلافيجو !.

❖ بينما كتب عدد كبير من المؤرخين الإفرنج سيرة الأمير تيمور وفقاً للنظرة العربية وكأنها شهادات صادقة على كلام ابن عربشاه وأمثاله.. مثل كتاب (Coothprnonill)

تيمورلنك قاهر الدنيا وسابي العذارى، الذي جاءت فصوله بصيغة علاقات غرامية مصطنعة ليس إلا..

ـ فمثلاً وقع فصل الزواج من أميرة بـ ٢٠ صفحة/٦٦ـ ٨٨/.

ـ الابن المنتظر بـ ١٠ صفحات/٨٠ ـ٩٠/.

ـ ولادة توأم بـ١٣ صفحة/١٣٦ـ ١٤٩/.

ـ وفاة إلجي بـ٢٠ صفحة/٢١٤ـ٢٣٢/.

ـ عودة البيجوم/٣٠١ ـ ٣١١/.

ـ مبارزة مع أبنائي/٣١١ ـ ٣٢٣/.

ـ النخاس وأجمل امرأة في العالم بـ ٥٣ صفحة/٣٥١ ـ ٤٠٤/.

ـ عراك شرس مع زوجة ابنه/٤٣٤ ـ ٤٤٩/.

ـ صفعة على فم ديلشاد/٤٧١ ـ ٤٨٣/.

وصوَّر الكاتب أن غايات السلطان تيمور بيك فقط لغايات جنسية منحطة، وكل إناء بما فيه ينضح، وعلى كلٍّ فقد لاقى قبولاً عند أعدائه من العرب المغرر بهم.

❖ وبينما يصف ابن عربشاه ومؤرِّخو مصر والشام أن سبب وقوع السلطان تيمور بيك بمرض الوفاة أنه نتيجة لتجرع الخمرة كعلاج مضاد للبرد كذباً وافتراءً عليه.

يأتي من الفرنجة (**chiltbrgr**) من يعضِّد موقفهم ويزيد طعناً من جهة ثانية:

وكلّ ذلك الدجل والتعليقات الغربية لم تنسج إلا لترسيخ نفي الصفة الإسلامية عن السلطان العظيم قاهر العالم تيمور بيك، والذي يُصلّى عليه كما يُصلّى على الرسل والأنبياء في بلاده.

❖ وتـراهم يؤكـدون علـى أن فتوحـات السـلطان تيمـور بيـك طـوَّرت التـاريخ الأوروبي بعد أن أصيب الأتراك بالفشل في معركة أنقرة، فتراهم يزرعـون تصـورات وهمية وتحليلات ليس لها في الواقع أدنى حقيقة، فيقولون:

لو لم تكن معركة أنقرة لامتدَّ نفوذ الأتراك في أوروبا إلى مدى بعيد، ولفتح بيازيـد القسطنطينية قبل تاريخ فتحها بخمسين سنة، ولاتَّجه التـاريخ المعاصر والمتوسـط إلى ناحية غير الناحية التي يتجه إليها الآن.

بالرغم من أن ملك القسطنطينية استجاب لشروط بيازيد مـن دفـع الجزيـة وبنـاء محلـة للمسلمين فيها جامع ومسجد وقاضٍ لهم، فبنى لهـم جـامعين وجعـل قضـاةً يأخـذون مكانهم في العديد من محاكمها، واكتفى بيازيـد بالتوجه جهـة الغـرب، وأخـذ بالتوسـع جهة بلاد المسلمين السلاجقة في بلاد الأناضول والمماليك المصريين عكس تحليلاتهم.

وسنرى كيف أنه استولى على المدن التالية:

سيواس[١]، أماسية، توقات[٢]، نيكسار، جانيك وصامسون، وكلـها كانـت بيـد الفاتحين السلجوقيين المسلمين وعمّالهم، وكذلك ملطية وأبلستن وقيصـرية[٣] التابعـة للمماليك المصريين[٤].

فعوداً للحقيقة فالعوْد أحمد من الاستجابة لدعاة التفرقة بين المسلمين شرقاً وغرباً. ونذكر مقتطفاً من كتاب السيد محسن الأمين يعالج فيه قضية هامة وهي مجمل أحوال تيمور بيك عند المؤرخين الذين ناصبوه السباب والشتائم في كتاباتهم.

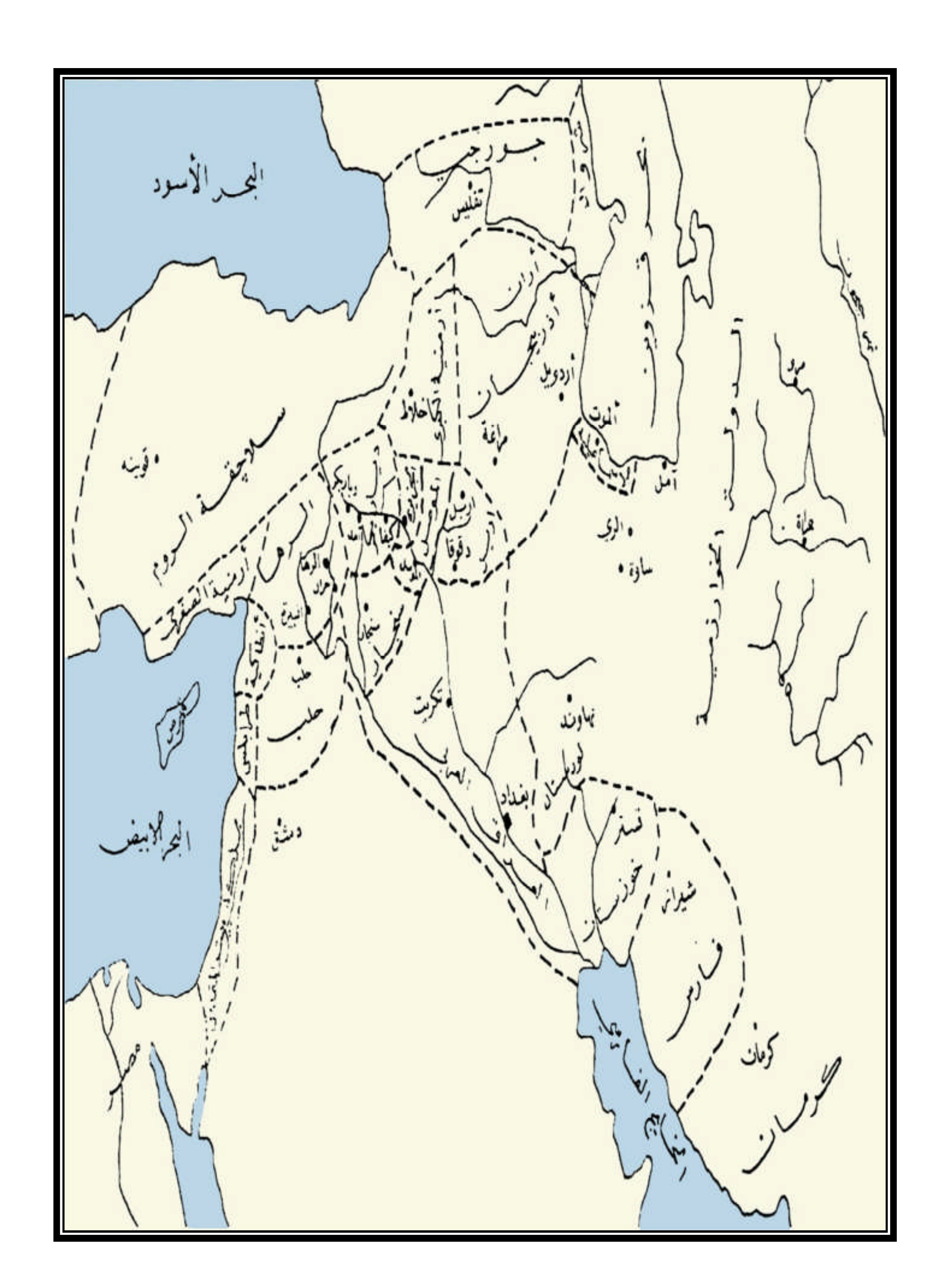
---

(١) **سيواس**: تسمى أيضاً مدينة (سبسطية sipastia) تقع في شمال شرق تركيا قرب مدينة (توقات). وتسمى باليونانية (سيباستيا) أو (سيباستيبول) تقع في وسط الأناضول على نهر (هاليس HALIS) أو (قزيل أرماق) أي النهر الأحمر.

(٢) **توقات**: مدينة تقع في شمال شرق تركيا قرب سيواس.

(٣) **قيصرية**: تقع في تركيا وسط الأناضول.

(٤) انظر مصور (الشرق الإسلامي).



مصور الشرق الإسلامي

مجمل أحوال تيمور بيك

في الشذرات[1]:

كان يسلك الجدَّ مع القريب والبعيد، ولا يحب المزاح ويحب الشطرنج وله فيه يد طولى، وزاد فيه جملاً وبغلاً، وجعل رقعته عشرة في أحد عشر، وكان ماهراً فيه لا يلاعبه فيه إلا الأفراد، وكان يقرِّب العلماء والصلحاء والشجعان والأشراف وينزلهم منازلهم، ولكن من خالف أمره أدنى مخالفة قهره، وكانت هيبته لا تدانى بهذا السبب، وكان من أطاعه في أول وهلة أمِن، ومن خالفه أدنى مخالفة وهن، وكان له فكر صائب ومكايد في الحروب، وفراسة لا تخطئ، وكان عارفاً بالتواريخ لإدمانه على سماعها، لا يخلو مجلسه من قراءة شيء منها لا سفراً ولا حضراً، وكان مغرماً بمن له صناعةٌ ما إذا كان حاذقاً فيها، وكان لا يحسن الكتابة، وكان حاذقاً باللغة الفارسية والتركية والمغولية خاصة، وكان له عيون في جميع البلاد التي ملكها والتي لم يملكها، وكانوا ينهون إليه الحوادث الكائنة على جليتها، ويكاتبونه بجميع ما يروم، فلا يتوجه إلى جهة إلا وهو على بصيرة من أمرها، وبلغ من بصيرته أنه كان إذا قصد جهة جمع أكابر الدولة وتشاوروا إلى أن يقع الرأي على التوجه في الوقت الفلاني إلى الجهة الفلانية، فيكاتب عيون تلك الجهات فيأخذ أهلها حذرهم، ويأنس غيرهم، فإذا ضرب بالنفير وأصبحوا سائرين ذات الشمال عرج بهم ذات اليمين، فلا يصل الخبر الثاني إلاَّ وقد دهم الجهة التي يريد وأهلها غافلون(انتهى).

---

[1] شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن عماد الحنبلي المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ.

تماماً كما كان يصنع الرسول الأعظم ﷺ بخططه الحربية والتي بها لا تسفك الدماء.

وفي البدر الطالع:

أنه دوَّخ الممالك واستولى على غالب البلاد الإسلامية بل والعجم، وجميع ما وراء النهر والشام والعراق والروم وروسيا والهند وما بين هذه الممالك.

قال:

وقد وصف ابن عربشاه من عجائب تيمور بيك وغرائبه ما ينبهر له كل من وقف عليه، ويعرف مقدار هذا الملك العظيم، فإن جنكيز خان ملك التتار لم يباشر ما باشر هذا ولا بعضه، وأما هذا فهو المباشر لكل فتوحاته، المدبِّر لجميع معاركه، ولقد كان من أعاجيب الزمن في حركاته وسكناته، ثم قال: وكانت له همة عظيمة لم يبلغ إلى سموها همة ملك من الملوك من جميع الطوائف، فإنه ما زال يفتح البلاد ويقهر الملوك ويستولي على الأقاليم منذ قيامه في بلاده واستيلائه على مملكة أرضه إلى أن مات، وناهيك أنه مات في الغزو ولم يصدَّه عن ذلك كثرة ما قد صار بيده من الممالك، ولا كفاه ما قد استولى عليه من الأراضي التي كانت قائمة بِعدّة ملوكٍ هم تحت ركابه ومن جملة خدمه.

وكان يجمع العلماء ويأمرهم بالمناظرة في مقامه ويسائلهم، وبالجملة كان من الغرائب البارزة إلى العالم الدالة على القدرة الإلٓهية التي تقدِّر الخير للجميع، وأنه تعالى يسلط من يشاء على من يشاء(انتهى).

ملكَ قسماً من بلاد روسيا الجنوبية الشرقية، ثم فتح خراسان وهراة[١] وطوريس وقارص[٢] وتفليس[٣] وشيراز[٤] وأصبهان وكشغر[٥] ومازندران[٦] والعراق بأسره، ودخل الهند فنازلها حتى غلب عليها، وفتح أفغانستان[٧]، وجلب من الهند إلى بلاده المهندسين والنقاشين، ثم حارب السلطان بيازيد العثماني سنة (٨٠٤هـ) وغلبه، وباستيلائه على إزمير اضطر امبراطور القسطنطينية أن يؤدي إليه الجزية، وكان ملوك أوروبا يخافونه، وكثيراً ما أرسلوا الوفود لتهنئته بانتصاراته[٨].

❁❁❁

---

(١) **هراة**: تُعتبَر هراة أكبر مدينة في غرب أفغانستان. وهي تقع في واد خصب، وتحيط بها قرى عديدة. وبفضل موقعها كانت البوابةَ نحو الهند، وكذا التجارة بين الهند والشرق الأدنى إلى عهد قريب.

(٢) **قارص**: تقع في منطقة الأناضول الشرقية، حيث توجد منطقة القفقاس.

(٣) **تفليس**: كانت «تفليس» التي تقع في مركز جورجيا والتي هي اليوم عاصمة جمهورية جورجيا، أهم مدن هذا الإقليم.

(٤) **شيراز**: من أهم المدن الإيرانية المشهورة بمكانتها التاريخية، تقع مدينة شيراز في سهل مترامي الأطراف في الجنوب الغربي من إيران على ارتفاع ١٤٨٦ متراً فوق سطح البحر وهي قريبة من سلسلة جبال زغروس، وتمر بها قناة ركان آباد.

(٥) **كشغر**: تقع كشغر جنوب غربي شينجيانغ التي تعتبر إحدى المناطق الحدودية المتواجدة غربي الصين. وتحدها جبال تيانشان الغربية شمالاً وهضبة بامير غرباً، وجبال كالاكونلون جنوباً وصحراء تكلمكان شرقاً.

(٦) **مازندران**: محافظة مازندران الخضراء تقع شمال ايران و بجوار بحر قزوين. مدينة ساري هي مركز المحافظة و تبعد عن طهران ٢٥٠ كم.

(٧) **أفغانستان**: تمتد الحدود الدولية لأفغانستان لمسافة ٥٧٦٩كم: ٢٣٨٣ كم مع تركمانستان، وطاجكستان، وأوزبكستان في الشمال؛ و٧١ كم مع الصين في الشرق؛ و٢٤٦٦ كم مع باكستان في الشرق والجنوب؛ و٨٤٩ كم مع إيران في الغرب.

(٨) البدر الطالع.

العثمانيون الأوائل

تضعضعت قوى الإسلام في الشرقين الأدنى والأوسط منذ القرن الخامس الهجري، حتى أصبح الخليفة العباسي في بغداد مسلوب الإرادة والسلطان.

وضعفت الدولة الإسلامية وتفككت أوضاع سلطانها، ثم جاء زحف الجيوش الجنكيزخانية، وعبروا دجلة والفرات ودخلوا بغداد مدمِّرين مخرِّبين محوِّلين عاصمة الإسلام إلى آثار بالية وأطلال.

وفي ظلِّ هذه الظروف المريرة القاسية حيث انهار سلطان المسلمين العسكري والسياسي والاجتماعي، أصبح المسلمون فريسة سهلة الاقتناص بين خطر المغول القادمين من الشرق الأقصى، وخطر البيزنطيين القادمين من الغرب.

ولولا بروز وبعث أقوام سلجوقية وأمم تركية فتية جعلت القرآن كلام الله إمامها وإقامة حدوده برهان صدقها؛ وقفت في وجه الأخطار المحيطة بالمسلمين فتصدت للبيزنطيين وانقضَّت عليهم وهم لا يشعرون إلاَّ بطوفان إسلامي شديد مهاب الجانب مستند للقرآن وحده لا يبقي ولا يذر ولا تستطيع مواجهته أية أمة رومية.

وانقضت فترة من صواعق الانتصارات، فمنذ موقعة **(ملاذ كرد)** [1] في القرن الخامس الهجري ظلت الهجرات التركية للجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الرحمن الرحيم تتوالى على منطقة آسيا الصغرى على الرغم من محاولات صدِّهم.

---

(1) واقعة عظيمة من وقائع المسلمين السلاجقة الذين وقفوا بوجه الزحف الصليبي على الإسلام .. وكانت بقيادة ألب أرسلان السلجوقي .. وكان تعداد الصليبيين يفوق تعداد المسلمين بشكل كبير ومذهل حيث أن جيشهم بلغ (٢٠٠) ألف مقاتل على أقل تقدير، وجيش المسلمين أقل من (١٥) ألف مقاتل، وانتصر المسلمون السلاجقة وهزموا الروم وأسروا إمبراطورهم رومانوس والذي عامله ألب أرسلان معاملة جليلة تدل على الأخلاق الإسلامية العالية.

وبقـي الأتـراك السـلاجقة مـدّة ثلاثـة قـرون في آسـيا الصـغرى يقـاومون الصـليبيين والبيزنطيين ، وينتصرون عليهم دائماً انتصارات ساحقة ، وقـد يتحالف بعضـهم مـع البيزنطيين ضـد بعـض في فـترة الضـعف السـلجوقي الأخـير الممـزوج بـالقوة العثمانيـة الناشئة الضاربة الرهيبة التي ما كانت تبقي ولا تذر للروم قوةً ، والـتي زالـت بظهـور العثمانيين ، حين أقام السلطان عثمان دولـة على أسـاس متين ، عماده حدود الله ، والقــرآن دســتورهم وصــاروا يُعرفــون بــالأتراك العثمــانيين بعــد الســلجوقيين. ممـا أقـضَّ مضـاجع الـروم الـذين استنجدوا بـالمغول الجنكزخانيـة ، واشـتبك معهـم العثمانيون فغلبوهم وأوقعوا بمنجديهم من الجنكز خانيين أيضاً الهزائم الكبرى.

وسار الأمراء المؤمنون الذين جاؤوا من بعد السلطان عثمان على نفس الطريـق ، فأخذ أورخان الغازي في القيام بالفتوحات الإسلامية في مدن بيزنطة ، حتى عظمت الدولة العثمانية بهذه الفتوحات الإنسانية.

كما أنَّهم حوَّلوا النظام القبلي إلى نظام حربي ممتاز يقوم على أسس إدارية وحربية قوية جداً ، ناهيك عمَّا أقاموه من مساجد ومدارس ومكاتب لنشر الدين الإسلامي الصحيح المبني على القرآن وحده. وسيطرت الدولة العثمانية على بلاد الأناضول وبوغاز الدردنيل.

ولما تولى الحكم السلطان **(مراد خان)** واجه الحلف الذي تزعمه البابا أوريان الثاني ضد العثمانيين ، والذي جمع فيه البابا ملوك الصرب والبلغار ، وانتصر السلطان مراد عليهم جميعاً في موقعة (صرب صندعي).

ثم فتح صوفيا وسِلانيك وجميع بلاد البلغار.

وفي سنة /٧٩١هـ/ خرج السلطان مراد لقتال تجمُّع الملوك من أهل اليونان والصرب[1] والأفلاق والبغدان وأهل الماعن والمجر والبلغار، حيث تحزَّبوا جميعاً عليه للقضاء على الإسلام، فقضى عليهم جميعاً، وتمكن من إلحاق الهزيمة بهم، ومن ثم قضى نحبه شهيداً في سبيل الله منتصراً، وتسلم السلطنة من بعده ابنه بيازيد.

وفي تلك الأثناء من تلك السنة كانت جيوش السلطان تيمور بيك تلاحق مغول الجات ومغول الهوردة الكافرة وتقصيهم نحو أراضيهم وتدحرهم في كثير من المعارك، فمنع السلطان تيمور بيك تجمعاتهم، وحطَّم قواهم، ما جعلهم يستنكفون يأساً عن تحالفهم مع الغرب البيزنطيين كما كان لهم بالسابق ضد المسلمين .

عندها وبظهور تيمور بيك وسحقه لقوى الجنكز خانية المغولية سيطر الإسلام الرحيم على العالم، على أكتاف السلاجقة والعثمانيين والتتر المسلمين، وزال ضعف بلاد العرب الذين كانوا مطمع الصليبيين، وعاد الإسلام لسالف قوته لا سيما بالهند.

❁❁❁

(1) **الصرب**: نسبة إلى صربيا التي تقع في جنوب شرق أوروبا في شبه جزيرة البلقان.

السلطان بيازيد

بداية طيبة ونوايا مؤسفة

ما إن تسنم السلطان **يلدرم بيازيد** حتى تابع مسيرة الأوائل بمجاهدة البيزنطيين والصرب الذين كان أبوه يحاربهم معتمداً قوة عساكره التي بناها الآباء المؤمنون الأوائل المخلصون للحق، إلى أن وصلت إلى (ودّين) وتملكوا مدينة أسكوب[1] وفرض الجزية على ملك الصرب.

ومن فتوحاته جزيرة رودس[2] التي استولى عليها اليونانيون بعد أن كانت بيد المسلمين، وكان جلُّ همِّ السلطان بيازيد الشؤون العسكرية حتى لقب بيلدرم (أي الصاعقة) لشجاعته في الحروب.

ولكنه كان شديد الحنق والغضب فيرتكب الأخطاء القاتلة ، فعلى الرغم من أن والده السلطان مراد الأول قد زوج ابنته من علاء الدين حاكم الإمارة القرمانية فإن بيازيد قتل زوج شقيقته علاء الدين عام/٧٩٣هـ/ ، وألقى بولديه علي ومحمد في السجن، وظل الأخوان القرمانيان في الاعتقال مدة اثنتي عشرة سنة إلى أن أطلق السلطان تيمور بيك سراحهما.

ويذكر ابن عربشاه حادثة وقعت مع السلطان بيازيد من أنه حكم على أحد جنده بالإعدام بَقْراً بالسيف جزاء شربه لبناً أثناء عطشه من عند بخيلة لئيمة اشتكت عليه.

ولا يُستبعد عنه تلك السيَر بالقساوة، إذ كان أول أمره حين تسنّم المنصب أن خنق أخاه يعقوب جلبي، وكان أول سلطان من السلاطين العثمانيين يقتل أخاه .

---

(١) **أسكوب**: مدينة أسكوب (أسكوبيه) عاصمة مقدونيا اليوم.

(٢) **جزيرة رودس**: هي جزيرة تقع في اليونان.

لقد كان بيازيد متسرعاً وباسلاً قديراً، لكنه كان فظاً قاسياً، فخوراً بانتصاراته يتبجَّح بها عكس السلطان تيمور بيك الذي ما كان يرى لنفسه فعلاً وأن الفعَّال الناصر هو الله وحده.

أثارت انتصارات العثمانيين المتلاحقة خوف أوروبا الغربية فقام البابا **بونيفا سيوس** التاسع يدعو للحرب ضدّ المسلمين في أنحاء أوروبا، وراح يحشد قواه ويُعبئ جيوشه، وبدلاً من أن يستعد السلطان بيازيد للقاء تلك الحملة الحاسمة راح يبغي مجده ليأخذ لقب سلطان المسلمين، فتوجه تلقاء البلاد الإسلامية ليضمها إلى أملاكه وتصبح تحت نفوذه، وهنا يكمن الضعف والفشل.

وكادت أن تقع الطامة الكبرى، فالعلاقة مع دولة إسلامية كدولة المماليك الثانية التي يتزعمها السلطان برقوق ترتبط بلا ريب بالمنافسة على تزعم العالم الإسلامي وتلك هي الطامة الكبرى، حيث كانت تقع الحروب الداخلية في أمة الإسلام المتهلهلة الأركان بدل ديمومة الجهاد المقدس في سبيل إعلاء كلمة الله بهداية الخلق ونشر الحق..

❁❁❁

حمداً لله :

الذي جاء بسلطان المسلمين
تيمور بيك بدل الصليبيين المهزومين

كانت تحركات السلطان تيمور بيك في آسيا قد جعلت هذه العلاقات بين السلطان بيازيد والمماليك وديَّة ما دامت حدودهما متباعدة.

وتبادل سلطان كلٍّ من الدولتين الهدايا مع صاحبه، وزادت في أواصر علاقتهما، إذ خافت كل من الدولتين من اقتراب حدود الدولة التيمورية منها، لِما رأوا في سلطانها تيمور بيك منافساً قوياً لتزعم العالم الإسلامي الذي يسعيان له.

﴿ **تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾[1]، كالذين شاهدوا ليلة القدر في آخر رمضان، أي كتيمور بيك التقي النقي الذي أراد الإصلاح[2].

وكانت الدولة العثمانية هي البادئة بالسعي لتأكيد هذه الصداقة أو إيجاد نوع من التحالف مع دولة المماليك الثانية لسببين:

لطمع السلطان بيازيد بالسيطرة على آسيا، وليأمن مؤخرته من زحف الجيش التيموري، وهذه بنظره الخاطئ أهمهما، فبدأ بنظرة عدوانية، وبدأ بتحويل بأسه على المسلمين بدل المعتدين.

---

(١) سورة القصص: الآية(٨٣).

(٢) الرجاء انظر "**قصته مع ليلة القدر**" ـ صفحة/٦٧/ المجلد الأول ـ كتاب (**حقيقة تيمورلنك العظيم تظهر في القرن الواحد والعشرين**) ـ بحث (**من مذكرات تيمور: ليلة القدر**).

وبدا ذلك جليّاً حين أرسل السلطان العثماني رسله إلى السلطان برقوق الذي أكرمهم، وبعد أن قدموا هدية سلطانهم عرضوا كتابه الذي تحدث فيه عن تحركات السلطان تيمور بيك من تبريز نحو حدود الدولتين، وأنه يلزم اتخاذ كافة الاحتياطات لرده.

غير أن السلطان برقوق لم يرتبط بتحالف مع السلطان العثماني، وإنما أظهر استعداده لقبول كل معاونة يعرضها السلطان العثماني على تخوف من أطماع السلطان بيازيد على بلاده وسياسته، حيث كان جلُّ همّ السلطان برقوق الاستبداد بالحكم وتصفية المنافسين له من المسلمين حول نوال لقب سلطان المسلمين. هذا وقد قال ﷺ: ‹.. **ولكن أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم**›[1]. فحب الدنيا أصل كل خطيئة.

يقول الحافظ بن حجر: وسمعت من مولانا ابن خلدون قوله: إنما نخاف أن تُتَملَّك مصر من ابن عثمان، وكذا كان يُظهر الظاهر برقوق تخوُّفه على ملْكه في مصر من ابن عثمان.

وما أن انشغل السلطان تيمور بيك بقتاله لسلطان الهوردة الذهبية توكتاميش الصابئ، وراح يجوب الصحاري الجليدية وراءه في أعظم مطاردة خطّها التاريخ، وانتشرت الشائعات الكاذبة حول انكسار الجيش التيموري حتى بادر السلطان بيازيد بالإغارة على قيصرية سنة /٧٩٣هـ ــ ١٣٩١م/ وقبض على صاحبها وهي وقتذاك في حماية السلطان برقوق.

---

(١) سنن الترمذي رقم/٢٥٨٠/.

وما أن عاد السلطان تيمور بيك بجحافله منتصراً سنة/٧٩٦هـ ـ ١٣٩٤م/ حتى سارع بيازيد ببعث اعتذاره إلى برقوق وهو في سوريا، كما أرسل مفاتيح المدينة وهدايا قيِّمة.

ولم يتأخر السلطان برقوق عن قبول الاعتذار، فأرسل الرسل إلى بيازيد ليعقد الصلح بينه وبين صاحب قيصرية. وتتالت المراسلات بينهما للتعاضد ضد الخطر التيموري الإسلامي على دنياهم الدنية.

والحقيقة أن السلطان تيمور بيك بتحركه هذا لمَّ شمل البلاد الإسلامية بعد أن تمزقت في وقت كان فيه الصليبيون والبيزنطيون يتحينون الفرصة للانقضاض على الإسلام وأهله.

ومما يشير إلى طلب بيازيد لمجده بعثه في أواخر سنة/٧٩٦هـ/ إلى الخليفة العباسي بالقاهرة بكتاب طلب فيه منحه تفويضاً شرعيّاً بالسلطنة. ومن ثم بعث سنة/٧٩٧هـ/ بطلب إلى الخليفة أن يخلع عليه لقب سلطان الروم، وأيده السلطان برقوق لطلبه خوفاً على لقب سلطان المسلمين فأجيب إليه.

وفي تلك الأثناء تفرغ السلطان بيازيد لمجاهدة الأوروبيين حيث أخضع بلاد البلغار لسلطانه، وكان حينئذ على أتمّ الاستعداد لمواجهة الحملة الصليبية التي نادى إليها البابا بونيفا سيوس للحرب ضدّ المسلمين في أنحاء أوروبا، ولما ظهرت الحملة الصليبية وقد تمكن ملك المجر من أن يجمع في بودا سنة/٧٩٩هـ ـ ١٣٩٦م/ جيشاً كبيراً من الفرسان جاؤوا إليه من بلدان أوروبا ألحق العثمانيون بهم هزيمة ساحقة بقيادة بيازيد في موقعة "**نيقوبوليس**". ثم اتجه بعد ذلك وأخضع جزيرة الموره، وانتقم ممن حالفوا البيزنطيين.. فانهارت كل حرب صليبية.

وما أن طاب الهواء للسلطان بيازيد بانسحاب الجيش التيموري إلى الهند، وخلت الساحة ممن يخاف من قوته، حتى انتهز فرصة انقسام الأمراء في مصر عقب وفاة السلطان برقوق وأغار سنة/٨٠١هـ/ على الحدود السورية، واستولى على ملطية ودارنده، مظهراً بهذا الإجراء على ما في نفسه من رغبة في تزعم العالم الإسلامي. والاتجاه إلى حرمان سلاطين دولة المماليك الجراكسة من هذه الزعامة. كما دل على مدى استهتاره بالعلاقات السياسية بين البلدين الإسلاميين في تلك الظروف العصيبة.

ولما تقدم الفاتح العظيم السلطان تيمور بيك نحو الغرب تجاه بلاد الشام ومصر وبلاد الأناضول لم يجد مقاومة أبداً، إذ كان لاعتداءات بيازيد على دولة المماليك الجراكسة أثر كبير في نفوس أمرائها، حيث قاموا برفض أي تحالف معه ضد جيش السلطان تيمور بيك الذي أشيع عندهم كذباً وزوراً أنه من الكفرة لتنفير الناس منه، رغم ضعفهم وتشتت كلمتهم واقتتالهم على منصب من سيكون خادم السلطان فرج بن برقوق بمصر البالغ من العمر حوالي اثنتي عشرة سنة.



ولكنهم جهلوا حقيقة الفاتح العظيم

كانت تحركات السلطان تيمور كالسوط في وجه أطماع السلطان بيازيد، فما أن يتحرك ليتوسع في البلاد الإسلامية طلباً للزعامة حتى يوافيه السلطان تيمور بيك بتحرك عن بعد يردعه ويعيده عن بغيه وغيِّه، بل ويلجئه لطلب الصلح ممن كان قد اعتدى عليهم رغم ضعفهم وتشتتهم، كما ويلجئه لتقوية جيشه الذي لاقى فيه الغزو الصليبي وردعه، حتى غدت القسطنطينية عاصمة العالم الغربي فريسة سهلة وغنيمة للعثمانيين الفاتحين.

ولكن لبالغ الأسى فقد استشرى حب السلطنة والسيادة في قلب السلطان بيازيد، حتى رفض التعاون مع الفاتحين المؤمنين وجيش السلطان تيمور بيك لنشر الدين القويم، فاستعلى عليهم وغيَّر وجهته القتالية ضدّ المعتدين إلى قتال المسلمين وقتال السلطان تيمور بيك، فأحلَّ دماءهم حسداً واستعلاءً بدل نصرة الحق والدين وأهله، كما طلب منه ذلك السلطان تيمور بيك برسالته كي يكون كلاهما شريكين في الجهاد في سبيل الله ضدّ العدوان وأهله، فأبى المساواة وقال:

(أنا خير منه، أنا سيد العالم)، وأرغى وأزبد وشتم، وأعلن الحرب على المؤمن كما أعلنها على الكفرة سواء. فعل كما فعل السلطان سليمان (الفاخر)[1] كما سماه الإفرنج، إذ كان يقاتل الصليبيين فيصعقهم صعقاً بانتصاراته عليهم،

(1) **سليمان (الفاخر)**: يسمى القانوني عند المسلمين، ويسمى الفاخر عند الأوروبيين. القانوني: نسبة إلى القانون. وسمي القانوني؛ لأنه سن قوانين وطبقها. حكم لمدة /٤٨/ سنة، تولى السلطان سليمان القانوني بعد موت والده السلطان سليم الأول في (٩ من شوال سنة ٩٢٦ هـ - ١٥٢٠م)، وتوفي السلطان في (٢٠ من صفر ٩٧٤ هـ - ١٥٦٦م).

ويقاتل المسلمين من غير مذهبِهِ ويدمرهم تدميراً، وهذا ما يثلج قلوب الصليبيين، كما أخذ يبدل بعض أحكام القرآن الكريم بالقوانين الإفرنجية، ولم يكن هناك وقتها تيمور بيك ثاني يأخذ على يده، فبدأت الدولة العثمانية بالانهيار، وتتالت الهزائم حتى غدت الدولة العثمانية العظيمة دولة ضعيفة بسبب أخطائه، حتى سمِّيَت الرجل المريض، وبدأ الإفرنج بسلب أملاكها، وينقصونها من أطرافها، حتى غدت أمةً ضحكت من جهلها الأمم، إذ استُعمرت الدول التابعة لها، وضلَّت وضعفت تلك الدولة العظيمة فغدت من أفقر الدول، وتابعةً ضئيلة لدول الغرب، فلا شأن لها ولا قيمة بين الدول العظمى.

من هنا ندرك فضل تيمور بيك العظيم على دول الإسلام والمسلمين، الذي تصدى للسلطان بيازيد حين بدأ بسلوكٍ مماثل تماماً لسلوك السلطان سليمان الفاخر فيما بعد، فأخذ على يده قبل أن يدمِّر دولة العثمانيين الضاربة، فأصلحها وأعادها إلى الصراط المستقيم، حتى فتحت القسطنطينية عاصمة الروم، ورفلت في وشاح القوة والمجد حتى مجيء السلطان سليمان الفاخر الذي لم يجد من يردَّه للصواب، فهلك وأهلك وأضلَّ وما هدى، فقاتل المسلمين وغير المسلمين على السواء.

كما أراد بيازيد لولا رحمة الله به أن وجد تيمور بيك، فردعه وثبت دولته العثمانية الإسلامية فوق دول الأرض.

إذن: وما أن شعر الفاتح العظيم السلطان تيمور بيك بأن شريك الإصلاح يحتاج إلى إصلاح، وأن اعتداءاته لم تعد تسمح إلا بتأديبه وتأديب من يناصره بالباطل، نهض إليهم، وبتدبيراته العظيمة صدمهم صدمة أعادهم بها إلى صوابهم، وبذلك شذَّب طباعهم، وهذَّب أخلاقهم، وأعادهم بعد أن جنحوا، إلى جادة الجهاد في

سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، وبذلك كلِّه هيأ الأجواء الإسلامية كلَّها بعد أن قضى على كل ضعف وفساد فيها، وحافظ على قواها الدينية والخلقية والإنسانية.

فبهزيمة السلطان تيمور بيك لكل من السلطانين المملوكي والعثماني أضاع هيبة كل منهما في نظر الآخر، وبتلك الهزيمة التي منيت بها تلك الدولتان حال بين الاصطدام بينهما حوالي قرن من الزمن. غير أن بقاء السلطان تيمور بيك وأحفاده من بعده والسلاطين الموالين لهم جعلت السلاطين العثمانيين يعقدون الصلح والاتفاقيات مع أمراء السلطنة المملوكية الجركسية. وعندما شعر السلطان العثماني بقوته زحف على دولة المماليك الثانية وأزالها سنة/١٥١٧م/ بعد فتح مصر، وكان زوالها في ذلك الحين بعد السلطان تيمور بيك بقرن تقريباً خير من بقائها، وانتقل لقب الخلافة الإسلامية إلى الدولة العثمانية، وامتدَّ توسعها ليشمل باقي العالم العربي الإسلامي.

فأكْبر بالسلطان تيمور بيك من مصلح كبير ومناصر للإسلام، فسموٌّ الإسلام على العالم لأربعة قرون بعده جاء نتيجة لجهوده.

نعم هيأ هذه الأجواء فنفضت أمراضها وعادت ترفل في صحتها الخلقية والدينية لأربعمائة سنة جديدة بعد انتصارات السلجوقيين لثلاثة قرون قبلها، ولواء الإسلام ثابر على الانتصار على دول العالم كافة بعد الاضمحلال، والعصر الذهبي لإسلام بلاد القوقاز شاهد صدق على ذلك، إذ لولا هذه الإصلاحات الداخلية التي أجراها السلطان تيمور بيك بيد من حديد حيث نظَّف البلاد من كبار المخربين والأوغاد لحلَّت ببلاد المسلمين المهالك والآفات .

وبذلك قُضيَ على الحروب الصليبية المتعدية قضاءً مبرماً لقرون، ودارت الدائرة عليهم، بل غزا المسلمون العثمانيون ديار كل من اعتدى عليهم، فجاء تأسيس الإسلام وتهيئة الأجواء له في تلك القرون نتيجةً لنواياه الخيرة العلية، فهو حقاً لم يدمِّر السلطان بيازيد وقواه التركية الضاربة، بل أصلحها من الجذور وقوَّمها، فغدت بعد إصلاحه لها الدولة العالمية والمهيمنة على كافة ممالك الأرض وملوكها لقرون وضاءة في جبين الإسلام والمسلمين، وكانت كلمة الله خلالها هي العليا، فما كان اجتياح السلطان تيمور الملك الإسلامي المنصور للبلاد الإسلامية إلا بالإصلاحات الحقيقية وطعن أعداء الدين، ولو لبسوا العمائم وأطلقوا اللحى وتستروا بزي الدين والخلافة الإسلامية، وهم يبغون هدم الدين، فشتت شملهم وبطش بباطلهم، فأعاد للإسلام كرامته وهيبته وسلطانه، وبذلك أذلَّ رقاب الطغاة من عملاء الأكاسرة المندسين بين صفوف المسلمين، والقياصرة خلف بحر الروم وحوله، ولم يؤدِّب أحداً إلا بما بدر منه من ذنب، أفراداً كانوا أم أمماً إسلامية أو صابئة.



البداية مع ابن عثمان

قام السلطان بيازيد بتملك بلاد كثيرة كانت للسلطان السلجوقي المسلم وقرابته، والذي كان تابعاً للأمير الكبير السلطان تيمور بيك، وقد كاتب السلطان تيمور بيك بتوجه السلطان بيازيد تلقاء بلاده، وكانت تلك البلاد لبني قلج أرسلان من ملوك السلجوقية، وهم الذين افتتحوها وأقاموا فيها دعوة الإسلام، وانتزعوها من يد ملوك الروم أهل القسطنطينية، وأضافوا إليها كثيراً من أعمال الأرمن ومن ديار بكر فاتسعت أعمالهم وعظمت ممالكهم، وكانت عاصمتهم **قونية**[1]، ومن أعمالها: أقصرا وأنطاكية والعلايا وطغرل ودمرلو وقرًّا حصار. ومن ممالكهم أذربيجان، ومن أعمالها: آق شهر وكامخ وقلعة كفونية، ومن ممالكهم قيسارية، ومن أعمالها: نكرا وفليه ومنال، ومن أعمالهم أيضاً سيواس[2] وأعمالها: كنيكسار[3] وأماسية وتوقات وكنكرة كورية وسامول وصفوي وطرخو وبرلو. ومما استضافوه من بلاد الأرمن: أخلاط وأرمينيةالكبرى[4] ووان[5] وسلطان وأرجيس[6].

---

(١) **قونية**: من مدن تركيا. تقع وسط جنوب الأناضول. بلغت ذروة مجدها عندما كانت عاصمة السلاجقة قبل الغزو المغولي. تعتبر اليوم معقل الإسلاميين في تركيا، وتبعد المدينة العريقة عن العاصمة التركية (أنقرة) /٢٥٥/ كم.

(٢) **سيواس**: مدينة صغيرة من مدن تركيا تبعد عن استانبول /٩٠٠/كم وتقع في الجهة الجنوبية الشرقية منها، لها تاريخ عريق وفيها عدة آثار من عصر السلاجقة.

(٣) **نيكسار**: شمال شرق تركيا.

(٤) **أرمينيا**: بلاد واسعة تقع جنوب غرب قارة آسيا، كانت بين الخزر شرقاً ووادي الفرات غرباً، أصبحت اليوم يحدها شرقاً أذربيجان، وشمالاً جورجيا، ومن الغرب تركيا، وجنوباً كل من إيران وإقليم ناخيتشيفان.

(٥) **بحيرة وان**: فان بالتركية/van/ تقع شرقي الأناضول وهي أكبر بحيرة في تركيا مساحتها ٣٧٦٥كم٢ وهي شديدة الملوحة.

(٦) **أرجيس**: مدينة في أرمينية قرب خلاط وهي أرضروم.

وأعمالها من ديار بكر[١] : خربوط[٢] وملطية وسميساط[٣] ومسارة. تلك فتوحات إنسانية حقّاً في سبيل الله لإسعاد العباد وأمان البلاد بحكم عادل إنساني.

فكانت لهم هذه الأعمال وما يتصل بها من الشمال إلى مدينة بروسة ثم إلى خليج القسطنطينية، واستفحل ملكهم وعظمت دولتهم، وكان ملوك مصر ينازعونهم في بعضها، ثم طرق دولة السلاجقة الهرم والفشل كما يطرق الدول كافةً، وعمَّت فيها الفوضى والاضطراب، حتى انعكس الأمر وعادت النزعات العشائرية فيها إثر ضعف الدين والإيمان في قلوبهم، عاد بعضهم للسلب والنهب حتى وصل الأمر ببعضهم إلى الاعتداء على قوافل الحجاج التي تعبر بلادهم، ولما نجح السلطان تيمور بيك في إرجاع مغول الجماعة الذهبية على أعقابهم، تحرك فدخل أرمينيا وتوغل في قسمها الشرقي لاجتثاث اللصوصية وقطّاع الطرق في تلك الربوع ولإقامة قواعد الأمن، فخضعت له ملوك البلاد، وقضى على أعمال الشقاوة وقَطْع الطرقات، واستقروا على طاعته والإذعان لأمره بإقامة حدود الله ، وما أن عاد السلطان تيمور بيك نحو سمرقند بعد أن استتب الأمن والأمان في تلك الربوع المضطربة حتى توجه بيازيد السلطان العثماني بقوته فاستولى على كثير من تلك الممالك، وكان من جملة اعتداءاته على حاكم أرزنجان طهارتن تابع السلطان تيمور بيك، وعلى تابعه الآخر عثمان قرايولك حاكم آمد بغية الإستعلاء والتوسع الدنيوي لا الإصلاح.

---

(١) **ديار بكر**: بلاد كبيرة واسعة تنسب إلى بكر بن وائل ذات مدن عديدة من الشام والعراق ومركزها الموصل.

(٢) **خربوط**: هي مدينة خربوت تقع في جنوب شرق تركيا (الحالية) وتسمى اليوم الأزيغ والاسم الشائع لهذه المدينة هو خربوط، وهو على الأغلب اسم أرمني قديم.

(٣) **سميساط**: مدينة قديمة من مدن الأناضول تقع غربي نهر الفرات جنوبي ملطية وشرقي مرعش وكانت تسمى في العهد البيزنطي (ساموسطا SAMOSTA) عندها ينعطف نهر الفرات إلى الغرب. كانت من الثغور الجزرية ومنها تخرج الجيوش الإسلامية إلى بلاد الروم.

واستطاع أثناء غياب السلطان تيمور بيك في الهند أن يدفع بحدود الدولة العثمانية حتى المجرى الأعلى لنهر الفرات، ونتج عن ذلك اشتراك بالحدود على مسافات واسعة بين الدولتين، وكلٌّ الأدلة تُظهر أن بيازيد كان ينوي ألاَّ يتوقف عند هذا الحد بل سيتابع توغُّله في أذربيجان، وبذلك تحوَّل عن الجهاد ضد البيزنطيين إلى التوسع بالملك ومقاتلة المسلمين في سبيل الدنيا الدنية.

فأرسل السلطان تيمور بيك إلى بيازيد:

« إنك رجل مجاهد في سبيل الله وليس غرضي قتالك ولكني أريد منك أن تقنع بالبلاد التي كانت مع أبيك وجدك وتتخلى عن مدن سيواس، ملطية، أبلستن وكماخ».

وهي المدن التي ضمها بيازيد إلى أملاكه في الآونة الأخيرة وتقع جميعها في شرق الأناضول لحكام مسلمين.

ولكن السلطان بيازيد لما وقف على كتاب السلطان تيمور بيك قال لرسله:

(أيخوفني بهذه التُّرهات ويستفزُّني بهذه الخزعْبلات أوَ يحسب أني مثل ملوك الأعاجم والدشت الأغنام، أو ما يعلم أن أخباره عندي وأن أول أمره حرامي سفاك الدماء نقّاض العهود).. إلى غير ذلك من أمثال هذا الكلام الفارغ والتعجرف والكبر.

وكتب الجواب على هذا المنوال الكاذب الخاطئ، وألجأ قطاع الطرق وبغاة الفساد في ربوع البلاد الإسلامية إليه كقرا يوسف التركماني وأحمد بن أويس، اللذين فرَّا من السلطان تيمور بيك، ودأب على التجبر والتكبر ولا زال السلطان تيمور بيك يوالي نداءاته إليه للحلول الإسلامية السلمية وهو يرفض حتى ألجأه إلى التهديد.

ففي بعض خطاباته لبيازيد:

« لا أريد داراً للسلام مثل بلاد الروم يضطرب أمرها من غزوي وتعرضي لها ، فأعطِ مفتاح قلعة كماخ لخدامنا ولا تضيق على نفسك العالم الفسيح لأن قرا يوسف ذلك الشرير قاطع الطرق قد ضيَّق السبل والطريق على حجاج بيت اللّه وأصبحت الطرق كلُّها غير مأمونة من أفعاله، وحيث أنه لاجئ لبابك فعليك أن تجازيه بسيف العدالة بمجرد وصول هذا إليك ».

فما زادته تلك النداءات إلاَّ صلَفاً وغروراً وتغطرساً ، وزيادة في قلة أدبه وفحش كلامه ، إذ ظن بالفاتح العظيم السلطان تيمور بيك أنه يريد مهادنته ومخادعته ليسلبه ملكه ، كما أملى عليه جلاَّسُه من قطاع الطرق بلا ريب.

وكما ذكرنا :

كانت أول ضربة قاصمة كالها السلطان تيمور بيك كتأديب للعثمانيين استرداد سيواس بأيام قليلة ، ومن ثم استرجاع أبلستن وملطية.

وحاول السلطان بيازيد نجدة المدن بقوات جديدة ، ولكن فرقة من القوات التيمورية تصدت لهذه النجدة وردَّتها على أعقابها ، وانطلق بيازيد بجيوشه مسرعاً إلى البرِّ الآسيوي للتصدي لقوات السلطان تيمور الإسلامية ، ولكنه لم يعثر لها على أثر.

وهذا ما سنلاحظهُ من حركات السلطان تيمور بيك من أنه لم يهدف من كل فتوحاته أن يحتفظ بما فتحه بل قصد أولاً تأديب المعتدين ، ولمَّ كيان المسلمين بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، ليصنع منهم قوة عالمية بعد أن هدَّ النفوس الظالمة الغاشمة هدّاً فجعلها قاعاً صفصفاً لا تجد فيها عوجاً ولا ظلماً. ولما كانت العلاقات متوترة بين المماليك والعثمانين بسبب إقدام السلطان العثماني على ضم مدينة ملطية التي كانت تابعة لولاية حلب المملوكية إلى سلطنته استحسن السلطان تيمور بيك الفرصة

لتأديب المماليك، فليس بمستطاع السلطان بيازيد القيام بعمل أحمق في تلك الأثناء ولذلك يمم وجهه شطر بلاد الشام.

ملاحظة: إن بيازيد أحد السلاطين العثمانيين المجاهدين العظماء الذين هدُّوا الكفر هدّاً لكنه ليس بمؤمن حقاً كآبائه العثمانيين العظماء. لذلك مال إلى حبِّ الدنيا والاستكبار بالأرض، فلم يقاتل الروم البيزنطيين فقط ولكنه للأسى عمد إلى مقاتلة المسلمين بالتنازع على الأرض والاستعلاء بها، وقد غيَّر سيرة آبائه العظماء فأدَّبه السلطان تيمور بيك.

وعلى كلٍّ:

وقبل أن تنتهي المسألة بين السلطان تيمور بيك والسلطان بيازيد جاءه النذير يخبره بأحوال المسلمين المتردية واقتتال أمرائهم في الهند، وقيام ثورات الهنادكة عليهم، وأن الإسلام يكاد يحتضر في تلك الربوع، فترك جبهة العثمانيين وكان المسلمون فيها في عزة ومنعة إلا أن سلطانهم يحتاج إلى تأديب ليس أكثر، لذا توجه قاصداً الهند ليخمد ثورات الهنادكة، ويزرع الإستقرار بين صفوف المسلمين.

معاً في هذه الجولة نرى أنه :

الهند المسلمة يلاحقها خطر الاضمحلال أو الزوال

تمهيد:

حلَّت عائلة آل تغلق محل دولة الخلجيين[1] الأفغان الأصل، واستولت على الحكم في دلهي عام/٨٠٠هـ/.

وقد استطاع الأوائل من سلاطين هذه الأسرة أن يفرضوا سلطتهم على معظم بلاد الهند[2]، وقد عملت هذه الأسرة ذات الأصل التركي الجغطائي على نشر الإسلام بين الهنود، ومحاربة البراهمة[3] مما أدى إلى كثير من الثورات ضدها.

ومن ثم دب الانحطاط السريع بالهند في عهد المتأخرين من حكام هذه الأسرة، ومال أغلب حكام المقاطعات إلى الانفصال عن العاصمة المركزية (دلهي).

كان السلطان (فيروز شاه) آل تغلق الذي يصفه المقريزي في كتابه السلوك بأنه من عظماء ملوك الإسلام عند وصوله إلى الحكم عام/٧٥٢هـ ـ ١٣٥١ م / قد حاول

---

(١) **الخلجيين**: حلت سلالة الخلجيين (من أصول هندية) محل المماليك سنة ١٢٩٠م. حكمت هذه السلالة سنوات ١٢٩٠ـ١٣٢٠ م. قام علاء الدين الخلجي (١٢٩٦ـ١٣١٦ م) بطرد المغول من البلاد و استولى على دَكَان (الدكن، وسط الهند).

(٢) نجح السلطان فيروز (١٣٥١ـ١٣٨٨ م) في أن يوطد دعائم الدولة في شمال الهند. بعد وفاته انفصلت عن دلهي عدة سلطنات (البنغال، الدكن، كجرات، جاونبور وملوة).

(٣) **البراهمة**: هم فئة من الهنود ينكرون النبوات أصلاً، وجعلوا للعقل المكان الأول الذي من خلاله يعرف الله ويعبد لا عن طريق رسول وقد افترقوا طرقاً شتى، كما أن لهم كتب مقدسة ((الفيدا)) ((اليورانا)). الديانة مختلطة بالتثليث: براهما : الإلّه الخالق، فيشنو: و هو الإلّه الحافظ، سيفا : وهو الإلّه الملاشي أو المدمر، من معتقداتهم تقديس البقر، تحريم ذبحها، وتقديس وتبجيل نهر الغانج، وتحريق الموتى، وتحريق الزوجة نفسها مع زوجها الميت.

إصلاح الهند، ولكنه اصطدم بمؤامرات من أمراء البيت المالك التغلقي وثورات الهنادكة، واضطر فيروز شاه أن يترك الحكم لوزرائه في آخر أيامه بسبب المرض.

اشتد النزاع بين هؤلاء الوزراء المتنافسين، وشهدت شوارع دلهي اشتباكات دامية بين أنصار الأطراف من المسلمين. ولما توفي فيروز شاه/٧٩٠هـ - ١٣٨٨م/ كان ذلك إيذاناً بازدياد الحالة سوءاً وفوضى.

تتالى بعد ذلك على عرش الهند عدد من السلاطين الضعفاء. فتضعضعت الدولة، ونحا معظم حكام الولايات إلى الاستقلال. كما كثرت ثورات الهنادكة، وهم السكان غير المسلمين، حيث اغتنموا تلك النزاعات فرصة لقيامهم ضد المسلمين، وقد تفاقم أمرهم، وأصبحوا مصدر تهديد حقيقي للمسلمين وللقضاء عليهم، هذا ولا يزال دأب وزراء الحكومة المركزية في دلهي القضاء على الخصوم والتنازع للتنافس على الدنيا حتى غدا أمر الناس في ضعف واختلاف وصراع مريع.

ولما بلغ السلطان تيمور موت فيروز شاه ملك الهند من غير ولد يعقبه، وأصبح خطر انهيار الإسلام والمسلمين واضحاً ودمارهم مؤكّداً[1]، وقد استصرخ أمراء منهم تيمور بيك لإنقاذهم من هذا التنافس المهلك المقوّض لدعائم الإسلام في تلك الربوع الوثنية، لذا أمر بير محمد بن جهانكير الذي كان يتولى في تلك الفترة من قَبِلَ جده السلطان تيمور بيك حكم مدن قندوز وباكلان وكابول وغزنين الواقعة في أقصى الشرق من خراسان على مقربة من حدود الهند بالتوجه إليها.

كانت الحالة آنذاك بين حكام الهند على أشدها من الفوضى والاضطرابات والمعارك الدموية، فعبر جبال سليمان على رأس ثلاثين ألفاً من قواته لحصار أكبر

---

(١) كما ذكر ابن خلدون.

المدن الهندية مُلتان[1] في حوض نهر السند. ولما تمكن من افتتاحها أرسل إلى جدِّه السلطان تيمور يصف حالة البلاد واضطراب الأوضاع، فسار السلطان تيمور من سمرقند/ ٨٠٠هـ/ إلى مُلتان حيث اجتمع بقوَّات حفيده بير محمّد.

ومن الجدير ذكره أنه لما أراد السلطان تيمور أن يسير بنفسه لافتتاح الهند جُوبه بمعارضة بالرأي من قادته لصعوبة البلاد ووعورتها، وضخامة أنهارها ومناخها الحار الذي يدعو إلى الخمول، وكذلك كثرة سكانها، ولكن السلطان تيمور أصر ولجأ لتهديد بعض قادته اعتماداً على قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴾[2]،

ومضى على رأس الحملة، مجتازاً ممرَّ خيبر[3] المرعب الرهيب بتسعين ألفاً من جنوده شاقّاً طريقه الصعب إلى دلهي.

❁❁❁

---

[1] **ملتان**: هي مدينة باكستانية تقع في الجزء الجنوبي من محافظة البنجاب، وهي سادس أكبر مدن باكستان. تقع المدينة شرق نهر تشناب وتبعد عن كراتشي بحوالي ٩٦٦ كم. مساحة المدينة ٣٧٢١ كم^2.

[2] سورة الأنفال: الآية(١٥).

[3] **ممر خيبر**: يقع على الحدود بين باكستان وأفغانستان، في مدينة " بيشاور ".

إنقاذ مسلمي الهند من الثائرين

رغم حماقتهم

بعد أن زحف السلطان الكبير تيمور بيك بجحافله مسيراً قسرياً بسرعات عجيبة ليتدارك أمر مسلمي الهند المتنازعين على السلطة والحكم بعد وفاة ملكهم فيروز شاه حيث قامت عليهم ثورات الهنادكة والبراهمة أعداء الحق، مغتنمةً فرصة تناحرهم وتمزُّق كلمتهم.

اتخذ السلطان العظيم تيمور بيك من قرية كهيتال القريبة من دلهي قاعدة له سنة/١٣٩٨م/ بعد أن أمضى قرابة شهر في فتح المناطق المحيطة بالعاصمة دلهي، والقضاء على الثوار أعداء الإنسانية من الهنادكة والبراهمة، الذين تجمعوا بأعدادهم الكبيرة.

ومن ثم عبر نهر جُمنه، وهو أحد روافد نهر الغانج[١] الذي تقع دلهي على ضفته، واستولى على حصن لوني شمال شرق دلهي، ونقل قيادته إليه، وبذلك أحاطت قواته بدلهي من الغرب والشمال، ومن ثم قام السلطان تيمور بيك بنفسه بحركة استطلاعية للكشف عن مكامن الثوار العنيدين المستميتين، وكان معه آنذاك سبعمائة فارس. ومنها يقوم بدراسة ميدانية يُحدد فيها المكان المناسب لتحقيق الخطة المدروسة، التي يقصد بها إخافتهم كي لا تسفك الدماء ضد المسلمين المتنازعين خلف الأسوار.

---

(١) **نهر الغانج**: من أهم أنهار الهند يبلغ طوله حوالي ٢٥١٠ كيلومتر ويعتبر نهر الغانج من بين عدة أنهار مقدسة عند الهندوس ومن مظاهر التقديس أنهم يحجون إليه سنوياً بقصد التطهر بمائه ..وطلباً للبركة .. كما يلقون فيه رماد وجثث موتاهم بعد أن يتمّ إحراق أجسادهم.

وبينما هو في تلك الجولة الاستطلاعية إذ يباغته مسلمو الهند الحمقى بأربعة آلاف فارس، وألف من المشاة، وسبعة وعشرين فيلاً، وبدلاً من أن ينضموا إليه للقضاء على البقية الباقية من الثوار الصابئة المحتشدين، وجَّه هؤلاء الأغبياء هدفهم الحربي نحو منقذهم للقضاء عليه، إذ رأى فيه أمراؤهم منافساً قوياً على السلطة، وظنوا ما بهم من حب للسلطنة فيه، ولم يدركوا من عملياته في فتح الهند سوى أنه يبغي الحكم والسيطرة واستلام العرش كما يبغون، وحيث أنه لم يكن الفاتح العظيم السلطان تيمور بيك يرغب في سحقهم بتدبيراته العظيمة كعادته، وإن لم يكن فببضع مئات من جنده البواسل، وما منعه من قتالهم إلا أنهم مسلمون، ولكيلا يقوى جانب الكفار الثائرين، ويُلحق الشماتة بمسلمي الهند، ولئلا يقوى أيضاً النفوذ المعنوي لانتشار العقائد الوثنية قام بعملية انسحاب حكيمة عائداً إلى الضفة الثانية من النهر، متجنباً إنزال كارثة بالمسلمين تجاه تصرفهم الأحمق.

وهذا الانسحاب الإسلامي الإنساني الحكيم اتخذه المؤرخون المغرضون هدفاً لنسج الدسوس والأكاذيب المتناقضة، والتي لا تستحق النظر فيها لتخبطها المتناقض الأرعن.

على كلٍّ تقاس الأعمال حقّاً بخواتيمها، وكما يقال:

(الآخرة يا فاخرة) فسرعان ما انتهت المعركة الكبرى لصالحه، وبها تخرس ألسنة الدس والسوء المفتراة.

❁❁❁

فتح العاصمة دلهي

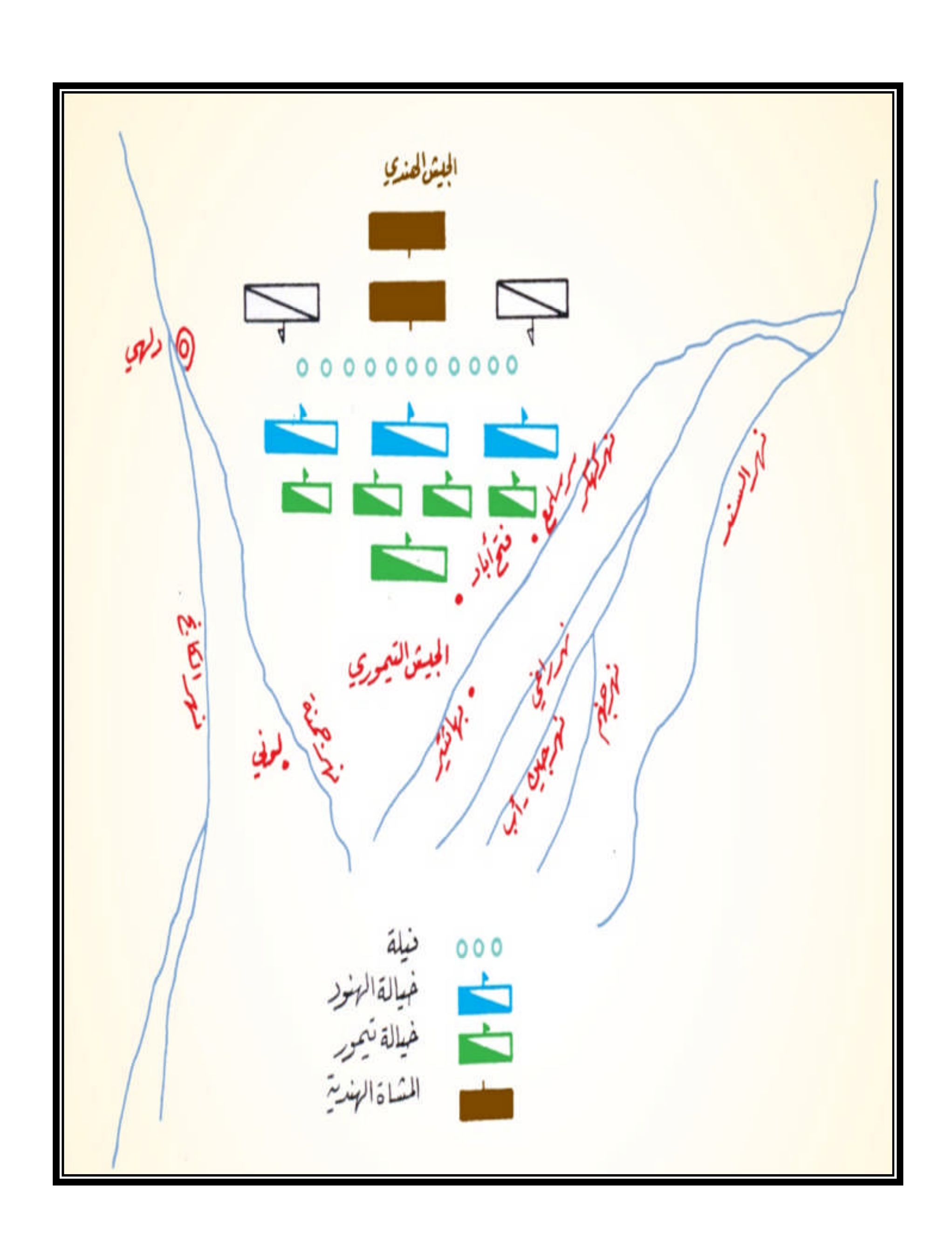
استبدَّ الوزير (ملّو إقبال خان) بالسلطان محمود الضعيف.

ولما استوى واستقر أمر الهند عليه، وبلغه توجه السلطان تيمور بيك إليه، جدَّ بإعداد العدَّة، فطلب الإمدادات، وزاد في التحصينات، وجمع الخيل والرجال وكل ما يمكنه من الفيلة.

وشيَّد على الأفيال المقاتلة أبراجاً، وعلق عليها أجراساً هائلة كي تصدر منها أصوات مزعجة تنفِّر خيل جنود السلطان تيمور بيك. كما أنه شدَّ السيوف على خراطيمها فكان لا بدَّ من الصدام المسلَّح. وبدأت المعركة /١٣٩٨م/، وتواجه الطرفان.

استطاعت قوات الجناحين للفاتحين بعد وقت قليل من بدء القتال أن تشتت شمل القوات الهندية المقابلة لها، في حين كان القلب التيموري يعاني من ضغط العدو بواسطة الفيلة، وبعد أن تمكن التيموريون من قتْل بعض الفيلة، وحمْل البعض الآخر منها على الهروب، انكفأ الجيش الهندي، وتضعضعت قوات دلهي بما رأوا من بسالة وشجاعة الجيش التيموري، إذ لم يخافوا من الفيلة بالرغم من أنهم لم يروها من قبل، وكانوا يقذفونها بمشاعل ملتهبة فتفرّ مذعورة.

وعلى الرغم من أبراج القتال التي رُكِّبت على ظهورها فقد أمر السلطان تيمور بيك بنشر كميات كبيرة من القطع المعدنية الحادة المثلثة الأطراف على الطريق التي ستُغير منها الأفيال المقاتلة.



معركة دلهي ١٨/١٢/١٣٩٨م

وعند الهجوم تظاهر بالهزيمة، بسبب خوف الخيل من الفيلة، فاغتبط الهنود ولحقوا بالسلطان تيمور بيك حيث أراد لهم أن يسْلكوا، ولما مرت الفيلة على القطع المثلثة (الشوك المعدني) اضطرت للبروك على الأرض من شدة الألم في أقدامها.. وما نفد منها دون إصابة أوقفه ساسته لِما شاهدوا من مُصاب الفيلة الأُول، ولما خرجت عليهم العير من الإبل، وقيل أن بلاد الهند ليس فيها جِمال وأن منظرها يجفّل الفيلَة ويجعلها تنفر، وكان الجيش التيموري قد هيأ أعداداً كبيرة منها، واضعين على ظهورها فتائل من القطن المغموس بالدهن وتحته جلد سميك يمنع وصول النار لظهورها. فلما هاجمت الفيلة أشعل الجند النار في الفتائل ثم نخزوا الإبل فاندفعت تطلق أصواتاً عالية من الخوف نحو الفيلة الهائجة بسبب ما أصاب أرجلها من جروح.. فلما رأت الفيلة النيران، وسمعت رغاء الإبل ألوت على أعقابها ناكصة لا تلوي على شيء، فحطمت الخيالةَ الهنود، وهشّمت الرجّالة المشاة، وخرج في هذه الأثناء كمين من القوات التيمورية من جانبي ساحة المعركة للقضاء على البقية المقاومة. لاذ بعدها السلطان ووزيره إلى داخل المدينة ثم افترقا وهربا إلى خارج دلهي وتفرق جيشهما، والسلطان تيمور بيك يقود قوات القلب وعلى جناحيه حفيداه سلطان محمد وسلطان حسين، وأيده الله بنصره إذ لم يتمكن جيش دلهي من استعمالٍ للفيلة وللسهام التي تنفجر عندما تلامس الأرض وللقذائف النفطية المشتعلة، وكفى الله جيش السلطان تيمور بأْسهما.

ثبَّت السلطان تيمور حكمه في الهند وسلطته كثباتهما في سمرقند عاصمته، فأحلَّ الأمن والعدل والأمان.

ضبط أحوالها وما غفل عن ضبط ما عليها وما لها، وفرض على أهلها الخراج وصلى بالجامع، ودعا الخطيب له وذُكر اسمه مقروناً بالألقاب وهي:

صاحب الزمان، ملك الأقاليم السبعة[1] وذو الاسم المبارك وقال:

(إن اللّه تعالى قد استخلفه في الأرض)..

من هذا اللقب يظهر طموح تيمور بيك كطموح ذي القرنين بنشر كلمة الله في الأرض كلها.

أسرع بإنجاز أمور الهند، ونقل ما فيها مما يؤدّي لقيام ثورات ضده ويساعد على نشوئها. فنقل العساكر والجند ووزعهم على أطراف ما وراء النهر من الحدود والثغور. وأقام في الهند نائباً عنه يحكم كتابع له. وزوَّج ابنة السلطان محمود لابنه بعد موافقتها، وصادر الأفيال واستخدمها فيما بعد للرهبة، ولتحقيق غاياته النبيلة السامية من حفظ للأرواح والدماء، وضمَّ أفيالاً كثيرة لجيشه قهراً للضلال وأهله.

وجاء في كتاب بلاد الهند في العصر الإسلامي:

تطلع تيمور إلى بسط نفوذه على بلاد الهند لما لها من موارد اقتصادية هائلة (بظن عميان القلوب)، وقد وافته الفرصة بعد وفاة فيروزشاه سلطان دلهي والاضطرابات والقلاقل التي أعقبت وفاته، لكن تيمور بيك في سيرته بعد أن فتح دلهي قال عكس ذلك:

« لقد قضيت خمسة عشر يوماً في دلهي بين مظاهر الفرح والنعيم، أعقد مجالس البلاد الملكية وأقيم الأسمطة العظيمة ثم ذكرت أنني أتيت إلى

---

(1) **الأقاليم السبعة**: فأولها أرض بابل منه: خراسان وفارس والأحواز والموصل وأرض الجبال. والإقليم الثاني: الهند والسند والسودان. والإقليم الثالث: مكة والمدينة واليمن والطائف والحجاز وما بينها. والإقليم الرابع: مصر وإفريقية والبربر والأندلس وما بينها. والإقليم الخامس: الشام والروم والجزيرة. والإقليم السادس الترك والخزر والديلم والصقالبة. والإقليم السابع : الديبل والصين.

هندوستان لشن الحرب على الكفار وقد بارك الله هذه الحملة، فجعل النصر حليفي والظفر يتبعني أينما ذهبت ، ولقد انتصرت على خصومي، وقتلت عدداً كبيراً من الكفار وعبدة الأصنام ولطخت سيف الدعوة بدماء أعداء الدين[١].

الآن وقد تم هذا النصر المبين أشعر أنه لا يحق لي أن أخلد إلى الراحة، بل أن أبذل جهدي لشن الحرب على كفار هندستان[٢]».

ما كان هدفه المال ولا الموارد الاقتصادية بل الإصلاح ما استطاع، وأن يكف أيدي الوثنيين عن قتال المسلمين مما مكنه بهداية الكثير منهم فيما بعد، وإرساء القواعد لتأسيس إمبراطورية إسلامية كبرى في تلك الربوع الهندية دامت حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي.

❁❁❁

(١) ذلك لأن الهنود الوثنيين قاموا بالاعتداء على المسلمين الهنود وقتلوا الأبرياء العزل دون أي مبادرة منهم.

(٢) المرجع: /**ELLIOT,VOLCC**/ p.٨.

مع العثمانيين والجولة الأولى

الوضع الجديد:

غادر السلطان تيمور بيك سمرقند بعد أن دخلها منتصراً بغزوة الهند.

وبالرغم من أنه كان يفكر في اجتياح الصين، وضمها عملياً لبلاد المسلمين، وإخراج أهلها من ظلمات الكفر لنعمة الإيمان ولكي لا يمدوا أحداً من الوثنيين لقتال المسلمين ولكن التحالف المعادي الذي قام ضده من المسلمين الأتراك والمماليك في منطقة بلاد الشام وبلاد الترك جعله يقف مكتوف الأيدي دون تحقيق طلبه بالجهاد المقدس في الصين، وكان عليه أن ينظر في شأن هذا التحالف وحلِّه.

فقام بالقضاء على الهوردة الذهبية كما سبق وبيّنا، وإشغالها ببناء مدنها وقلاعها بعد أن خربها لهم عنوة بهذا القصد، عدا عن الحروب الداخلية التي جرت بين توكتاميش والأمراء الروس بطلبهم التحرر من وطأة احتلال الهوردات، ولطالما سعى قبلها السلطان تيمور بيك أن يقيم حلفاً سلمياً مع خان الهوردة توكتاميش ولمرات عدة كما مرّ معنا [1] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً.. ﴾[2] ولكن الخيانات المتكررة التي صدرت من توكتاميش ألجأت السلطان تيمور بيك كما رأينا إلى القضاء عليه وعلى كلّ من يأخذ بيده من الذين أثَّرت فيهم الإشاعات والأخبار التي نقلها لهم أعداء السلطان تيمور بيك من المجرمين وقطاع الطرق

---

[1] انظر الصفحة/ ٢٧٩/ من كتاب (**حقيقة تيمورلنك العظيم تظهر في القرن الواحد والعشرين**) ـ المجلد الأول بحث: (**حتى أجلسه على العرش**).

[2] سورة البقرة: الآية(٢٠٨).

والحشاشين[1] والجبناء المنهزمين سواء من بلاد فارس وأذربيجان وعراق العجم وعراق العرب والتركمان، حتى من الهوردة الذهبية الصابئة.

وليبرروا سبباً لنجاتهم بأرواحهم، راحوا يشوهون سيرة السلطان تيمور بيك بين المسلمين العرب، وصوَّروه بأقذع الصور وأشنع منظر من سفك وقتل وسبي وتخريب وإجرام وغيرها.. ولم يكذِّب المسلمون الأتراك والمماليك داعي الشيطان لإلقاء الفتنة بين المسلمين، حيث وجد هوىً في أنفسهم لحب الظهور والاستعلاء والعظمة، فعميت قلوبهم وأبصارهم وصمَّت آذانهم عن سماع نداءات السلطان تيمور بيك إلى المسالمة والوقوف على الحياد، غير مجازفين بدماء المسلمين، بل وانشغالهم عن الجهاد في سبيل الله ، كما عرض على بيازيد المتكبر الجهاد سويّاً متعاونين بيدين اثنتين، شرق العالم وغربه، لنشر الإسلام بأصقاع المعمورة كلها وصد كل الاعتداءات ومحوها إلى الأبد، لكنهم أطلقوا على السلطان تيمور بيك وجنده الفاتحين المسلمين التكفير ظلماً وزوراً، وأجمعوا أنه يجب مجاهدتهم وقتالهم.

هذا ولم يكن توجه السلطان تيمور بيك نحو الغرب إلا للإصلاح، والحيلولة دون سفك الدماء ونهب وسلب المسلمين، ولضمان حدوده هناك. وواضح بشكل صريح أنه لم يكن يريد نزاعاً مع الأتراك ما ظلوا داخل أوروبا يجاهدون الصليبيين، ولكنهم اضطروه بتقدُّمهم في آسيا مستكبرين للتوجه للقائهم، والمماليك ومن أثاروا عليه من حلفائهم، والمتعدي دوماً خاسر والله لا يحب المعتدين، وعلى الباغي تدور الدوائر، فرأى أن الإصلاح في داخل الإسلام هو الأصل.

---

(١) **الحشاشين**: إن جماعة الحشاشين هي عبارة عن عصابات منظمة وهبت نفسها للقتل وتشكلت في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي وكانت عقيدتهم تعتمد على القتل المنظم بقلب بارد... وقد تمكنت من أن تشيع الرعب في كل من الدول الإسلامية والمسيحية على حد سواء .انتسبت جماعة الحشاشين الى الفرق غير الملتزمة بحرفية الدين الإسلامي والتي انسلخت عن الإسلام عقب وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام.

فما أن وصل حدوده حتى وجد على طول نصف الدائرة منها جيوشاً لَجِبَةً تنتظره، فالجورجيون كانوا قد خرجوا من معاقلهم في القوقاز وهم أهل حرب، وجاءت بعدهم حملة قوية من الأتراك مرسَلة لاحتلال منابع الفرات، ورجال التركمان مع قائدهم قره يوسف كعادته يتجول بهم بحثاً عن فريسة ولو كانت قافلة حجاج مقدّسة مع الأسى، مستنداً لحماية السلطان بيازيد المخدوع به ضد المصلح تيمور بيك، والجيش المملوكي يكمن في بلاد الشام، وإلى الجنوب كانت بغداد والسلطان أحمد بن أويس، وأيٌّ تحرك من قبل السلطان تيمور بيك سيُطمع الجيوش الأخرى بضرب مؤخرة جيشه أو مجنبته، وسيضطر هو بالتالي لردعهم بشدة وتأديبهم والظفر بهم.



المسير إلى أذربيجان

لما تحرك السلطان تيمور بيك من سمرقند، عمد أن يتقدم ببطء وفي عظمة وأبهة، أبهة المنتصر، عكس الإشاعات الكاذبة المسبقة بهزيمته وفشله أمام الهوردات، لينقل العيون والمخبرون لأهلهم ما يُرهبهم، ولا يخفى ما لهؤلاء من تأثير سلبي على همم الأعداء وتثبيط عزائمهم إن أجدت في قلوبهم تلك الرهبة من العظمة والأبهة، كما آل إليه أمر السلطان أحمد بن أويس في بغداد الذي ظل يتدرب على الهروب والتنكر مدداً طويلة كلَّ ليلة حين كان السلطان تيمور بيك على بعد /١٧٠٠كم/.

وأرسل بعثاً بتعليمات لإعداد تبريز كقاعدة له، وليجعل من سهل قراباغ[1] مركز تجميع لقطعان الخيل، ومن ثم تقدم إلى قراباغ دون أن يعرج على تبريز، وكانت وسط بلدان الترك والروم والعرب.

ومن ثم قضى بعض وقته في كتابة الرسائل للمعاهدات السلمية بينه وبين مسلمي الأتراك والمماليك، الذين راحوا يعدُّون العُدد للقتال (اقتتال المسلمين بين بعضهم) دون وازع يردعهم، متَّبعين دعاة الفتن ومفرِّقي شمل المسلمين.

❁❁❁

(١) مدينة تقع حالياً في إيران.

أحمد بن أويس وقرا يوسف

وجه السلطان تيمور بقيادة حفيده "**رستم**" قوات من شيراز إلى بغداد، قدمت من طريق تستر[1] إلى موقع مندلي[2]، وأرسل أحمد جلاير بن أويس حاكم بغداد قوى لمقابلة المغيرين، فوقعت المعركة وفشلت القوة البغدادية في مهمتها.

عمد السلطان أحمد إلى قتل الكثير من أمرائه، بزعمه أنهم متآمرون مع السلطان تيمور بيك ضده، وكان من بينهم نساء بالبلاط، حتى عمته وفا خاتون التي ربَّته.

ومن ثم هرب إلى ديار بكر، حيث اجتمع بقرا يوسف زعيم الغنمة السوداء وذلك قبل القضاء عليه ليطلب مساعدته لحماية بغداد لقاء كميات كبيرة من الذهب والأموال والأقمشة والأسلحة والخيول العربية. واستجاب (قرا يوسف).

والخلاصة في هذه الأيام

وما أن وصلت إلى الحليفين المتناقضين أخبار قدوم السلطان تيمور إلى سيواس وأن قسماً من قواته قد اتجه نحو حدود الشام، أقرَّا أن ليس بوسعهما الصمود أمام قوات السلطان تيمور بيك.

وتوالت عليهما أخبار التقدم والنجاح الذي يحققه السلطان تيمور بيك في تقدمه قاطعاً عليهما طريق الفرار إلى أرض الروم، أو إلى الأراضي الواقعة تحت سلطان المماليك.. مما يؤدي إلى حصرهما في العراق ووقوعهما في الأسر.

---

(١) **طريق تستر**: اسمها المتعارف عليه بالتاريخ الإسلامي تستر وهي (شوشتر) مدينة إيرانية تقع شمال الأحواز في جنوب إيران.. المدينة الحصينة التي استشهد على أسوارها الكثير من الصحابة رضوان الله عليهم..

(٢) **مندلي**: تقع مندلي على بعد ١٦٠ كم شمال شرق مدينة بغداد. يحدها من الشمال (خانقين والمقدادية) ومن الجنوب بدرة التابعة لمحافظة واسط ومن الشرق إيران ومن الغرب بعقوبة والمقدادية.

ولكن مَنْ للفرار مثل السلطان أحمد بن أويس؟ فقد اتجه مع حليفه قرا يوسف نحو حلب، وعند بلوغهما أبوابها لم يبد حاكم القلعة تيمور طاش ترحيباً بهما، ولم يسمح لهما بالدخول إلى حاضرته، وراسل سلطات القاهرة عمّا ينبغي أن يتخذه من إجراءات تجاههما، وكان الرد غامضاً وغير محدد، وتركوا تقدير الموقف لحسن رأيه، وعندئذ دارت معركة في ظاهر المدينة بين قوات المماليك الحلبية وقوات الحليفين فهُزم المماليك.. ورغم هذا النصر فقد فضل الهاربان أن يتابعا السير إلى الأناضول للدخول في حماية السلطان بيازيد.

تم رفع الحصار عن بغداد بعد قرابة شهرين حيث اضطر رستم حفيد السلطان تيمور بيك إلى رفعه لوجود تمرُّد في شيراز .

❁❁❁

السلطان أحمد

بغداد /٨٠٥هـ-١٤٠٢م/:

وصَفَ صاحبُ كتاب السير السلطان أحمد قائلاً: (كان سفاكاً رديئاً للغاية، لا يستقر على حالة، وإنما يلتمس الشغب ويتحرى التشويش دائماً، وكان قاسي القلب قليل الرحمة، شديداً وجاهلاً، وله ولع بالموسيقى...).

إن ذهاب جيش الأمير تيمور بيك إلى بلاد الروم (الأناضول)، وخلوِّ العراق من أي قوة، ولّد عند السلطان أحمد أمل العودة، فاستولى عليها مرة أخرى، فحكم بغداد وأنحاءها، وجعل ابنه السلطان طاهر في الحلة والبقاع المجاورة لها، وأساساً في الوقعة السابقة لم يفارق السلطان العراق، وإنما تجول في الأطراف البعيدة متخفياً ومتربصاً العودة، فتم له الأمر وسنحت له الفرصة، أما الأمير قرا يوسف فإنه بقي في جهات هيت[1] والأقسام الشمالية من العراق يتجول فيها.

ثم إن السلطان أحمد أراد السفر إلى الحلة وكان فيها ابنه السلطان طاهر، وفي تلك الأثناء ألقى القبض على وزيره آغا فيروز، فارتاب السلطان طاهر من ذلك وتوهم أنه المقصود، وتذاكر مع أمراء والده مثل محمد بيك وأمير علي قلندر وميكائيل وفرخ شاه، وهؤلاء لم يأمنوا غائلة السلطان أحمد، فاتفق الكل على لزوم القيام عليه والخروج عن طاعته، فرفعوا الجسر وكسروا المياه في منتصف الليل، واتخذوا الأهبة.

---

[1] **هيت**: مدينة عراقية تقع على الضفة الغربية من نهر الفرات إلى الشمال من مدينة الرمادي بمسافة ٧٠ كم، وتبعد عن بغداد مسافة ١٩٠ كم.

فعلم السلطان أحمد بما وقع، وشاهد التدابير المتخذة، فوقف مكانه ونصب خيامه تجاه جيش ابنه، ولما خشي ألا يقع مأموله أرسل قاصداً إلى الأمير قرا يوسف والتمس منه أن يوافيه ووعده بمواعيد.

وعلى هذا سار قرا يوسف بجيش لجب مؤلف من تركمان وعرب ووافى السلطان أحمد، فعبر هؤلاء جميعاً النهر، ومضوا إلى ناحية السلطان طاهر، فتقابل الجيشان، وشرعا في القتال، فكانت المعركة بينهما طاحنة جداً، فظهر فيها الانكسار بجانب السلطان طاهر، وأثناء هزيمته عثرت فرسه في نهر فوقع ومات. ونهب الجيش المنتصر غنائم وافرة، وسلب قوم الأمير قرا يوسف الشيء الكثير.



قـرا يوسـف

بغداد: /٨٠٦ هـ ـ١٤٠٣م/:

بعـد أن حقـق السـلطان أحمـد انتصـاراً علـى ابنـه السـلطان طاهر، بمسـاعدة قـرا يوسف التركماني، شعر بالخطر من هذه المساعدة، وأحس بنوايا الأمير قـرا يوسـف، وعلم أنه المقصود بالذات، وأن الآمال موجهة عليه والأطماع إليه، ذلك مـا دعـاه أن يعود إلى بغداد توّاً ليرى تدبيراً، ويفكر في الخلاص من هذا المأزق، إلا أن الأمير قـرا يوسف لم يمهله وسار وراءه بسرعة، فلم يتمكن من النجاة بحياته إلا بشق الأنفس.

دخـل قـرا يوسـف بغـداد وهـرب أحمـد لـيلاً، أخرجـه منهـا رجـل يقـال لـه (قـرا حسن)، حمله على كتفه، وقطـع بـه نحـو خمسـة فراسـخ[1]، وفي طريقـه وجـد بقـرة ركبها السلطان أحمد، وجاء بأسوأ حالة إلى تكريت[2].

وكان هناك رجلٌ اسمـه عمـر الأويـرات، وهـو أمير مـن جانـب السـلطان أحمـد، فأعدَّ له ما استطاع من خيول، ووصل إلى تكريت جماعـة مـن الأمـراء الـذين تشـتتوا مثل الشيخ مقصود، ودولت يار، وعادل وغيرهم...

فاجتمعوا هناك معه وساروا والسلطان إلى أنحاء الشام.

وقد استولى قرا يوسـف علـى بغـداد وبقيـت بيـده مـدة، إلا أن المؤرخين لم ينقلـوا شـيئاً عـن أعمالـه هنـاك، وإنمـا مضـت ولا تـزال في طـي الغمـوض والخفـاء، إلى أن استعادها جيش تيمور بيك.

---

(١) **الفرسخ**: يساوي ثلاثة أميال، والميل مسيرة نصف ساعة، فالفرسخ يساوي مسيرة ساعة ونصف، ويعادل تقريباً خمسة كيلو مترات.

(٢) وجاء في تاريخ ابن أبي عذيبة أنه: (في سنة /٨٠٦هـ / دخل السلطان أحمد بن أويس إلى حلب في صورة فقير هارباً إلى الشام، فمسك حسب المرسوم بطلب السلطان أحمد من حلب إلى دمشق، ثم ورد مرسوم آخر بإمساكه واعتقاله بها فمسك..) ا هـ تاريخ ابن أبي عذيبة ج٥ ص٥١٢.

إلى بيازيد الملقب بالصاعقة

جاءت السلطان تيمور بيك أخبار تحرك بيازيد على رأس عشرة آلاف فارس للقيام بغارة مفاجئة على قرا باغ للإيقاع بالسلطان تيمور بيك.

وتصدت لتلك الهجمة المفاجئة قوات شاه روخ ابن السلطان تيمور بيك، وتابعت تحركها متقدمة حتى حصن أونيك، حيث بلغته رسالة من طهارتن حاكم أرزنجان تفيد بأن السلطان العثماني اضطر للتراجع خائفاً عندما علم السلطان تيمور باكتشاف أمر هذا الهجوم، وأرسل إلى طهارتن يرجوه أن يبلغ السلطان تيمور بيك اعتذاره على جرأته غير الحميدة.

واطلع السلطان تيمور بيك على عروض بيازيد سلطان العثمانيين للصلح، إذ أطلق الأخير سراح أسرة طهارتن التي كانت أسيرة عنده. وكان طهارتن حاكم أرزنجان يشكو تهديدات السلطان العثماني بيازيد لسيده السلطان تيمور بيك مستغيثاً في موقع جفاتو. أما الآن فقد أحجم السلطان العثماني عن متابعة القتال، وقام بتسليم الأسرى. وظل السلطان تيمور بيك يعسكر في ربوع أذربيجان على حدوده الغربية، وقام بجولة في بلاد الكرج، وتبادل أثناءها مع بيازيد سلسلة من الرسائل ظهر من خلالها أن الطرفين يريدان الصلح والسلم وتلافي الحرب، واستهل بيازيد مرحلة المراسلات بتوجيه رسالة حملها إلى معسكر السلطان تيمور بيك في قرا باغ أحد القضاة العثمانيين برفقة أحد الأمراء من البيت المالك العثماني، وقد أشار السلطان تيمور في ردِّه إلى أن اختلاف كلمة المسلمين يستدعي شماتة الكفار، وقال عن قرا يوسف الذي تقع ممتلكاته بين ممالك المسلمين، إنه لصٌّ وقاطع طريق

ومفسد، وقد ألحقت أعماله الضرر بالمسلمين، وفرّ من ملاحقة السلطان تيمور بيك إلى بيازيد الذي قدم له الحماية، ولذلك فهو يطالب بمحاسبته على أعماله أو تسليمه إليه لتتمَّ مجازاته، وعند ذلك تتوطد الصداقة حقّاً بين الطرفين، ويصبح تبادل المساعدات لقتال الكفار المعتدين معاً أمراً ممكناً، إذ أن السبب المباشر لعودة السلطان تيمور بيك إلى بلاد الروم كانت تلك الغارات التي قام بها قرا يوسف التركماني اللاجئ إلى السلطان بيازيد الذي غار على إحدى قوافل الحجاج التي كانت تقصد الحجاز، تعدِّياً ونهباً والتجاء بعض من نالهم الأذى من أفراد القافلة إلى السلطان تيمور بيك، وإلحاحهم عليه للتدخل ومعونتهم، ولذلك شعر السلطان تيمور بيك بضرورة معاقبة قرا يوسف وتنبيه حاميه السلطان بيازيد من غفلته.

كما أن قرا يوسف أسر نائب السلطان تيمور بيك على الرّها (أطلمش) وقبض عليه أثناء رحلة صيد، وكان من قرابة السلطان تيمور بيك، وأرسله إلى السلطان المملوكي الظاهر برقوق الذي أمر بسجنه، وقد بعث السلطان تيمور بيك يطلب أطلمش الذي أسره قرا يوسف من سلطان المماليك، فرفض متعنتاً، وما كان تدبير قرا يوسف ومكيدته إلا للإيقاع بين المسلمين، وقد نجح بفضل عقول المماليك السقيمة من الجراكسة، وراح ينتقل من مكان إلى آخر يبذر بذور الثورة ضد السلطان تيمور بيك، ويثير السكان عليه وعلى جنده. تماماً كما كان يفعل اليهود ضد الرسول ﷺ، حين كانوا يبذرون بذور الثورة عند القبائل العربية، حتى هاجموا المدينة في وقعة الأحزاب بفتنتهم، فاضطر ﷺ لطردهم من الجزيرة العربية كلها حيث أنه لا يجتمع فيها دينان.

وهكذا تابع السلطان تيمور بيك مراسلاته، يبين فيها حقيقة الأوضاع الداخلية والمحيطة بالمسلمين، ويؤكد على المطالبة بإصلاح ذات البيْن بين المسلمين.

كما أن الرسائل اشتملت على مدح ما قام به أجداد بيازيد من السلاطين العثمانيين، من جهاد مقدَّس في قتال أعداء الدين، وأن السلطان تيمور بيك في مقابل ذلك كان يجاهد كفار المشرق ويوقف دائماً اعتداءاتهم. وتهاجم الرسالة دولة المماليك التي لا تزال تحتفظ بأطلمش أسيراً في القاهرة، ولذلك فهو يصرح بأنه عازم على التوجه إلى مصر لتخليص أسيره هناك، كما أنه يصف كلاًّ من أحمد جلاير بن أويس وحليفه قرا يوسف بأنهما قاطعا طريق، ولذلك فإن أراد بيازيد دوام السلام وتجنب القتال فعليه أن يتخلى عنهما، مقابل قيام تحالف بين الدولتين ضد أعداء الإسلام في بلاد الكرج ومنطقة طُرابزون[1]، ويختم السلطان تيمور بيك الرسالة إلى ضرورة تبادل الوفود والرسائل بصورة دائمة.

حمل الوفد رسالة السلطان تيمور بيك في أول الربيع، بعد أن أمضى فصل الشتاء في معسكر السلطان تيمور بيك.

وجاء رد بيازيد على رسالة السلطان تيمور بيك وقال فيه:

(أنه إذا كان السلطان تيمور صادقاً فإن قرا يوسف ينزل على طاعته، ثم أعلمه بموافقته على اقتراحه بقيام تحالف بين الجانبين، وأرسل إليه أحد كبار الأمراء ليؤكد أمامه رغبته بالصلح، وتابع بيازيد كلامه قائلاً: وعند ذلك فإن العلاقات بين الطرفين سوف تتحسن وينحسم النزاع وتصان مصالح المسلمين، وقال عن أحمد جلاير وقرا يوسف بأنهما قد عوملا على مبدأ إكرام الضيف، حسب ما اعتاد عليه السلاطين العثمانيون في معاملة من يطلب حمايتهم، وأنه ليس من عادة الأتراك أن

---

[1] **طرابزون**: تقع مدينة طرابزون في شمال شرق تركيا على ساحل البحر الأسود.

يتركوا رجلاً طلب مساعدتهم، ويطالب الردّ أخيراً بأن يتراجع السلطان تيمور بيك عن سيواس وأن يعيدها إلى السلطان العثماني ويجعل ذلك شرطاً للصلح والتفاهم).

كتب السلطان تيمور بيك رسالة لطيفة مع الطلب أن لا يعطى أي عون لقرا يوسف وللسلطان أحمد، إذ كان يعلم أن المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، لذلك وجه رسائله الإيمانية الداعية لأن تكون كلمة الله هي العليا إلى أخيه المؤمن السلطان بيازيد والذي كان يهيمن على بلاد شاسعة واسعة إذ ذاك، لأن يتفقا وينطلق كلاهما للجهاد في سبيل الله وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ويعم دين الحق مشارق الأرض ومغاربها، التي سينطلقان بجيوش الحق إليها، بغية نصرة الحق وإنقاذ الخلق.

لكن الصدمة الكبرى والخيبة العظمى، أن السلطان بيازيد غيّر وتغيّر، ولا شك بأن أحمد الجلايري وقرا يوسف هما اللذان خدعاه ومكرا به " ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله "، ثم إن بيازيد بعث برسالة كشفت عن خراب طويته، وأنه ليس حقّاً بمؤمن، وبعث برسالة كبروية طغيانية مسمومة، وبدل الاستجابة للسلطان تيمور بيك، أعلن القتال على إخوانه المؤمنين المجاهدين الفاتحين. وسنرى أن الله نصر المؤمن الصادق السلطان تيمور بيك، وخذل المسلم الكذّاب بيازيد ومن معه من ضعاف النفوس، حتى تابوا وأنابوا وغيروا ما بأنفسهم فغير الله عليهم وأعاد النصر إليهم جميعاً، ونهض الإسلام من جديد فتيّاً قوياً، وقد زالت عنه الزوائد والرسوبات والسموم، بفضل جهود السلطان تيمور بيك، الذي أصلح الدولة الإسلامية كلها، وخلّصها من الفساد، فهيّأها لفتوحات كبرى تشبه صورة فتوحات صدر الإسلام: ﴿..**وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ**..﴾[1].

(١) سورة الحج: الآية (٤٠).

أجاب السلطان تيمور بيك السلطان بيازيد كما ذكرنا سابقاً:

« لا أريد داراً يقوم فيها السلام مثل بلادك يضطرب أمرها من غزوي وتعرضي لها، فأعط مفتاح قلعة (كماخ) لخدامنا ولا تضيق على نفسك العالم الفسيح، لأن قرا يوسف ذلك الشرير قاطع الطرق قد ضيق السبل والطريق على حجاج بيت الله الحرام، وأصبحت كلّها غير مأمونة من أفعاله وحيث أنه لاجئ إلى بابك فعليك أن تجازيه بسيف العدالة بمجرد وصول هذا إليك». لكن جواب بيازيد لم يكن سياسياً ولا مكتوباً بأسلوب حبي مسالم، ومما جاء فيه:

(اعلم، أنت أيها الكلب العقور[1] "وحاشاه" **المدعو تيمور أن الأتراك لم يتعودوا أن يضنّوا بالملجأ على أصدقائهم، ولا أن يهربوا من مواجهة الأعداء في المعركة، ولا أن يلجؤوا إلى الحيل والأكاذيب والمخادعات)**!.

اكتفى السلطان تيمور بيك بأن نصح بيازيد بالتفكير ملياً قبل أن يغامر وأضاف قائلاً، إنه لا يستغرب ما ورد في رسالة السلطان بيازيد من بذاءة وقلة أدب، لأنه يعلم أن السلطان لم يُجِدْ حسن التصرف والتقدير، حيث لم يكن عنده صبر ولا حلم، وأنه يخدع، لذا أنهى السلطان تيمور بيك رسالته بقوله:

---

(١) وجاء في الأعيان نصاً معرباً عن التركية: (بعد الدعاء: أيها الكلب العقور المرسوم باسم تيمورلنك الذي هو أكفر من الملك نكفور.. ليكن معلومك أنني قرأت كتابك أيها المشؤوم . أبمثل هذه المهملات تخوفني! وبهذه الترهات تخادعني!! ظننتني ملكاً من ملوك العجم أم تترياً من الصحراء؟ أم أنك قايست جندي بجند الهند والصين؟ أم أنك ظننتني عسكري كعسكر العراق وهراة؟!! الحرب والضرب رأينا، والجهاد صنعتنا وعادة الغازين في سبيل الله عادتنا. فإن أنت حرصت على الدنيا تصديت للمقاتلة كالكلاب فنحن أيضاً نقاتل. ليكن معلومك أنك إذا أرسلت بهذا الكلام إلى بلادنا ولم تحضر إلى ميدان القتال تكون زوجاتك طوالق بالثلاث: والسلام على المسلمين، ولعنة الله عليك وعلى جميع من بايعك إلى يوم الدين).

« إذا أنت لم تتبع نصائحنا فستكون من النادمين! فكِّر إذن ، وافعل ما تراه مناسباً ».

فلما وقف السلطان بيازيد على كتاب السلطان تيمور بيك وفهم فحوى الخطاب كما راق له. امتعض ونهض ورفع صوته مُمْلياً لكاتبه :

(أوَ يخوفني بهذه الترهات ويستفزني بهذه الخزعبلات؟. أو يحسب أنني مثل ملوك الأعاجم، أو تتار الدشت الأغنام أو كجيش الهنود أو كشقاق جميع العراق أيحسب أن ما عندي من غزاة الإسلام كعساكر الشام أو أن جنده كجندي أوَ ما يعلم أن أخباره عندي؟ وكيف خادع الملوك وختلهم وكيف تولى وكفر فجعل يستضعف كل وقت طائفةً منهم).

وراح يفصِّل ويسهب بشروحات أملاها عليه أعداء السلطان تيمور بيك كما يحلو لهم كقرا يوسف التركماني وأحمد جلاير بن أويس بأنه لا قوة لجيش تيمور بيك، وإنما ملك ما ملك وسيطر على ما سيطر بخداعه ومكره، والخيانات التي ظهرت في صفوف خصومه كتوكتاميش وقال :



جندي انكشاري

(فأنى لعساكره نظام عساكرنا وقوة القيام بتضافرنا وتناصرنا؟!. فإن الحرب دأبنا والضرب طلابنا والجهاد صنعتنا وشرعة الغزاة في سبيل الله تعالى شرعتنا، إن قاتل أحد تكالباً على الدنيا، فنحن المقاتلون

لتكون كلمة الله هي العليا، ورجالنا باعوا أنفسهم وأموالهم إلى الله بأن لهم الجنة، لا يخالفون ملكهم، ولا يقولون إذا غمرهم البلاء والابتلاء إنا هاهنا قاعدون، فهم الغزاة المشاة وأشجع الفرسان الكماة..

وحاصل الأمر أن كلَّ أشغالنا وجُلَّ أحوالنا وأفعالنا جمُّ الكفار ولمُّ الأسرى وضمُّ الغنائم، فنحن المجاهدون في سبيل الله الذين لا يخافون لومة لائم، وأنا أعلم أن هذا الكلام يبعثك إلى بلادنا انبعاثاً، فإن لم تأت لتكن زوجاتك طوالق ثلاثاً، وإن قصدت بلادي وفررت عنك ولم أقاتلك البتة، فزوجاتي إذ ذاك طوالق ثلاثاً...)



مدفعي تركي راكب على أهبة الإستعداد

وبعد عرض لائحة طويلة لانتصاراته منوهاً بأنه الآن سيد أوروبا معقل الكفار، وبأنه ابن الشهيد في سبيل الدين الصحيح والحامي الحقيقي للإسلام ختم رسالته قائلاً: **(كنا منذ زمن نتوق إلى خوض الحرب ضدَّك، وقد تحققت رغبتنا الآن والحمد لله. وإذا أنت لم تأت في طلبنا، فإنا سوف نطاردك حتى السلطانية، وسوف نرى عندئذ من هو الذي سيغتبط بالنصر ومن سيغتم بالهزيمة).**

فلما وقف السلطان تيمور بيك على جواب السلطان بيازيد أدرك حماقته وجنونه، لأنه وكما يقول ابن عربشاه: أنَّ السلطان تيمور بعد هذه الرسالة قال:

« ابن عثمان مجنون أحمق، لأنه أطال وأساء وختم ما قرأه من كتابه بذكر النساء»، لأن ذكر النساء عند التيموريين من العيوب وأكبر الذنوب،

حتى أنَّهم لا يلفظون بلفظ امرأة ولا بأنثى، وإنما يعبرون عن كل أنثى بلفظ آخر ((مخدرة ـ ذات الحجال)). لم يجب الفاتح السلطان تيمور بيك على هذه الرسالة فوراً، ولكنه كتب فيما بعد رسالة مختصرة بلا شروط ولا لوم، فحواها أن بوسع بيازيد أن يتجنب الحرب إذا هو تخلى عن قرا يوسف وعن السلطان ابن أويس. فأجاب السلطان بيازيد بسرعة وعنف ويُجمع المؤرخون بأن حَمَلة الرسالة لم يجرؤوا على قراءتها للسلطان تيمور بيك بحرفية كلماتها، إذ كتب بيازيد اسمه بأحرف ذهبية في أعلى الرسالة، ووضع اسم السلطان تيمور بيك فيها بالأسْود وبأحرف صغيرة، وقد توعَّد السلطان تيمور بيك فيها بكلام فاحش عن نساءه الطاهرات نستحي من ذكره.. وقد دفعت هذه الرسالة بالفاتح السلطان تيمور بيك إلى منتهى الحزن والأسى من بيازيد الأحمق، فكيف يكون مثل هذا زعيماً للمسلمين وبجيش قوي أعدَّه والده الكبير، إذ من كان سيتحالف معه لنصرة دين الحق ومقاتلة الأعداء الطامعين ببلادهم يحتاج هو إلى تأديب وإصلاح، بل جعل الحرب لزاماً لردعه عن جبروته برسائله الوقحة الطغيانية.

ولم يكن عن الحرب مندوحة، ولكن كيف سيتم حفظ القسم الأكبر من دماء المسلمين؟!.

هذا ما كان جُلَّ همِّ السلطان تيمور بيك بعد عزمه على خوض الحرب مكرهاً ضد السلطان بيازيد لإصلاحه.

أرسل السلطان تيمور بيك رجالاً ذوي خبرة بالحرب النفسية وما للإشاعات من تأثير على تثبيط الهمم عند المقاتلين، ودسّهم بين جنود بيازيد الأتراك، وقاموا بِحَثِّ الجنود على الولاء لمبادئ الإسلام، وأن لا يدعوا بيازيد يدنّس تلك المبادئ

بتكبُّره الغدَّار وصلفه المتهور، وكما أنهم خاطبوا الجند بالولاء لأصولهم التترية أو الفارسية ؛ وهكذا راحوا يقوضون صفوف جند بيازيد ويخاطبونهم حسب ميولهم العشائرية ؛ وكل ذلك للحفاظ على دمائهم وأرواحهم، كما أن السلطان تيمور بيك كان يعمل ويحقق الشيء الكثير أثناء تلك المراسلات، حيث كانت الأخبار تصله إلى قرا باغ عن أحوال الممالك المحيطة بدولته من الشرق والغرب، وقد علم أن المنية وافت خان جغطائي الشرقية خضر خواجا، والسلطان المملوكي برقوق، وإمبراطور الصين وحاكم الكيبتشاك تُغْلق، وأن الفتن والاختلافات تعمُّ هذه الممالك، كما علِم أن أحفاده الذين أقامهم في أنداخان لحماية البلاد من هجمات مغول الجات استطاعوا القضاء على الفوضى وتقدموا حتى بلغوا خوتان وكشغر.

كل هذه الأخبار تصوِّر حالة دولية ملائمة لأن يتحرك السلطان تيمور بيك بجنده نحو الغرب بقلب مطمئن.

❁❁❁

تحركات وقائية تأديبية

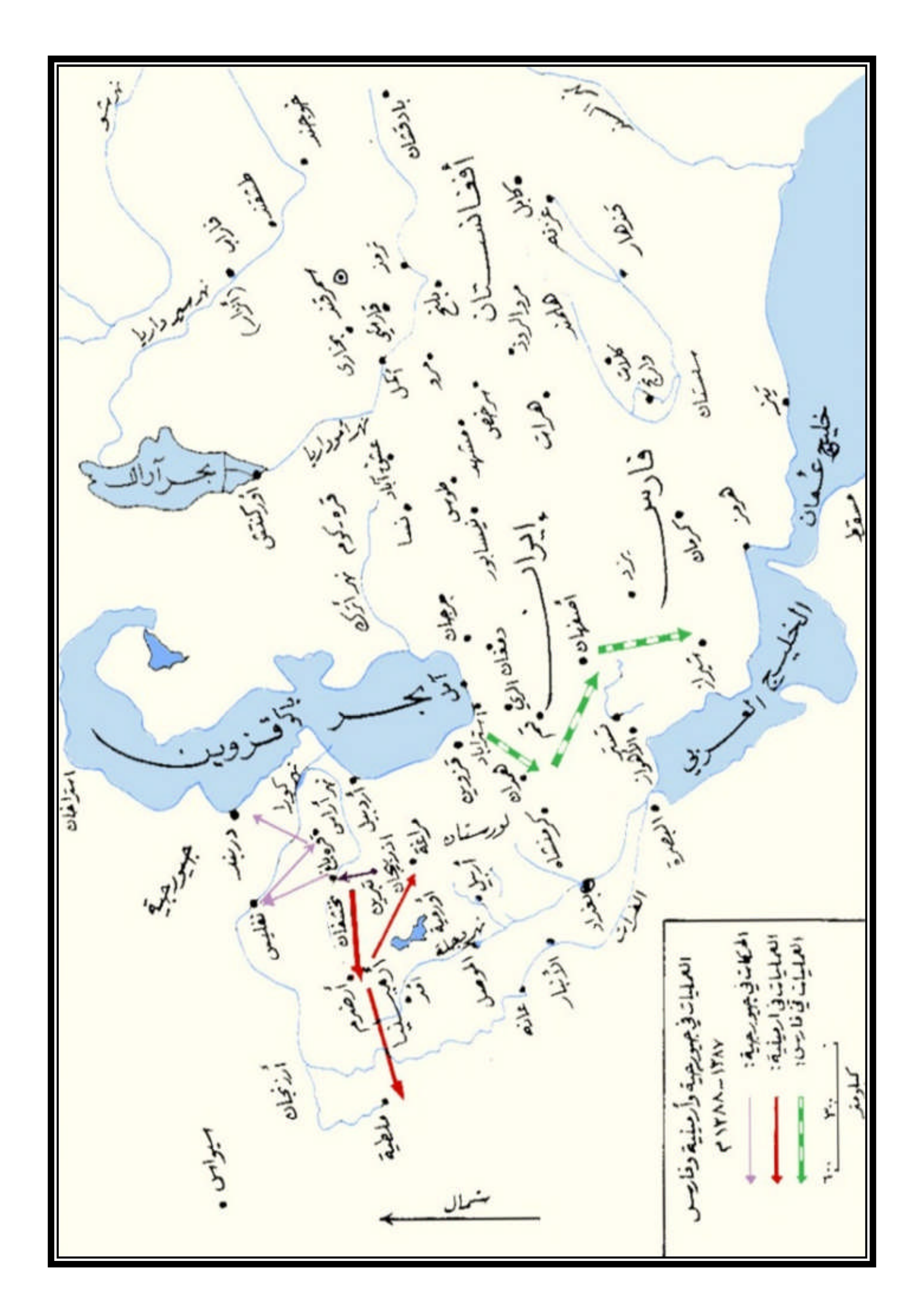
أغار السلطان تيمور بيك على جورجيا وكانت المرة الثالثة.

واستهل غارته بالهجوم على وادي خمشا شرق العاصمة تفليس، في الجزء الشمالي من مقاطعة كاخيثيا، ولما كانت قواته تشق الطرق خلال المضائق المشجرة كانت قوات الجيوش الجورجية المناوئة الهاربة يتشتت شملها وقد نصره الله بالرعب.

وعمد السلطان تيمور إلى تخريب القلاع والحصون كي لا تكون بؤرة لتجمع مناوئ ضدَّه، ولم يعرض شروط صلح أو مهادنة، فالمقاتلون الجورجيون كما أنهم متمرِّسون على القتال، تمرسوا على المخادعة واغتنام الفرص للإيقاع بالجنود المسلمين، لا سيما وأنها الفرصة الكبرى والمسلمون يحشدون جيوشهم ضد المسلمين، ومن ثم تقدَّم حتى العاصمة تفليس، فافتتحها وخرج ملكها لائذاً بالفرار، ومضى يُطارَد من قبل القوات التيمورية حتى قَبِل السلطان تيمور بيك طلبه للصلح.

وقفل السلطان تيمور بيك عائداً إلى قراباغ.

وعلى هذا النحو بزغ فجر القرن الخامس عشرالميلادي، ومع ابتداء ذوبان الثلوج ليشهد فرق السلطان تيمور قد تحركت إلى داخل آسيا الصغرى من طريق وادي أرضروم..



العمليات في جيورجية وأرمينية وفارس

قلعة كماخ الحصينة

اضطرار تيمور بيك لقتال بيازيد وأخذه قلعة كماخ

سار تيمور بيك بعساكره قاصداً بلاد الروم، وأرسل إلى حفيده وولي عهده محمد سلطان بن جهانكير أن يتوجه إليه من سمرقند بصحبة الأمير سيف الدين، فوصل تيمور إلى قلعة كماخ، وهي على نحو نصف يوم من أرزنجان، ووصل إليه حفيده محمد سلطان فوكل إليه أمر حصارها، وهي قلعة منيعة، من إحدى جهاتها نهر الفرات ومن الجهة الأخرى واد متسع فيه مسيل ماء يصب في الفرات لا تثبت فيه الأقدام، ومن الجهتين الباقيتين هضاب وعرة، فأمر بقطع الأشجار والحطب وإلقائها في الوادي حتى ساوى بها الأرض فألقى أهل القلعة فيه النار والبارود فاحترق، فأمر عساكره أن يأتي كل واحد منهم بعدل من الأحجار ففعلوا حتى طموا الوادي فمشوا عليه، واقتربوا من السور ونصبوا السلالم، فطلب أهل القلعة الأمان، فدخلها في شوال سنة/٨٠٤ هـ/ ثم أمر بالأحجار التي ألقيت في الوادي فأخرجت إلى المواضع التي منها أخذت.

❁❁❁

قلعة سيواس الحصينة

كان لهذه القلعة موقع ذو أهمية، إذ تتاخم حدودها الشام وأذربيجان وبلاد الروم (شبه جزيرة الأناضول حالياً)، وكانت مركزاً حصيناً لتعبئة القوات ومفتاحاً لآسيا الصغرى، لذا توجه إليها السلطان تيمور بيك بجنوده، وكان حاكمها الأمير سليمان بن بيازيد الذي أرسل يخبر أباه بهذا الأمر المهول ويستنجده وكان آنذاك محاصراً استنبول، فلم يستطِع السلطان بيازيد إمداده لاحتياجه إلى المدد والعدد.

فجمع الأمير سليمان جنده وحصَّن المدينة والقلعة، وعبأ المخازن مستعداً للحصار والقتال، ووزع الجند ورؤوس الأمراء على الأسوار.

لم يكن يخفى على السلطان تيمور بيك مصائر الأمور، وما آلت إليه تدبيرات الأمير سليمان بن بيازيد وأبيه، وكان ذلك إبداعاً خالصاً منه، فيه حفظ قوى أكبر قوتين للمسلمين في العالم آنذاك، وتقدم بقواته وما أن ظهرت جحافله في الأفق حتى لوى الأمير سليمان عنان فرسه لائذاً بالفرار، وقد أوهم جنده بأنه يعزم على التوجه إلى أبيه، واشترط عليهم الحفاظ على القلعة ريثما يجهز لهم العَدَد والعُدَدْ. ومن المعروف عن الجند العثمانيين طاعتهم العمياء لقادتهم، فلم يسعهم إلا الطاعة والمرابطة، وأفلت الأمير سليمان راجياً لنفسه الخلاص بأقصى ما يستطيع أن يعدو فرسه.

وعندما تطلع السلطان تيمور بيك إلى قلعة سيواس قال: لا تصمد هذه القلعة أكثر من ثمانية عشر يوماً، وكان كذلك، فقد انتشرت آلات الحصار حولها مما دبّ الرعب في جيش الحدود التركي فتراجع مسرعاً، وفي ذلك الحين أعطى السلطان تيمور بيك أوامره بالهجوم على أسوار المدينة وتدميرها، فكشفوا أساساتها

ودمروها بالمتفجرات، وتساقطت الجدران وافتتحت المدينة، ولم يُمسَّ السكان المسلمون بسوء.

ولاقت قوات أرمنية قصاصها تجاه مقاومتهم، وشتت شمل جماعة من التركمان كانوا قد جاؤوا إلى المسرح. ومن ثم تحرك السلطان تيمور بيك مسرعاً ليفاجئ ملطية بوابة الجنوب، ويدخلها في نفس اليوم، حيث هرب الحاكم التركي مع جنوده.

وبعد افتتاح ملطية وبدلاً من التوغل في آسيا الصغرى، أصدر السلطان تيمور أمره إلى الجيش بالاستعداد للمسير جنوباً إلى سوريا، ولو كان يقصد القضاء على السلطان بيازيد حينها، لهادَن تيمور بيك الصليبيين الذين عرضوا عليه كافة إمكانياتهم، فرفض ذلك كلَّه ولم يلتفت إليه، ولأوقع بيازيد بين نارين، السلطان تيمور بيك وجحافله من خلفه، والصليبيين من أمامه، فلا خشية على مؤخرة جيش السلطان تيمور بيك ومجنبته بعد أن حطم قوى الجورجيين وشتت التركمان، والمماليك يتنافسون فيما بينهم ويكيدون لبعضهم البعض في دمشق تقرباً لسلطانهم الحدث.

ولكن حاشاه أن يتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فما كفر السلطان تيمور بيك، وعلى كلٍّ ترك السلطان تيمور الفرصة الأخيرة للسلطان بيازيد أن يُعمل تفكيره لعله يتراجع ويرعوي بعد أن تمزقت قواته التركية الحدودية وكأنها لا شيء أمام جند السلطان تيمور بيك . ولم يترك السلطان تيمور بيك فرصة للسلطان بيازيد أن يقوم بأيِّ عمل أحمق مفاجئ، فأمر قواته بالتوجه السريع إلى سوريا رغم أنه اجتمع عند السلطان تيمور بيك قادة جيوشه شاكين يقولون:

(لقد انتهينا من حرب الهند منذ سنة ، ومنذئذ والجنود في حركة دائبة وقتال مستمر وقد قطعوا أكثر من ألفيْ ميل في حملتين جديدتين ، والعدو في سوريا كثير والمدن محصنة ، ورجالنا ومطاياهم بحاجة إلى الراحة).

ولكن السلطان تيمور بيك ردَّ شكواهم بقوله :

« الأعداد لا تعني شيئاً ، فالنصر من عند اللّه ، وكم من فئة قليلة غلبت فئةً كثيرة بإذن اللّه » ، وأبى إلا الانسحاب بشكل سلمي لعلَّ الله يحدث أمراً ، ويرعوي السلطان بيازيد عن طغيانه ، وبدأ الجيش بالحركة إلى سوريا.

وحصل ما كان يتوقعه السلطان تيمور بيك ، إذ انطلق بيازيد مسرعاً إلى البرِّ الآسيوي للتصدي لقوات الخصم السلطان تيمور بيك ، ولكنه عاد بخفي حنين ولم يعثر لها على أثر.

وأخيراً :

وللأسف الشديد فقد آل أمر السلطان بيازيد وتصرفاته من سيء لأسوأ :

فكما يذكر ابن عربشاه أنَّ رسائل السلطان تيمور بيك بعد هذه الانتصارات أرسلها إلى أطراف ممالكه ، فيها رسالةً ابتُدئتْ بقوله :

« بحمد اللّه فتحنا حصن كماخ» وذكر في هذه الرسائل ابن عثمان وخطابه إليه وكيف ردَّ الأخير بجوابه الأحمق على السلطان تيمور ومن جملة هذه الرسالة وبعض ترجمتها[1] :

---

(1) صيغت هذه الرسالة مترجمة عن رحمة السلطان تيمور بيك بعامة المسلمين لئلا يغرر بهم المغرضون قبل المواجهة وجهاً لوجه مع السلطان بيازيد كاكتساب للرأي العام وما فيه من وقاية من إشعال نار الفتن بين ممالك المسلمين.

«..إنا ما جفونا السلطان بيازيد ولا تعدينا عليه، ولكن رققنا له القول وتلطفنا إليه وقلنا له يخرج من قروح مملكته مادة الفساد وهي أحمد الجلايري وقرا يوسف التركماني ، اللذان أخربا البلاد وأهلكا العباد؛ والرضى بالمعصية معصية، والإقرار على الكفر كفر، والفاسق المحروم البائس، شرٌّ من الفاجر الظلوم الملابس، فصارا في الفساد وزيريه وهو الأمير، وفي العناد صغيريْن وهو كبير، وعاشراه على ذلك، ووالياه فلبئس المولى ولبئس العشير، فأفسداه وما انصلحا، وخسراه وما ربحاه، فكأنه يعني شأنهم من قال :

ولا ينفع الجرباء قرب صحيحة إليها ولكن الصحيحة تجرب

ولم يزل على طُرقه العوجا، فأشبه لما أجارهم مجير أمِّ عامر العرجا(الضبع المريض ما أن يصح حتى يلتهم صاحبه)، فنهيناه فما انتهى، ونبَّهناه فما ارعوى، وأريناه العبر في غيره فما اعتبر، وناداه لسان انتقامنا من المخالفين الحذر الحذر، وكنا وضعنا اسمه مع اسمنا على عادة حشمتنا وأدبنا في المراسلات ورسْمِنا، فتعدى طوْره وأبدى جوره.. وأبدى كثرة الحماقة وقلة الأدب».

ويذكر شرف خان البدليسي عن أحداث سنة ٨٠٢هـ ـ ١٣٩٩ـ ١٤٠٠م:

توجه الأمير تيمور بيك مرة أخرى إلى بلاد إيران فأمضى الشتاء في قرا باغ أران.

وهذا هو ما يطلق عليه المؤرخون (غزوة السنوات السبع)، فلاذ السلطان أحمد وقرا يوسف بالفرار خوفاً من جيوش الأمير تيمور بيك والتجأا إلى بلاد الروم، وبينما هما في الطريق إليها، وقد بلغا بلدة بهنسا وقع بينهما خلاف (لا ريب بسبب طمع كل منهما بالآخر) فتخلف الأمير قرا يوسف وواصل السلطان أحمد سيره إلى بلاد الروم، حتى بلغ أنقرة وحظي بمقابلة السلطان يلدرم بيازيد خان الذي أكرم

وفادته وأقطعه أموال مقاطعة كوتاهية ليعيش منها. وفي خلال ذلك وصل الأمير قرا يوسف أيضاً فعين السلطان لمعيشته أموال مقاطعة آق شهر وشمله بعطفه.

وراح السلطان بيازيد يصور السلطان تيمور بيك لحلفائه في العراق وإيران ومصر بأنه :

(سفاك دم هتاك الحرم شر الأشرار ونار الفتنة مدَّعٍ للإسلام معتدٍ على البلدان الإسلامية).

وقد وجدت ادعاءاته الباطلة أرضاً خصبة بين شعوب فرغت رؤوسها من أدمغتها فلحقت كلَّ ناعق موتور.

وعلى كلٍّ:

زحف الجيش التيموري نحو قلعتي وسطان[1] ووان وكان عز الدين شير حاكماً على حكاري وواليًا على ولايتها، فتحصن في قلعة وان واستعد للنضال وامتشاق الحسام ضد السلطان تيمور بيك الذي بادر حالاً إلى ضرب نطاق الحصار على القلعة والتضييق على المحصورين فيها، ولما تبين لعز الدين شير استحالة المقاومة وعدم إمكان الدفاع اضطر إلى النزول بعد مقاومة يومين، واستسلم للسلطان تيمور بيك معترفاً بالعجز والانكسار ومستعداً لتقبيل العتبات السامية.

ولكن أحد أقربائه ناصر الدين أبى الطاعة ولبث في القلعة مصرّاً على القتال. وشرع في إيقاد نار الحرب وأغلق باب القلعة، ولكن الجنود التيموريين البواسل تسلقوا الأسوار واقتحموا تلك القلعة العاتية. وشمل السلطان تيمور بيك الملك عز الدين شير بعطفه السلطاني، وأعاد إليه ملكه الموروث عن آبائه وأجداده حسب الأصول السابقة على طريق التمليك، وأصدر مرسومه الكريم موشحاً بالدمغة التيمورية الحمراء بالإذن له بالعودة إلى مقر ملكه بالعزِّ والإقبال والدولة.

(١) مدينة على بحيرة وان بأرمينيا.

ودام حكمه وذريته من بعده حتى قيام الدولة العثمانية في تلك الربوع/٩٩٣هـ ـ ١٥٨٥م/.

فما أعظم حلم تيمور بيك! فكم وكم أمهل الهجوم على بيازيد المسلم رغم طغيانه الأرعن، فلم يهاجمه إلا بعد أن انقطعت كافة سبل التفاهم ولم يبق إلا الحرب، لكنه منحه فرصاً عديدة، وتحول مراراً عن مهاجمته لعله يحدث تغييراً، فلا تسفك الدماء، أو يحدث الله أمراً، فلا تقتتل الدولتان العظيمتان المسلمتان، فبدل الهجوم على بيازيد تحول إلى الهند، ثم بعد انتهاء أمرها لم يهجم على بيازيد، بل تحول للشام أيضاً.



بغداد في المرة الثانية

لما تنكرت بغداد لسلطة السلطان تيمور بيك وصارت بؤرة خطر كبير على مؤخرة جيوشه عزم التوجه إليها بنفسه، لا سيما بعد أن أخبره حفيده رستم بتعليمات السلطان أحمد الجلايري قبل فراره لاجئاً إلى بيازيد بأن تُسلَّم إليه بغداد في حال حضور السلطان تيمور بيك على رأس جيشه، حيث أن المقاومة آنذاك لا تجدي أبداً.

وبعد أن برح السلطان تيمور بيك الرها لجولة في منطقة الجزيرة العليا في بلاد الشام وتابع حركته، فمرَّ بماردين ونصيبين وعبر دجلة بالقرب من الموصل على جسور من القوارب والعبَّارات واستمر العبور أسبوعاً كاملاً من طريق ألطون كبري وجمجمال وشهرزور، فلم يصدّ ذلك الأمير فرج وأصرّ على الدوام بالحرب، وليعتقد الأمير فرج بصحة وجود تيمور بيك، جاءهم الشيخ بشر من الصلحاء في الأعظمية فخاطب أكابر الأهلين في بغداد ممن حضر على السور فحلف لهم أن هذا هو تيمور بعينه، فكذبوه وشتموه ورموه بالنشاب.

وقد سبقت السلطان تيمور بيك أنباء قدومه بموكبه المهيب، وبما حقق من انتصارات رهيبة على المماليك الجراكسة في بلاد الشام.

ولكن نائب الحكم في بغداد الأمير فرج اختار أن يعصي أوامر سيده السلطان الهارب ابن أويس، وأن يدافع ولا يُسلِّم المدينة، وخدع القوم بنفي وجود السلطان تيمور بيك بين جيشه. واتخذ إجراءات الدفاع عن بغداد على الرغم من وصية السلطان ابن أويس له بعدم قتال السلطان تيمور، وكان من جملة ما وصى به أن لا يغلق في وجه تيمور باب، ولا يسدل دون ما يرومه حجاب، ولا يشهر في وجهه سيف، ولا يقابل فيما يأمر به بلَمْ وكيف.

واستصرخ الأمير فرج حكام المدن المجاورة لبغداد، وتقاطرت إليه أمواج النجدات، ووقعت الاشتباكات بين المدافعين عن بغداد وقوات رستم حفيد تيمور بيك، فانهزم فرج واعتصم جنده بأسوار بغداد الشاهقة.

أعلم رستم جدَّه بعزم بغداد على المقاومة، فتحول عن قلعة ماردين وتقدم على وجه السرعة نحو الجنوب، ونزل بجوار قرية العقاب، وهناك نصب جسراً ومضى لجانب الرصافة فضيق الخناق وبدأ بحصار بغداد.

وكان الأمير فرج نائب بغداد يأمل بأنَّ الحرَّ الذي يجعل من وادي دجلة أتوناً مشتعلاً في الصيف سيحمل التيموريين على الانسحاب، وعلق سكان بغداد آمالهم بحجارة أسوار بغداد الضخمة وبمناعتها على الصمود ضدَّ الفاتحين.

ولكن السلطان تيمور بيك أراد إنهاء القضية بسرعة حيث أن جيوشه غدت في سهول جرداء حرُّها لا يطاق، وسيواجه نقصاً في الطعام والكلأ للخيل.

فأمر باستقدام قواته الرئيسية التي حشدها في تبريز احتياطاً لقدوم الأتراك وتعمد إخفاء وصوله للاشتراك بحصار بغداد، لأن معظم قواته أرسلها في حملات صغيرة في مختلف الاتجاهات، ومنها عيونٌ لمراقبة حركات الأتراك، كما أرسل أوامرَ إلى حفيده بير محمد في سمرقند للحركة باتجاه الغرب بقواته، وعندما وصل شاه روخ وفرقه العشرة من تبريز، أمر السلطان تيمور بيك بإجراء استعراض لفرسانه أمام أسوار بغداد، وعلى عزف الموسيقا العسكرية ودق الطبول وخفق الأعلام أخذ مائة ألف فارس تيموري يتحركون استعراضاً تحت أنظار السكان الذين كانوا فوق الأسوار، إلاّ أنّ تلك العمليات لزرع الرهبة في قلوب البغداديين لم تُجدِ معهم ولم يحملهم ذلك على الاستسلام دون مقاومة فيحفظون دماءهم.

ولكن بغداد كانت مفتاح العراق العربي، ونقطة تجمع للجيوش المعادية التي قد تأتي من مصر وآسيا الصغرى.

لذا ألقى بجسر من القوارب عبر دجلة، ليتمكن المحاصرون من الحركة من ضفة إلى أخرى ولمنع الإمدادات بطريق النهر لأهل القلعة. ونصبت آلات الحصار من منجنيقات وعرَّادات وأبراج، وأحاط بدائر المدينة بإحكام من كل جانب، وأمر بصناعة أبراج على مرتفعات قريبة ووضع فيها معدَّات حصار متنوعة بحيث صار من الممكن قصف بغداد بالقذائف من علٍ على الأسوار وإلى داخل المدينة. وكل ذلك وأهل بغداد يركبون الأسوار الشاهقة مصرِّين على النكوص بعهدهم السابق معه، والقتال غير مجدٍ إلا إزهاقاً لأرواحهم وتعريض الوادعين من السكان لويلات الحرب.

وفي هذه الأثناء عمد الملغِّمون بنقب الأسوار وتدميرها وفي غضون بضعة أيام انهارت أجزاء كاملة من الأسوار الخارجية، ولكن البغداديين أقاموا جدراناً داخلية جديدة من الحجر والملاط خلف هذه الفجوات، محمية بمقذوفات نارية.

طلب القادة من السلطان تيمور بيك وألحوا عليه بأن يأمر بهجوم عام، حيث أصبح الحرّ كابوساً لا يُطاق، والجنود التيموريون العاملون عند أسفل الجدران الساخنة تحت الحر المنعكس من الطوب المحروق كانوا بمثابة من يُشوى داخل درعه.

لم يوافق السلطان تيمور بيك على طلب قادته بهجوم عام، ومضت أيام وأيام ولا يزال أهل بغداد يعلقون آمالهم بالحر الشديد والأسوار الضخمة، عمدت معدات الحصار على القصف والدق على الأسوار لإجلاء المدافعين عنها، وكان الجنود ينسحبون إلى الملاجئ ما بين منتصف النهار وأواخر بعد الظهر، واعتاد البغداديون على ذلك البرنامج من العمل القتالي (صباحاً ومساءً) لشدة الحر، وبعد أربعين يوماً من الحصار ملّ الناس الحرب وضجروا من فقدان المأكول وأمضَّ بهم الحر.

وعند أحد الأبراج (برج العجمي) ترك المدافعون مواقعهم وذهبوا إلى بيوتهم لتناول طعام الغداء بعد أن أعياهم شدة الحر، وانصرف الجند التيموري كالعادة لخيامهم.

وتركوا خوذهم على عصي أسندوها إلى حائط سطح السور، إيهاماً للجند التيموري بأنهم لا يزالون في أماكنهم، ولكن الأبراج العالية التي أمر السلطان تيمور بإقامتها كانت تترقب مثل تلك الفرصة المتوقعة وسرعان ما اكتشفوا حيلة البغداديين الغبية (لو أنهم تغيبوا بتناوب لاعتُبر ذلك ذكاءٌ)، فتسلق التيموريون السور على سلالمهم عند هذا البرج وتمكنوا من السيطرة عليه بقيادة نور الدين بهادور، وفتحوا البوابة عند هذا البرج، هنالك أمر تيمور بيك بالهجوم العام .

ودق الطبل الكبير إيذاناً باندفاع جميع الفرق التي كانت موجودة في تلك الناحية إلى داخل أسوار بغداد ولم يشعر أهل المدينة إلا والجند التيموري داخل المدينة منتشرٌ في أرجائها، ولم تمضِ سويعات حتى تمكن التيموريون من السيطرة على ربع المدينة. واندفع البغداديون باتجاه النهر وصارت المدينة عبر النهر مفتوحة للهجوم ولم يمض النهار حتى كانت المدينة بأكملها بأيدي الجيش المظفر بخطط قائده الملهم السلطان تيمور بيك، بالطبع فقد لاقى حتفه من قام بالمقاومة. ومن جاء موادعاً سَلِمْ. كرجال الدين الذين احتموا بعسكر السلطان تيمور بيك فلم يمسَّهم ضرر.

حاول بعض البغداديين الفرار عن طريق نهر دجلة[1]، ومنهم من ألقى بنفسه في ماء النهر لينجو سباحة وتمكنت قوات الفاتحين من أسر الكثير منهم.

---

(1) **نهر دجلة**: ينبع نهر دجلة من مرتفعات جنوب شرق هضبة الأناضول في تركيا ليدخل بعد ذلك أراضي العراق عند بلدة فيشخابور، ويصب في النهر مجموعة كبيرة من الروافد المنتشرة في أراضي تركيا وإيران والعراق لعل أهمها وأطولها الخابور، الزاب الكبير، الزاب الصغير، العُظيم، وديالى. يلتقي بنهرالفرات ليكوِّنا شط العرب الذي يصب في الخليج العربي، يبلغ طول مجرى نهر دجلة حوالي ١٧١٨ كيلو متر.

ويذكر ابن عربشاه (**أن خلقاً ألقوا أنفسهم في الماء وماتوا غرقى، ومن جملتهم نائب المدينة فرج فإنه ركب السفينة وأبق، وجرحته السهام وانقلبت السفينة فأدركه ومن معه الغرق**).

ومن ثم قام السلطان تيمور بيك بزيارة مشهد الإمام موسى الكاظم ﷺ، ومضى إلى الحلَّة فزار مشهد الإمام علي ﷺ، وقضى نحو عشرين يوماً تثبيتاً للسيطرة على تلك الأنحاء وعلى واسط، واجتمع إليه علماء العراق وأذربيجان وغيرهم، وكانت مجالسه مشغولة بالمناظرات العلمية وما ماثل ذلك.

ويقول العزاوي[1]:

(**لا تزال المدارس آهلة والعلماء على أوضاعهم وفي أيام الفتن جُمع مال وافر إلى الأقطار الإسلامية الأخرى... فلا يعوَّل على النشرات والإذاعات أيام الحروب ووقت الفتن إلا بتروٍ وتوثق من صدق الخبر**).

ومن هنا ندرك طرفاً من رحمة السلطان تيموربيك وحلمه، لقد كان تريّثه في بدء الهجوم العام من قبل والذي دعاه إليه قادته العسكريون ولم يستجب لهم رغم الحر والقيظ سبباً في تجنب القتل لجنوده ولجنود بغداد المدافعين عنها. فلم يأمر بالهجوم العام إلاَّ بعد فتح باب بغداد وانسلال جنوده للمدينة، وبمفاجأتهم لأهلها تمّ تجنب سفك الدماء، حيث ولى مقاتلو بغداد على أدبارهم هاربين.

أما في فتح القسطنطينية، فقد هاجم قادة جيش محمد الفاتح المدينة قبل سقوطها فقتل خلق كثير، ولم ينجح الهجوم تلو الهجوم إلا بعد بضع وخمسين يوماً.

❁❁❁

---

(١) صاحب موسوعة تاريخ العراق بين احتلالين.

بعد المعركة

بغداد:

درست الأسوار وهدمت القلاع، و أرسلت أنباء سقوطها إلى جميع المدن في إمبراطورية السلطان تيمور بيك وإلى السلطان بيازيد.

أما السلطان أحمد عاهل بغداد الهارب فقد عاد إليها بعد مرور العاصفة وانسحاب الجند التيموري عنها.

ولّما توافد الخبر إلى مسامع السلطان تيمور بيك بعث على الفور رتلاً من الخيالة للقبض على السلطان ابن أويس، الذي تمكن من الفرار هذه المرة أيضاً ولم يعد بعد ذلك إلى بغداد قط، ولسان حاله يقول:

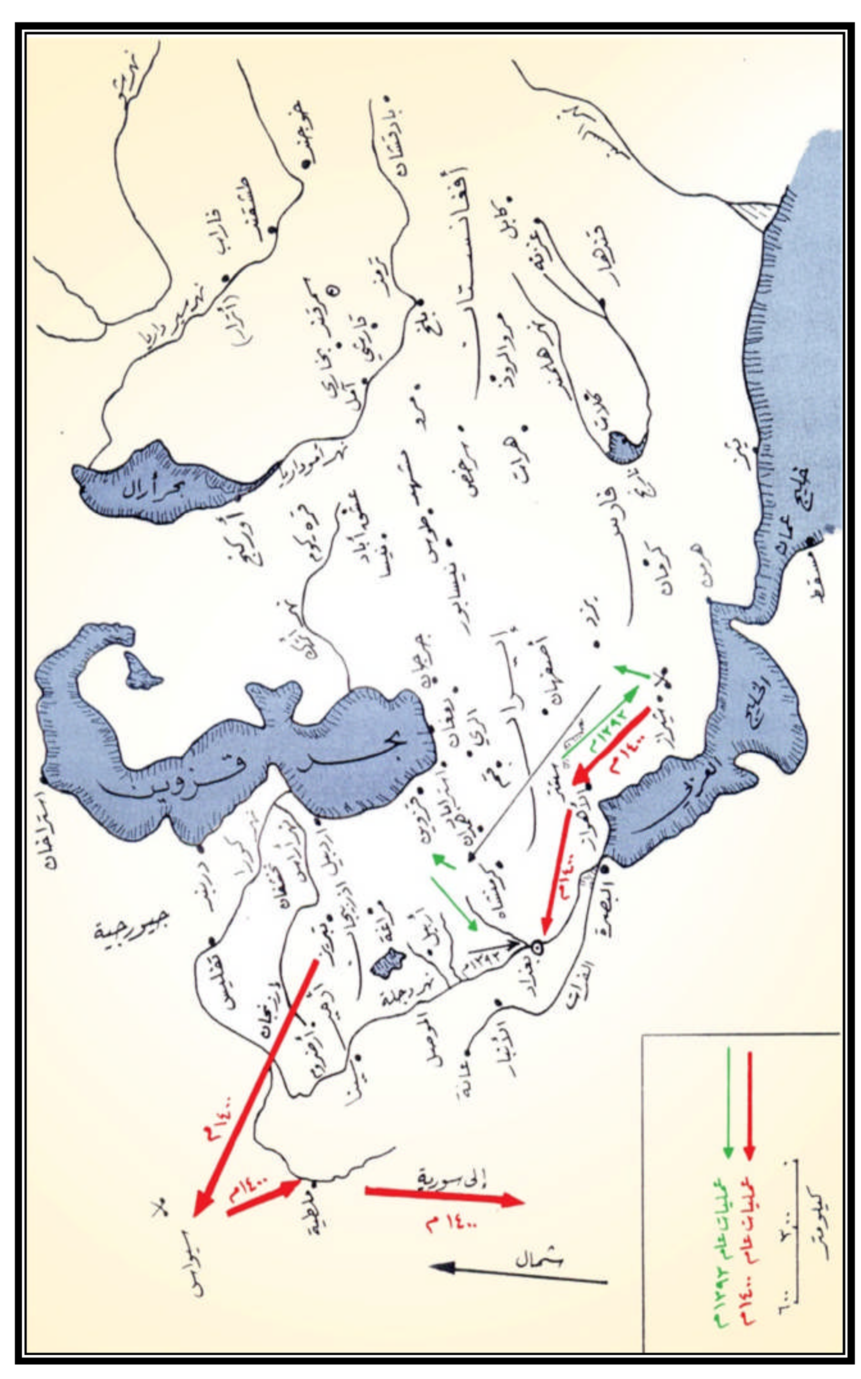
في الحروب ما جربت نفسي

ولكن في الهروب مثل الغزال

※※※

وحينما وصل خبر سقوط بغداد إلى سلطان المماليك بعث برسالة منه إلى السلطان تيمور بيك يعترف فيها بتبعيته له، ويتعهد بعدم السماح لأعداء الفاتح باللجوء إلى بلاده، إذ ظن أن مصر هي الضربة المقبلة بعد بغداد.

※※※



العمليات في إيران والعراق والأناضول

بعد بغداد

خلَّف السلطان تيمور بيك وراءه كوكب الجيش وقوافل الحصار في بغداد مسرعاً نحو الشمال إلى شهرزور ومنها إلى جفاتو جنوب بحيرة أورمية[1].

حيث قضى عشرين يوماً في عقد حلقات بحث ومناظرة في المسائل الشرعية مع علماء الدين على سائر عادته.

وأمر بتحرك شاه روخ معه إلى تبريز، وبعض قادته بجولة في ربوع جورجيا "بلاد الكرج"، إلى أن استقر به المقام أخيراً في قرا باغ حيث وافاه إلى هناك حفيده سلطان محمد على رأس عدد من قوات سمرقند.

وبتلك الجولات والاستقدامات التي قام بها السلطان تيمور بيك بجيوشه في بلاد الكرج ضمن عدم قيام أيِّ تحرك مناوئ ضدَّه في المؤخرة تمهيداً للحملة التي كان ينوي القيام بها تأديباً للسلطان العثماني بيازيد إن لم يثب إلى رشده.

كما أنه أغلق السبل أمام السلطان بيازيد للتقدم نحو تبريز التي كانت خالية من الجند التيموري أثناء حصارهم لبغداد.

❁❁❁

(1) **بحيرة أورمية**: تقع في الجزء الشمالي الغربي من إقليم كوردستان، مساحتها /٦٠٠٠كم٢/.

مع الأتراك العثمانيين مرة ثانية

كان السلطان بيازيد يتحرك ببطء شديد وراحة متنقلاً من أوروبا إلى آسيا.

حيث كان جلُّ جيشه مشاة مسربلين بالحديد لا يرى الناظر إليهم غير عيونهم. وقد قدر المؤرخون عدد الجيش بمائة وخمسين ألفاً من جميع الأمم التي كان يحكمها السلطان بيازيد، بعضهم من الأناضول وبعضهم من اليونان وبلاد الصرب وغيرها، وهؤلاء كانوا يشكلون عشرين ألف مسيحي بقيادة ملكهم (بيرلازار).

وقد تعود هذا الجيش النصر في كل غزواته وفتوحاته، وقد اعتزوا بالتضحية في سبيل سلطانهم بيازيد، الذي كان يترصد الحوادث وهو هادئ القلب ثابت الجنان واثقاً بالنصر.

ولم يكن انسحاب بيازيد من القسطنطينية من جراء تقدم السلطان تيمور بيك، إنما هو رضوخ صاحب القسطنطينية لشروط بيازيد من دفع الجزية، وبناء محلة للمسلمين في داخل المدينة، وأن يكون لهم فيها مسجد وجامع وقاضٍ يقضي لهم الخصومات فرضي بذلك حاكم القسطنطينية وفعله، واستمر ذلك إلى وقعة أنقرة، **أما السلطان تيمور بيك:**

فقد تحرك بجيشه وخاض في غضون أربعة عشر شهراً معركتين رئيسيتين وعدداً من الاشتباكات الصغيرة، وافتتح ست قلاع حصينة، وأنجز عملاً عسكرياً غاية في الروعة والإبداع يعلمه أهل الاختصاص.

وقد أزال من الساحة جميع حلفاء بيازيد قبل أن يظهر بيازيد من جديد.

وقد قطع السلطان بيازيد الأمل بالحصول على نتائج حسنة، ولم يترك للسلطان تيمور مجالاً للتعاون فيما بينهما ولو خيط عنكبوت يُبنى عليه الصلح.

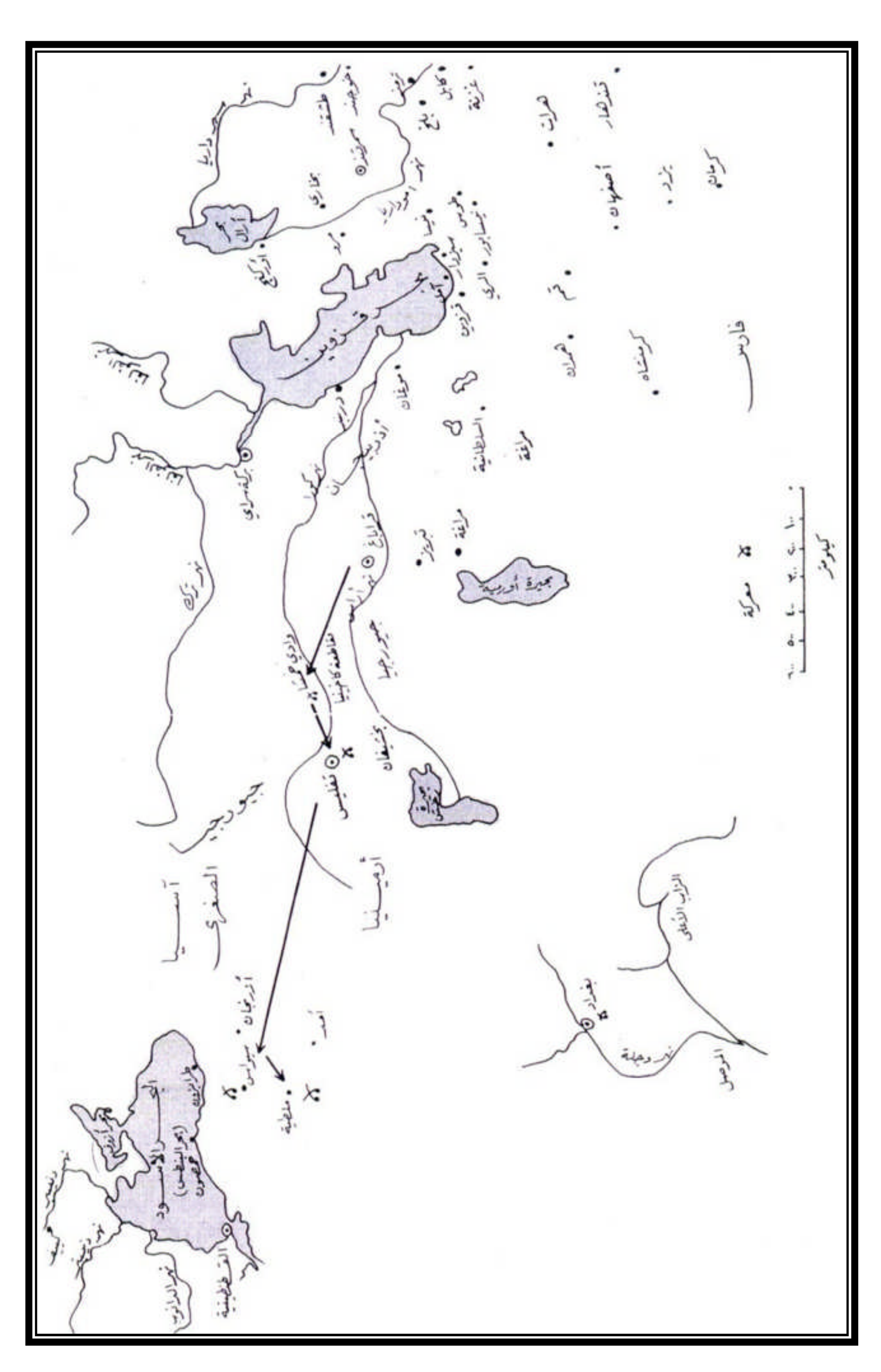
ولكن السلطان تيمور ماذا سيفعل تجاه حماقة السلطان بيازيد وشراسته؟.

هل سيعرّض المسلمين لنار الحرب؟..

بالطبع لا .. وقد دأب على حفظ دمائهم طيلة حياته، ولو قام بتأديب الحكام فإنه يحافظ على قوة المسلمين ويعمل دون انهيارها، والآن في مواجهة أقوى جيش مسلم، ماذا سيعمل لحفظ أرواح ألوف المسلمين؟!..

حاول بيازيد إقامة تحالف مع المماليك، وعرض أن يتقدم بقواته على سيواس ليغير على مؤخرة الجيش التيموري عندما كان يزحف على حلب، ولكن حادثة ملطية السابقة الذكر ضد المماليك حالت دون تحقيق التحالف، واستمرت القاهرة بعدائها للعثمانيين، بل كانت تعتبرهم أشدّ خطراً عليها من الفاتح السلطان تيمور بيك.

وبعد غياب السلطان تيمور بيك سنة ونصف تقريباً في عملياته الناجحة ضدَّ المماليك في سوريا وبقايا خصومه في العراق وأذربيجان وجورجيا والتي جعلته يطمئن على سلامة مؤخرته عاد إلى الظهور من جديد على رأس قواته وجهاً لوجه مع بيازيد سلطان الترك قادماً من بلاد الكرج.



العمليات في جورجيا والأناضول

رأينا أنه خلال هذه الفترة الزمنية عمد السلطان تيمور بيك أن يفرِّق عن السلطان العثماني بيازيد أتباعه من التتار والأتراك السلاجقة، وكانوا جلَّ جنده.

فبث دعاته بين الجند العثماني خلال سنة ونصف يعملون وفق خطة منظمة لاستمالة الأمراء التتريين والسلاجقة.

يذكر ابن عربشاه بعضاً من تلك المراسلات التي خاطبت الجنود التتار من الجيش العثماني حسب عقولهم، من جملة خطاباته ومراسلاته:

«إن حسبكم حسبي، ونسبكم متصل بنسبي، وإن بلادنا بلادكم، وأجدادنا أجدادكم، فكلنا فروع نبعة وأغصان دوحة، وإن آباءنا من سالف العصر، وغابر الدهر، نشؤوا في عش واحد ودرجوا في عش غير متعدد، فأنتم في الحقيقة شعبة من شُعبي، وغصن من أغصاني، وجارحة من جوارحي، وخالصتي وخلاّني، وأنتم لي شعار وباقي الناس دثار.

وإن آباءكم في قديم الزمان كانوا ملوك مماليك طوران، فانتقل منهم طائفة من غير اختبار إلى هذه الديار فاستوطنوها، وهم على ما هم عليه من الكرامة وشعار السلطنة وأسباب الزعامة لم يزالوا على هذا النشاط، إلى أن اندرجوا إلى رحمة الله تعالى وهم على هذه العزّة.

وكان المرحوم أرتنا آخر ملوككم وأكبر مالك في بلاد الروم أصغر مماليككم وليس بحمد الله في شوكتكم فلّهْ، ولا في كثرتكم قلة، فأنَّى رضيتم لأنفسكم بهذه الذلّة، وأن تصيروا مسخرين حتى كأنكم مسحورين! وبعد أن كنتم أكابر كيف صرتم أصاغر؟! ولستم بدار هوان ولا مضيعة وأرض الله واسع، ولمَ صرتم رقيقاً؟! ولا أدري ما العلّة لهذا،

ولاسبب ومن أين هذا الإخاء والنسب سوى عدم الاتفاق وانتقاء الاتساق، وعلى كل حال فأنا أولى بكم ، وأحق بعمل مصالحكم وتهيئة أسبابكم، وإن كان لا بدَّ من استيطانكم هذه التخوم وبيع تلك البلاد الفسيحة بمضايق بلاد الروم، فلا أقل من أن تكونوا كأسلافكم حكامها، مالِكي نواصي صياصيها، راقين سنامها، باسطي أيديكم فيها قابضين زمامها.

وهذا المهم:

إنما يتم إذا كُفينا هذه المنازلة، وقضينا الأرب من هذه المناضلة، وتمهد لنا الميدان، وارتفع من البَيْن ابن عثمان، فإذا خلا الجو من المنازع، وصفت لي في هذه البلاد المشارع، وظفرت بهذه الممالك، وسلكت فيها الطرق والمسالك، أعطيت القوس باريها، وأنزلت الدار بانيها، ورددت المياه إلى مجاريها، وجعلتكم ملوك قراها وصياصيها ومدنها وضواحيها، وقررت كل واحد منكم على قدر استحقاقه، فإن رأيتم أن لا تعينوا علينا، أو أمكنكم أن تتحازوا إلينا فاغتنموا فرصتكم ، وخذوا من انتهازها حصتكم، فإنكم قريبون منا صورة ومعنى، وأما الآن بظاهركم مع ابن عثمان وبباطنكم معنا، حتى إذا التقينا امتازوا وإلى عسكرنا انحازوا ».

ولا يزال فحوى كلامه غائصاً في أعماق أفكارهم ليردَّها عن أن تتبع ابن عثمان، حتى وافقوه على الانخذال عند الموافقة للنزال.

وقد انشرح صدر السلطان تيمور بيك ونزل عن كاهله ثقل كبير بحفظ دماء هؤلاء ومن سيقدم معهم متأثراً بانسحابهم.

❁❁❁

السير نحو العثمانيين

بدأ السلطان تيمور بيك بالتوغل غرباً حتى سيواس، ولا يزال دائباً في مراسلاته لبيازيد بقصد التفاهم والحفاظ على وحدة العالم الإسلامي، وقد أرسل للتباحث مع بيازيد بهذا الخصوص ، وعند وصوله إلى سيواس التقى بوفده العائد وبرفقته وفد عثماني يحمل ردَّ سلطانه وخلاصته:

(أن تيمور بيك ماكر خدّاع وغير مخلص في حديثه عن السلم والمصالحة).

وبهذا الردّ غدت الحرب قدراً محتوماً .

وفي سيواس وبحضور الوفد العثماني المذكور، أقام السلطان تيمور عرضاً لقواته استمر طوال النهار حيث مرت الفرق العسكرية بكامل أسلحتها، وكان لكل فرقة لون خاص يميزها ويلون راياتها وأسلحتها وثياب الجند وسروج الخيل، وكل ذلك لعلمه أن الوفد لا بدَّ أنهم من خبراء ميدان المعركة، وبقدومهم لا بدَّ وأن ينقلوا الصورة لسلطانهم بيازيد، فلعل تلك الخطة تُجدي معه فيرتدع عن تعاليه وطغيانه.

ولكن بيازيد الذي يعتبر نفسه ملك زمانه، وقد أعدَّ أجداده العثمانيون الصالحون الأبطال جيشاً كبيراً خير إعداد وتجهيز بالسلاح والعتاد، وورَّثوه هذا الجيش الأوّل في العالم قوة وتنظيماً وإخلاصاً، لذا لم يلقِ أذناً صاغية بل ازداد عتوّاً وتجبّراً .

جاءت الأخبار إلى السلطان تيمور بيك وهو في سيواس أن بيازيد يتقدم على رأس قواته متوجهاً إلى ملاقاته، وأنه الآن على بعد خمسة عشر يوماً من سيواس.

وحيث كانت الزروع في بلاد الروم قد استحصدت، والفواكه قد أدركت، فخاف بيازيد أن يلحق بلاده ضرر بهجوم عساكر تيمور بيك، فبادر إلى ملاقاته خارج حدود بلاده في ضواحي سيواس.

إذن بدأ بيازيد حقّاً بالاعتداء.

عند ذلك عمد السلطان تيمور بيك إلى الزحف نحو الأتراك العثمانيين وأوهمهم بذلك، وكان بيازيد واثقاً من نفسه وقوته، وأخذ يقيم احتفالات ضخمة وولائم عظيمة بانتظار خصمه السلطان تيمور بيك.

سُرَّ الأتراك لتقدم السلطان تيمور بيك نحوهم، فقوتهم الأساسية من المشاة تكون في أفضل حالاتها في الدفاع عادة، ولا سيما أن القسم الأعظم من آسيا الصغرى كان وعراً مشجراً ومثالياً لحرب المشاة .

لم يكن هناك للحركة غرباً سوى طريق واحدة تبدأ من سيواس، وكانت نظرة بيازيد أن السلطان تيمور بيك لا بدَّ له من ركوبها، لذا تحرك بجيشه بطيئاً بعيداً حتى أنقرة حيث أقام معسكره الرئيسي ثم عاد إلى الحركة متقدماً ليعبر نهر (هاليس) ويدخل منطقة الروابي والتلال لما وراء النهر، وعندئذ كفَّ عن التقدم ووضع قطعاته في أماكن ملائمة للقتال، وأقام ينتظر قدوم التيموريين إليه من سيواس.

انتظر ثلاثة أيام ثم أسبوعاً وجاءته كشافته ببعض سكان سيواس مع أنباء مقلقة بأنه لا يوجد للتيموريين سوى حامية صغيرة، وقد غادر السلطان تيمور بيك وجيشه هذه المدينة منذ وقت طويل متوجهاً إلى بيازيد.. ولكن السلطان تيمور بيك لم يكن بين سيواس وبين المعسكر التركي فأين هو إذن؟!.

طاش صواب بيازيد الذي فقد مكان تواجد خصمه بجيوشه الضخمة. إذ ليس من الحكمة في الأمور الحربية ألا تعرف موقع خصمك .

أرسل الكشافة يسابقون الريح على خيولهم يبحثون خلال التلال والأودية عن أثر للتيموريين وعادوا بخفَّيْ حنيْن. لقد اختفى جيش قاهر العالم عن أعينهم في مكان ما وانقطع خبرهم ومعهم فِيَلَتُهُم.

كان الموقف جديداً بالنسبة للسلطان بيازيد، لم يعرف مثله من قبل رغم تمركزه على تشكيل القتال في أنسب المناطق الوعرة لمقاتليه في قلب المنحنى الكبير لنهر هاليس.

انتظر بيازيد حيث كان مصمماً على ألاَّ يبرح مكانه إلى أن تصله أخبار محددة عن جهة التيموريين. وفي فجر اليوم الثامن ظهرت فجأة جمهرة تيمورية منقضة على طلائع استطلاعية جهة ميمنة بيازيد فأخذت أسرى وعادت لتختفي دون أن تخلِّف أثراً.

واعتقد الأتراك واثقين بأن تيمور بيك إلى الجنوب منهم، وسرعان ما تحرك بيازيد بجنوده في ذلك الاتجاه، وبعد مسير يومين لم يلتقوا بأحد من التيموريين.

وهنا عمد بيازيد فأرسل طليعةً من خيالته عبر النهر للبحث والاستطلاع بقيادة ابنه سليمان. عاد سليمان ولم يغب طويلاً ليقول إن تيمور بيك لا يريد الآن مجابهةً مع الأتراك كما يبدو، وأنه يتحرك مسرعاً باتجاه أنقرة خلف العثمانيين .

انتفض السلطان بيازيد من جموده، وانطلق للحال يسير على الأثر الذي خلفه الجيش التيموري باتجاه معسكره الرئيسي قرب أنقرة، ولكن جيشه المسربل بالحديد كان يتحرك بسرعة على رجليه، وجيش السلطان تيمور بيك تحرك سابقاً بأمان من القتال عدْواً بطيئاً على خيله براحة وتؤدة.

❁❁❁

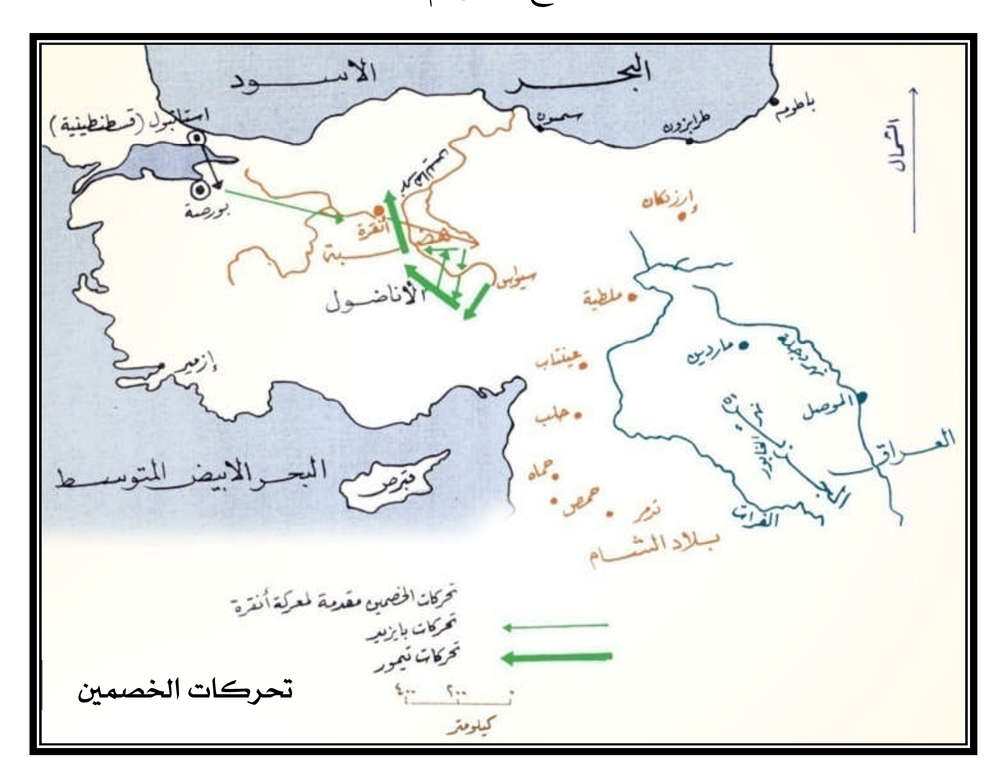
كيف أخفى السلطان تيمور بيك جيشه؟!...

ما فعله السلطان تيمور بيك من أجل ذلك كان بسيطاً إلى درجة تبعث على المرح والفكاهة. فقد درس منطقة الروابي والتلال الواقعة غرب سيواس ووجد أنها غير مواتية لحركة خيالته، ولذلك وعندما قرر الحركة اتجه جنوباً وسار على طول وادي نهر هاليس جاعلاً النهر بينه وبين الأتراك طوال الوقت، وهكذا كان يتحرك جنوباً غرباً حول الانحناءة الخارجية في حين كان بيازيد ينتظر في وسطها.

وهو يسير بجنده على ضفاف النهر بالقرب من أنقرة حيث المرعى حسن والكلأ كثير، وحين رأى طبيعة الأرض غرب سيواس وصعوبة الحركة فيها لخيالته راح عندئذ يستجلب خصمه بيازيد إليه. فأرسل بعض طلائعه لاستجلاب الجناح الأيمن لبيازيد وتحقق له ما يريد، حيث قامت بعملها وانطلقت مسرعة إلى حيث يقيم السلطان تيمور بيك في قرية (كوش حصار). وهناك عقد مجلس الحرب فجمع ضباطه وأحفاده ليظهر خطته قائلاً لهم: «**بميسورنا أن نفعل أحد أمرين: فباستطاعتنا أن نتوقف هنا فنريح خيلنا وننتظر قدوم الأتراك إلينا وهم متعبون، وباستطاعتنا أن نبتعد متوغلين في بلادهم ونحملهم على ملاحقتنا. إن جيشهم معظمه مشاة والسير سيتعبه وينهكه. وبعد أن سكت برهة قال: وهذا الرأي الأخير أصلح الآراء وهو ما سنفعله**». ومن ثم تحرك مغطياً خلفه بمؤخرة قوية، ومرسلاً أمامه فرقتين مع تشكيلة الهندسة لاختيار أماكن التعسكر اليومي، وحفْر الآبار فيها وجمْع الأعلاف لما يكفي الخيل بكاملها.

وقد تعمّد أن يخفي قواته وهي تتحرك عن أعين العثمانيين، وحاول أن يجعل الجبال دائماً فاصلة بين القوَّتين، مخفياً جهة سيره عن قوات العثمانيين، وسار بطرق فرعية

متعرجة وغير مطروقة، لم تطرقها الأقدام تحقيقاً لهذه الغاية، وقد عملت القوات التيمورية على إخلاء الأقوات أمام القوات العثمانية. فسلبهم خيرهم في عقر دارهم، فأصبح بخططه العبقرية العسكرية وهو الغريب مالكاً، ومالكو الأرض غرباء عطاش جياع، وقد أخذ منهم تعب المسير ومشقة الترحال في أتعس حال وكأنهم قاتلوا دونما قتال. وتقدم الجيش التيموري حتى وصل ضواحي أنقرة، فاستولى على معسكر قاعدة بيازيد الرئيسية. وكان خالياً إلا من الأتباع الذين تُركوا فيه، واستقر رجاله في خيام الأتراك. أمَّا أنقرة فقد أغلقت الأبواب واستعدت للدفاع، فأعطى السلطان تيمور بيك أمره بمهاجمتها وأمر ببناء سد على النهر الذي يخترق المدينة محولاً بذلك مجراه، بحيث صار يجري خلف معسكره، وبذلك لم يعد هناك ماء صالح لاستعمال جيش بيازيد عند وصوله سوى ماء أحد الينابيع ولكن تمَّ ردمه.



تحركات الخصمين

خسارة السلطان بيازيد المعركة قبل المعركة



زي انكشاري

علم السلطان تيمور بيك باقتراب بيازيد وبأنه صار على بُعد/٢٠كيلو متراً/ فتخلى عن محاولاته لفتح أنقرة وحصَّن معسكره واحتفظ بنيرانه مشتعلة مضيئة وعسعست خيالته في السهل طوال الليل، ولكن الأتراك لم يظهروا إلا عند الصباح منهكين مرهقين، لقد مشوا مسرعين طوال أسبوع مع قليل من الماء والأقل من الحبوب على أرض أخلتها القوات التيمورية من الأقوات، إذ كان على السلطان بيازيد أن يسرع بجيوشه مرة ثانية باتجاه الغرب فقطع النهر من جديد باتجاه أنقرة، خوفاً من أن يترك القوات التيمورية تجتاح بلاده من وراء ظهره وتقطع عليه خطوط تموينه ونقاط استناده، لذا بقيت الجيوش العثمانية تسير مسرعة ثمانية أيام تحت أشعة فصل الصيف في شهر تموز، حتى أضحى عسكر ابن عثمان كالموتى من التعب ونقص الطعام والنصب.

كانوا منهكين يعذبهم العطش وحرُّ السهل المحرق، وقد وجدوا التيموريين قد تربَّعوا في قاعدتهم مع مؤونة وفيرة، والأسوأ من كل ذلك أنه لم يكن هناك ماء يمكن الحصول عليه لإرواء ظمئهم إلا من خلف خطوط الجيش التيموري.

وبذلك اضطر بيازيد جبراً إلى فعل ما كان يتحاشى فعله، وهو الهجوم وقذف خيالته ضد خيالة التيموريين المتراصَّة المتكتلة، وحالة جنوده المعنوية منهارة انهياراً كلِّياً، وقد أنهكهم التعب والجوع والعطش، وماذا عليه لو جنح إلى السلم آنذاك!.

إنه الكبر والتعجرف...

لقد تفوق عليه السلطان تيمور بيك بالمناورة واقتيد إلى أنقرة كما لو كان ذلك بواسطة حبل يشدُّه ويسحبه، وبذلك خسر المعركة قبل أن يمتشق حسامه من غمده.

❁❁❁

وأبى إلاَّ المعركة

وجد السلطان بيازيد نفسه يحارب خصمه في موقف يعرف معه أنه لن يبلغ النصر الذي يريده فيه، وعرف أيضاً أن السلطان تيمور بيك حمله على هذا الجري السريع ليصل إليهم وجيشه خائر القوى مضطرب النفس شديد الضعف.

وعلم أن هجومه سيكون بواسطة فرسانه والفرسان التيمورية أشدّ منهم بأساً وأكثر عدداً فلا بدَّ لهم والحالة هذه من النصر عليهم. ولكن ما العمل؟!.

وقد أجبره السلطان تيمور بيك على هذا الموقف ليطلب السلم ويجنح إليه، ولكن أبى عليه كبره إلا المعركة وأعماه رغم ظهور نتيجتها الفاشلة.

ويقول المؤرخ يزدي:

(إن السلطان تيمور بيك كان يتهيب من المعركة مع السلطان العثماني بيازيد المسلم ومن قتل المسلمين، ولذلك قضى ليلة المعركة بكاملها في الصلاة والتضرع إلى الله).

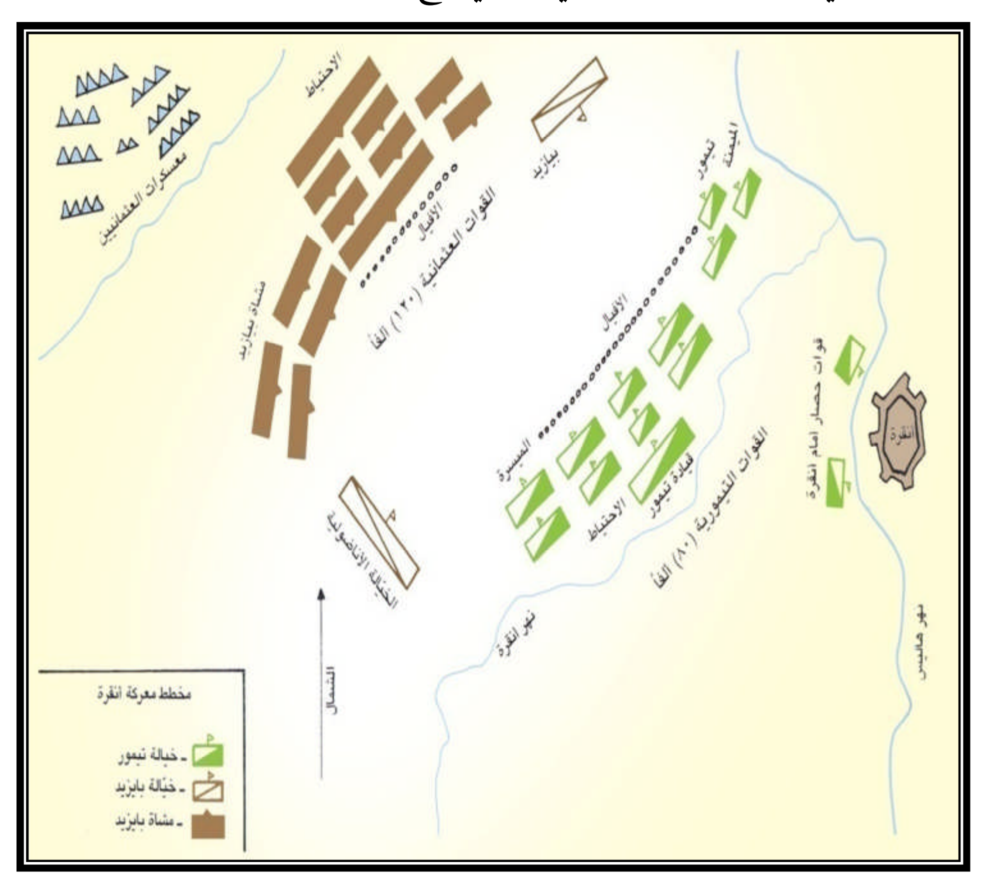
نعم كان يتهيب لا مخافة منه، ولكنَّ شماتة الكفار وكسر شوكة المسلمين قد أقضَّت مضجعه، وكان لزاماً عليه تأديب ابن عثمان المتعجرف المُصرّ على القتال رغم كل الظروف التي جعله فيها فلم يرعوِ.

أشرف في صباح اليوم التالي على ترتيب العساكر بنفسه وقد حشد السلطان بيازيد جنده بتشكيلة القتال.

وابتدأ الأتراك العثمانيون هجومهم على دق الطبول وصخب الصنوج، في حين كانت الكتائب التيمورية تنتظر بصمت هجوماً عاماً شاملاً.

بقي السلطان تيمور في مرقبه حتى اللحظة الأخيرة مع قوة احتياطية بإمرته، وعمد أن تكون جبهات القتال دفاعية لا هجومية صاعقة.

ودارت المعركة بإشراف قادته، كان الأمير محمد سلطان حفيده يقود القلب ومعه جيش سمرقند والفيلة الاثنان والثلاثون، وقد درِّعت هذه الحيوانات بجلد مصبوغ للتأثير المعنوي، وليس لغرض تعبويّ من أي نوع كان.



مخطط لمعركة أنقرة

وعلى ميسرة التيموريين فشل الأمير سليمان بن بيازيد إثر هجومه على رأس الخيالة التركية بينما كانت هذه الميمنة التركية تعمل على لمِّ شعثها وإعادة تنظيم صفوفها، حملت الميمنة التيمورية بقيادة نور الدين بهادور أفضل قادة السلطان تيمور بيك على الميسرة العثمانية في هجوم صاعق، فتضعضعت هذه الميسرة وتقهقر عشرون ألفاً من القوات الصربية بقيادة لازار فيكوفيتش.

وفي تلك اللحظة اندفعت من عساكر ابن عثمان التتار والأتراك السلاجقة الذين كان الاتفاق معهم بشكل مسبق واتصلت بعسكر السلطان تيمور بيك كما رسم أولاً وأشار، وكانوا هم صلب العسكر والأوفر من عساكر ابن عثمان والأكثر، وانضمت إلى السلطان تيمور بيك الإمارات التركية أيضاً التي انضوت قبل برهة وجيزة تحت لواء الحكم العثماني إثر فرار القوات الصربية عندما شاهدت أمراءها السابقين يقاتلون في جيش السلطان تيمور بيك، منها طوائف كرميان ومنتشالو والتتار التي استاءت من السلطان وفتور همة جنده، ومع ذلك دام القتال المرير مع السلطان بيازيد وفرقه حوله من حراسه فقط من مطلع الشمس حتى مغربها بين أبطال الحرب، وقتل أثناء المعركة مصطفى جلبي بن سلطان العثمانيين، ولاذ بعض طوائف الجيش بالفرار.

ولما رأى سليمان بن بيازيد وأخوه الصدر الأعظم ما فعله جند أبيهما، علما أنه حل بأبيهما البوار، فأخذا باقي العسكر من الفرسان وتركا ميدان القتال وتأخرا إثر تحرك الخيالة التيمورية جهتهما ولم ينظرا خلفهما حتى بروسا.

نعم أُوقف الهجوم العثماني ولم يكد يبتدئ، عندما تأكدت سيطرة نور الدين على جناح الصربيين في الميسرة التركية، وعندئذ جاء الأمير محمد عدْواً على جواده

ليسأل جده الإذن بالزحف مع قوات القلب لمهاجمة مشاة بيازيد المتكتلة، فرفض السلطان تيمور بيك. وبدلاً من ذلك فقد أمر حفيده بأن يأخذ فيلق سمرقند وفرقة من المغاوير وينطلق حالاً لدعم الميمنة التي كانت قد بعدت وتجاوزت إمكانياتها، وهربت القوات الصربية إلى أماسيا.

سرعان ما دبَّ الوهن في الجيش التركي ولم يستطع ثباتاً أمام جموع التيموريين. وانفرد السلطان العثماني مع مشاته دون تخندق من أي نوع، وأطبقت عليه الخيالة التيمورية من اليمين واليسار، وعندئذ استلم السلطان تيمور بيك قيادة القلب، وأخذ يتقدم.

لم تستطع مشاة الأتراك أن تقوم بأية مساهمة جدية مُجدية في هذه المعركة، بل كانت كمن هلك قبل أوانه، حقاً لقد كان وضعها ميئوساً. وسلطانها بيازيد بلا حول ولا قوة حيال أية مناورة يقوم بها ضدَّ قاهر العالم. هربت القطعات التركية الواحدة تلو الأخرى، فكانت معركة بلا نزيف دماء يُذكر بين المسلمين. وصمد السلطان بيازيد عند إحدى المرتفعات مع ألف من جنوده العثمانيين، واستمر يقاتل قتال اليائس حتى عصر ذلك اليوم، وكانت أوامر السلطان تيمور أن يؤتى به أسيراً[1]، وقبيل المساء امتطى بيازيد وبعض أتباعه خيولهم وحاولوا النجاة بأنفسهم خلال الصفوف التيمورية، ولكنه طورد ورُمي جواده بسهم فخرَّ وراكبه أرضاً، فقبض على بيازيد وشُدَّ وثاقُه، وأخذ إلى فسطاط السلطان تيمور بيك عند غروب الشمس، وقد وقع أسيراً في يد السلطان محمود في غروب اليوم التاسع عشر من شهر ذي الحجة من السنة المذكورة، فحمله إلى السلطان تيمور بيك بإجلال واحترام.

كما ورد عند البدليسي شرف نامه.

---

(1) وقد أشار مؤرخو الشام ومصر إلى كمين أعده السلطان تيمور بيك لبيازيد في آخر النهار ومع ذلك فقد ثبت السلطان العثماني مقاتلاً حتى فقد أكثر من نصف جنده الانكشارية الألف.

ضيف أم أسير

لما ولج الحراس خيمة السلطان تيمور بيك مصطحبين معهم سلطان العثمانيين بيازيد مقيداً بالسلاسل، ظهرت الابتسامة على وجه السلطان تيمور بيك لما رأى بيازيد مكبلاً.

فقال السلطان بيازيد: (**ليس من الخُلق أن تبتسم أمام شخص قدر الله عليه هذا**).

فأجابه السلطان تيمور :

« إني أعرف ما سيكون مصيري ومصير رجالي لو تمت الغلبة لك».

فلم يُحر بيازيد أية إجابة، ثم عاتبه قائلاً :

«إنك رأيت ما زرعت، كنت أودّ أن أصافيك فاضطررتني للحرب كارهاً... وهذه نتائج عنادك، كنت أفكر في نصرتك لحرب أعدائك، ولو كانت المخذولية أصابتني في حربك لأريتني وجيشي ما لا يدور في الحسبان، كن واثقاً سأحتفظ بحياتك وأؤدي واجب الشكر لله».

هذا وكان أمله أنه سيكون قوة ظهر له على أعدائه، وأنه ركن ركين له في حراسة مملكته من الأعداء، ثم أمر تيمور بيك بفك قيوده وأجلسه إلى جانبه ، طلب بيازيد من السلطان تيمور بيك أن يبحثوا عن أولاده فجاؤوه بموسى فقط، لأن البقية من أولاده تمكنوا من الهرب والنجاة.

ومن ثم فتحت القوات التيمورية مدينة "**بورسا**" عاصمة السلطنة..

والآن، أحقاً وضع السلطان تيمور بيك بيازيد سجيناً في قفص؟!..

نشرت بعض المراجع قصة حبس بيازيد في قفص حديدي، وأصبحت هذه القصة غير مقبولة الآن إذ لا يوجد في المراجع ما يشير إلى هذا، بل على العكس تشير إلى إكرام تيمور بيك لبيازيد[1] وأن الذي دعا بعض المؤرخين إلى ذكر هذه القصة ما ورد في عجائب المقدور لابن عربشاه من قوله المسجوع (**وقع ابن عثمان في قنص وصار مقيداً كالطير في قفص**)، ونقلها عنه من بعده من المؤرخين دون تمحيص ولا تحقيق، مع أن الرواية أدبية مجازيّة، أي أن بيازيد غدا أسيراً كالطير في قفص وهو تشبيه، فلا قفص كان هناك ولا سجن.

كما جاء في كتاب الأعيان: ليس لهذا أثر في التواريخ التركية على ما قيل.

الحقيقة أن بيازيد أصبح مريضاً بعد هزيمته، لذلك كان ينقل في محفة، وكان السلطان تيمور بيك يبعث إليه بالأطباء لمعالجته، وقد استمر يعامله بلطف وأدب.

أما السلطان العثماني الذي حطمته الهزيمة وأصابت مقتلاً في نفسه وكبريائه فإنه لم يعش طويلاً ومات في الأسر بعد بضعة أشهر من غمّ وهم إثر هزيمته.

وأسرع سلطان المماليك فرج إلى إرسال تهنئة إلى الفاتح الطوراني، وفيها يكرر اعترافه بتخلي دولة المماليك عن زعامة العالم الإسلامي والتسليم بهذه الزعامة للسلطان تيمور بيك، وفي هذه الرسالة يقول: وقبلنا (أبوة تيمور بيك) على مدى الأزمان وتوالي العصور .

والآن مع الأسير بشيء من التفصيل:

إذن: حُمل السلطان بيازيد مكبل اليدين إلى تيمور بيك الذي شمله بعطفه، فأمر بفك قيوده وقرَّبه منه في مجلسه وفاتحه على سبيل المعاتبة الرقيقة بأنه قد نصحه أن يلتفت

---

(١) المرجع: (**Gibbon**).

إلى ردِّ أعدائه الشماليين إلى الحق، ولكنه أبى واستعلى ورفض أن يعيد قلعة كماخ التابعة إلى حاكم أرزنجان وآوى إليه قرا يوسف التركماني الذي أظهر العناد والمضايقة، وختم تيمور بيك معاتبته لبيازيد بقوله:

« إن كل ما حدث كان مقدَّراً حسب إرادة الله».

ولما سمع بيازيد الحق ولمس كرم تيمور بيك شعر بالخجل والمذلة، واعترف بأخطائه وعرض على السلطان تيمور بيك أن يدخل في طاعته مع أولاده طيلة حياته.

أمر تيمور بيك لأسيره بثياب لائقة جديدة، ولما شاهد بيازيد من مكارم تيمور بيك دعى له وأثنى عليه ثم أخذ يسأل عمَّا حلَّ بأولاده خلال الهرب.

لذلك أصدر السلطان تيمور بيك الأوامر بالبحث عنهم وأحضر له بعد عدة أيام ابنه موسى ليقيم إلى جانب أبيه، وأقيمت لهما خيمة إلى جوار خيمة السلطان تيمور بيك.

قام محمد الجلبي بن بيازيد بمحاولة لإنقاذ أبيه السلطان حيث حفر نفقاً تحت الأرض للوصول إلى خيمة أبيه الأسير وباءت المحاولة بالفشل، ولكنها لاقت استحساناً عند بيازيد، فأصدر تيمور بيك أوامرَ بتشديد المراقبة نهاراً على بيازيد وتقييده ليلاً فقط بالسلاسل.

وبعدها لم تكن معاملة السلطان تيمور بيك على منوال واحد، فكان أحياناً يلاطفه ويباسطه ويترقق له في الكلام، وأحياناً يستهزئ به، وكان يهدف من تلك التربية النفسية أن يظل بيازيد معلقاً بين الرجاء والخوف، يشدد عليه حيناً بالكلام ويطيِّب خاطره حيناً آخر وَيعده بالعودة إلى حكم سلطنة الروم، وكانت تصل الأخبار والأنباء بالمنازعات التي اشتدت بين أولاده على ما تبقى من أشلاء الدولة العثمانية.

وقد وقف السلطان تيمور بيك عند نصائح بيازيد خلال أسره في إدارة البلاد، حيث لاقت استحساناً عنده. منها ألا يهدم القلاع والحصون وألا يُعمل السيف بالأتراك العثمانيين لأنه لا يستفيد من هذا العمل إلا البيزنطيون وحلفاؤهم، ولما وقعت زوجة بيازيد السلطان العثماني الصربية (دسبينة) شقيقة ملك الصرب في الأسر وأسر معها ابنها، أرسلها إلى بيازيد الذي ما زال في كوتاهية.

بالرغم أن السلطان تيمور بيك نزل به المصاب إثر وفاة ابنه محمد في معركة أنقرة بسبب الجراح فإنه لم يغير معاملته لأسيره العزيز، ولم ينسَ له فضائله بمجاهدة المعتدين.

وكان الأمير محمد مطمح أنظار السلطان تيمور بيك، ومحبوب الجيش لشجاعته وجرأته وحسن أخلاقه، ويصفه ابن عربشاه:

(أنه كان للفضلاء ملاذاً وللعلماء معاذاً مخايل السعادة في غضون جبهته لائحة وبشائر النجابة من أسارير طلعته واضحة):

في المهد ينطق عن نجابة جده　　　　أثر السعادة لائح البرهان

وعلى كلٍّ فقد أرسل السلطان تيمور بيك إلى سليمان بن بيازيد الذي استقر في حكم (الروم إيلي) يطالبه بدفع ما ترتب عليه من أموال باعتباره تابعاً له. وحضر سليمان إلى معسكر السلطان تيمور محملاً بالهدايا وقدم له الخضوع والطاعة، ورجاه أن يعفو عن والده وأن يعامله معاملة حسنة، وسلم السلطان تيمور بيك لسليمان كتاباً بتوليته على بلاد الروم إيلي، ويحدثنا **شرفنامه** عن أحداث سنة/ ٨٠٥ / هـ/١٤٠٢/ م، فيقول:

أمضى الأمير تيمور بيك الشتاء في آيدن إيلي في ولاية الأناضول.

هـذا وكـان قـد أعـاد كـل ولايـة أخـذها مـن السـلطان إلى صـاحبها الأول فأعـاد قسطموني إلى اسفنديار أوغلي.

وقرمان والروم إلى قرمان أوغلي.

وكذا كرميان إيلي ومنتشا إيلي إلى واليهما.

واعتزم إطلاق سراح السلطان بيازيد وإعطائه ولايته الموروثة.

غير أن الأنباء وصلت في يـوم الخميس الرابـع عشـر مـن شـعبان السـنة المـذكورة أن السلطان قد توفي إلى رحمة الله في بلده آق شهر بمرض ضيق التنفس والخنّاق:

إثـر أخبـار النـزاع بـين أولاد بيازيـد البقيـة الـتي سـببت لأبيهم تـدهوراً في صـحته، وأصيب بمرض الخناق وضيق التنفس مما أدى إلى وفاتـه /٩آذار ـ ١٤٠٣م/ في مدينـة آق شـهر في الأناضـول، وكـان تيمـور بيـك في ذلـك الوقـت في ضـواحي إزمـير، ولـما سمع بنبأ وفاته حزن وبكى علـى بيازيـد، وسمـح لموسـى بـن بيازيـد أن ينقـل جثمـان والده حيث دفن في بورصة، وأطلق سـراحه وفـوض إليـه حكـم مـا تبقـى مـن الدولـة العثمانية في بورصة وما حولها.



تدبيرات قبل الرحيل

سعى السلطان تيمور بيك لإعادة الإمارات التركية التي كان العثمانيون قد قضوا على استقلالها إلى الوجود، وأطلق من سجون العثمانيين من كان فيها من أمراء وحكام تلك الإمارات، وأعادهم إلى مناصبهم السابقة، وكان بعض هؤلاء الأمراء أبناء علاء الدين بن قرمان قد قضوا في السجون مدة اثنتي عشرة سنة، وهم أبناء عمة السلطان بيازيد شقيقة أبيه مراد بيك، وكذلك كان الحال مع أمراء منتشا وآيدين وكرميان وصاروخيان، وثبَّت السلطان تيمور بيك تابعه المخلص طهارتن على حكم أرزنجان وزاد في أملاكه، وفعل مثل ذلك مع تابعه الآخر عثمان قرايلك حاكم ديار بكر وزعيم تركمان الغنمة البيضاء.

يفهم من أقوال ابن عربشاه أن السلطان تيمور حاول أن تكون سلطته في بلاد الروم على درجة أقوى مما كانت عليه الحال في بلاد القبجاق، فكان يطلب من الحكام الذين أقامهم أن يضربوا السكة وكذلك الخطبة.



وفود اسفنديار على تيمور بيك

كان الأمير اسفنديار أحد ملوك بلاد الروم وفي ملكه مدينة سينوب[1]، وهي عاصمته وقسطمونية وسامسون وغيرها.

وكان مستقلاً في الحكم وبينه وبين الملوك العثمانية عداوة موروثة، ولما بلغه ما فعل تيمور مع أولاد ابن قرمان والتتار وقرايلوك وطهارتن صاحب أرزنجان والأمير يعقوب بن علي شاه صاحب كرمان ومع حكام منتشا وصاروخيان من الإحسان لـمَّا لم يقاوموه. وعلم أنه لا يهيج من أطاعه، وفد عليه فقابله بالإكرام وأقره على ما في يده، وكان آخر من وفد عليه من الملوك.

ويذكر ابن عربشاه أن السلطان تيمور بيك لما أخرج مال ابن عثمان وغيره من الذخائر، استصفى لخزائنه ما كان إرثاً وكسباً لملوك الروم، وحرر البحث في مسائل المغانم فاستقصاها وانبثت جنوده في آفاقها، أما العناصر المغولية التي كانت تدعي الإسلام في جيش بيازيد، وانسحبت عند المصادمة ولقاء المعركة للعصبية القبلية رغب السلطان تيمور في نقلهم إلى حدود ما وراء النهر إلى بلاد الجتا، بحجة أن تلك المناطق الأصلية التي نشأ بها آباؤهم وأجدادهم بعد أن خضعت بلاد الروم لسلطة تيمور بيك، ولم يعد هناك مبرر لبقائهم في تلك البلاد، واستطاع السلطان تيمور بيك إقناع هؤلاء بالانتقال مع نسائهم وأطفالهم إلى مناطقهم الأولى في أواسط آسيا عن طيب خاطر، وهناك تم تفريقهم ولم يجعل لهم رأساً "زعيماً"، وكان ذلك نتيجة الوقوف على نصائح بيازيد فيهم بأنهم مواد الفسق والفساد وهم على المسلمين أشد ضرراً من عدوهم وبلادهم أولى بهم. كما ذكر ابن عربشاه، فكيف قبِل بيازيد بهم من قبل؟!.

---

[1] **سينوب**: مدينة حصينة في شمال الأناضول على البحر الأسود.

معركة إزمير[1]

تنقّلت القوات التيمورية في ربوع الأناضول ورضخت البلاد للحكم التيموري إلا إزمير التي كانت تحت حكم الصليبيين من فرسان القديس يوحنا، بعد أن أخذوا رودس ومدّوا نفوذهم إلى عدد من الجزر الأخرى في بحر إيجة.

وقد رفض حكام إزمير الاستسلام للسلطان تيمور ودفع الجزية.

وذلك بعد أن وجه السلطان تيمور بيك رسولاً إلى إزمير يحمل طلباً بأن يعتنق السكان الإسلام أو يدفعوا الجزية أو يتعرضوا إلى الإفناء نظراً لسابق شقاوتهم.

وكان الصليبيون مطمئنين إلى قوتهم التي استطاعت أن تقاوم محاولات العثمانيين لاحتلال المدينة خلال السنوات الستّ الماضية وأرسلوا يستنجدون بقواتهم في جزيرة رودس، لذا كانت الحرب لزاماً لتأديبهم قبل وصول النجدات لا سيما بعد أن علمت القوات التيمورية بأنباء هذه الاستغاثة.

وبدأ الحصار وأقام جند السلطان تيمور بيك ثلاثة سدود عالية من الخشب وسط المياه من ناحية البحر، وبنوا على هذه السدود جسراً لحصار المدينة وقلعتها ومنع وصول النجدات والإمدادات إليها من جهة البحر، وعلى الرغم مما أبداه الصليبيون من مقاومة عنيفة فإن القوات المغيرة نجحت في اجتياح المدينة بعد قصفٍ بالمنجنيقات، ونجح الجنود التيموريون في فتح ثغرة في السور، نفذوا منها إلى داخل المدينة، ولم تمض مدة أسبوعين حتى تمّ فتح قلعة إزمير الحصينة التي استعصت على بيازيد

---

[1] **إزمير**: تقع إزمير في بداية خليج طويل وضيق، تمخر عبابه السفن واليخوت في بحر إيجة، وهي ثالث أكبر المدن التركية، وثاني أهم موانئها، يرجع تاريخ مدينة إزمير إلى الألف الثالث قبل الميلاد.

سلطان العثمانيين ست سنوات، وأضاع عليه تلك المدة في حصارها، ولم تتمكن السفن التي قدمت من رودس لنجدة المدينة وهي محملة بالمقاتلين والأسلحة من الاقتراب، واضطرت للعودة إلى رودس، ولم تنجح إلا بانتشال ثلاثة آلاف جندي من محاربي المدينة بعد أن ألقوا بأنفسهم إلى البحر فراراً من القوات الفاتحة التي استطاعت السيطرة على المدينة، ولاقت مدينة إيفيز الواقعة إلى جنوب إزمير المصير نفسه، ولم تبارح القوات التيمورية إزمير إلا بعد هدم أسوارها وقلعتها.

وكذلك لاقت مراكز صليبية كانت لا تزال قائمة على سواحل آسيا الصغرى المطلّة على بحر إيجة، ضربات قاصمة أنزلها جيش السلطان تيمور بيك بها.

وبعدها لم يفكر الصليبيون بالقدوم إلى بلاد العثمانيين أبداً بالرغم من عدم وجود سلطان عثماني طيلة تسع سنوات بعد معركة أنقرة، فإنهم لم يتحركوا أية حركة للرهبة التي زرعها بقلوبهم عاهل التتار الفاتح الإسلامي العظيم."تيمور بيك".

أمَّا صاحب بغداد ابن أويس فقد هرب إلى مصر حيث كبّل بالقيود وسُجن ليُعلم السلطان تيمور بما يفعلوه معه، وذهب قرا يوسف التركماني إلى الجزيرة العربية لأنه كان يظن أن السلطان تيمور بيك لن يحاربها ويستولي عليها. وكانت فاجعته أن قبض عليه المماليك وكتب السلطان فرج خطاباً للسلطان تيمور بيك بأن الاثنين تحت طلبه. حقاً لقد هابته ملوك الأرض بأجمعها، أي بلغت سطوته بالحق مشارق الأرض ومغاربها.

<u>أما ملوك أوروبا:</u>

فقد وقفوا مدهوشين مذهولين بخوف وجزع أمام قوة السلطان تيمور بيك ومقدرته الحربية والإدارية والتكتيكيَّة العسكرية، إذ كانوا يعتقدون بقوة الأتراك

وجرأتهم وأنهم قوم لا يغلبون، وهاهو قاهر العالم يأتي من أقصى الأرض لمحاربة الترك في عقر دارهم فيغلبهم، ويأخذ سلطانهم أسيراً وتنهار مملكته بيوم واحد. وقلعة إزمير تسقط بأسبوعين في قبضته بعد أن أعيت العثمانيين طيلة سنوات ست، فكتب هنري الرابع ملك إنكلترا يهنئ السلطان تيمور بيك بانتصاراته، وأرسل شارل السادس ملك فرنسا كتاباً وهدايا مع مطران السلطانية. وقدَّم عمانوئيل إمبراطور القسطنطينية طاعته لتيمور بيك وبعث إليه بالهدايا والتحف، أما سفن القراصنة الجنوية فقد وقع في نفوسها الرهبة من القوة الإسلامية الناشئة ورفعت علم السلطان تيمور بيك على مقدمتها بعد أن كانت تغزو السواحل والبلاد الإسلامية، وكان الإسبانيون أكثر الأمم اهتماماً بفتوحات تيمور بيك وشأنه، فبعث هنري الثالث ملك الكستيل وفداً من قبله برئاسة النبيل كلافيجو فذهب هذا إلى آسيا الصغرى فوجد تيمور بيك قد تركها عائداً إلى سمرقند، فلحق به وفاقاً للأوامر المعطاة، علماً أن هذه الدول كانت مزمعة على احتلال البلاد الإسلامية والعربية وبدأت هجماتها على سواحل المسلمين في البحر الأبيض المتوسط لكن السلطان تيمور بيك قصم ظهورهم بهيبته الربانية والقوة الإسلامية العظمى التي أنشأها، وبدؤوا يخشون على بلادهم رعباً وجزعاً من سلطان المسلمين تيمور بيك، وأوقفوا الغزوات والتعديات بعد رؤيتهم قوة المسلمين هذه.

سبحان الله فهو يخلق من الضعف قوة متى شاء .

المناطق التي خضعت للسلطان تيمور بيك بشكل مباشر وغير مباشر عدا عن أفريقية التابعة للمماليك الموالين.



الحركة إلى بلاد الكرج

نبذة عن الحالة السائدة فيها :

لما كان من نصائح بيازيد للسلطان تيمور بيك قوله :

(ولا تمدن يد التخريب إلى قلاع المسلمين وحصونهم، ولا تُجلهم عن مواطن حركتهم وسكونهم، فإنها معاقل الدين وملجأ الغزاة والمجاهدين).

تقبل تيمور بيك نصيحته بقبول حسن، وحمل هذه الأمانة ووفى بها بقدر الإمكان والطاقة[1].

مع أن هذه النصيحة هي رغبته القلبية.

وأخذت جيوش السلطان تيمور بيك بالجلاء عن بلاد الروم، فمرت في طريق انسحابها بقيصرية وسيواس وأرزنجان وأرض روم، ومنها إلى بلاد الكرج المعتدية الشديدة التقلب والمتربصة للفتن والثورات.

وقد أشارت المصادر التيمورية أن أسباب غزو هذه البلاد هي الجهاد لنشر الإسلام.

مع أن السلطان تيمور بيك يشك في إخلاص هذه البلاد له، وكان يلمس منهم في كثير من الأحيان ميلاً وتقلباً لأعدائه والثائرين عليه في أذربيجان والعراق.

ولما وصلت القوات التيمورية بقيادة أحفاد السلطان إلى مدينة منكول القريبة من العاصمة تفليس، أسرع ملك الكرج كورجين بتجديد طاعته للسلطان تيمور بيك، ومن ثم بعد ثلاثة أشهر أرسل تيمور بيك إلى ملك الكرج في تفليس يطالبه بدفع

---

(١) ابن عربشاه.

ما يترتب عليه من أموال الخراج والجزية، وعاد رسل السلطان يحملون الهدايا ورسالة من كورجين يقرّ فيها بالتبعية لتيمور بيك، ويتعهد بدفع الأموال المفروضة عليه، ولما كانت الأمور مضطربة وذات تقلب كبير إثر حرب الشائعات التي تعمدها الحلفاء من المماليك ومغول الهوردة والعثمانيين في آن واحد، فقد أظهر أهل الكرج وكما اعتادوا خيانة السلطان تيمور بيك لذا قرر تأديبهم وردعهم.

وفي المرة الأخيرة بعد عودة القوات التيمورية من أرض العثمانيين أرسل ملك الكرج يقدم الطاعة لتيمور بيك، وأرسل وفداً محملاً بالهدايا ورسالة يعلن فيها ولاءه وخضوعه متأخراً، وهكذا فالسلطان تيمور بيك صرف الوفد خائباً، وما كان قوله لرسولهم إلا: ﴿...**أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ**﴾[1].

وقرر اجتياح بلاد الكرج بسبب طاعتهم إيّاه أيام انتصاره وخياناتهم حين تتقلَّب ضدّه البلاد والعباد، فغدا جانبهم غير مأمون لتقلباتهم.

❁❁❁

(1) سورة النمل: الآية(٣٦ـ٣٧).

وصوله إلى بلاد الكرج

ولم يزل سائراً حتى وصل إلى بلاد الكرج ومن مدنهم تفليس وكان قد فتحها من قبل وطرابزون وآب خاص فامتنعت تلك البلاد عليه فحاصرها، ومن ذلك مغارة غامضة المسلك وبابها في وسط جبل شاهق لا يهتدي أحد إليه، وسقفها من الصخر، فأمر بصنع توابيت على هيئة الدبابات وشحنها بالرجال ودلاها بالسلاسل حتى حازت باب المغارة، فعلق أحدهم واسمه "**لهراسب**" كلاّباً ببابها وفتحه ودخلوها. ثم قصد قلعة لهم حصينة وحولها جروف وجبال ولا يمكن دخولها إلا من مكان واحد عليه جسر، فنصب خيامه قريباً منها لأنه لا يمكن النزول حولها، فكان أهلها يرفعون الجسر بالنهار ويتركونه بالليل ويخرجون لبعض حوائجهم، وكان في عسكر السلطان تيمور بيك شابان شجاعان فظفر أحدهما برجل من العدو فقتله وأتى برأسه إلى تيمور بيك، فأراد رفيقه واسمه بير محمد أن يفعل فعلاً يفوق فعل رفيقه، فحمل سلاحه وذهب ليلاً إلى القلعة واختبأ في مكان وراقب رفع الجسر، فلما طلع الفجر أرادوا رفعه بالحبال فقفز بير محمد إليه وقطع الحبال ومنعهم من رفعه، وناوشهم القتال حتى تعالى النهار وهم يرمونه ويرميهم فرآه تيمور بيك من خيمته وهي في مكان عال، فأرسل إليه الرجال فلما رآهم ازدادت استماتته، وتواثب أهل الحصن ليدخلوا ويغلقوا الباب فوثب معهم وصار داخل الباب ومنعهم من غلقه، فجاء أصحابه ودخلوا الحصن. ووجد في بير محمد ثمانية عشر جرحاً، فأمر تيمور بيك الأطباء بمداواته وجعله من قادته.

وبدأت العمليات الحربية بحصار كورتين الحصن المنيع الذي كان يقع على قمة جبل عال ذي سفوح شديدة الانحدار تشرف على وادٍ عميق، ويطل على الوادي

من ارتفاع مائة وخمسين ذراعاً، ولا يمكن الوصول إلى الحصن إلا من طريق واحدة، وبُني فيه مستودع كبير لتخزين المياه، لتمكين المدافعين عنه من المقاومة لمدة طويلة، وكان حاكم الحصن قد كدَّس فيه أيضاً كميات كبيرة من الأسلحة والمؤن.

كانت الحجارة التي تقذفها المجانيق لا تصل إلى داخل الحصن لارتفاع أسواره.

أمر السلطان تيمور بيك ببناء برج من الحجارة والخشب في مكان قريب من الحصن، وأصبح بالإمكان أن يقذف المغيرون أبراج الحصن بحجارة المنجنيقات، واستمر القصف مدة أسبوع، حيث تمكن التيموريون من فتح ثغرة في السور الجنوبي للحصن، وتسلل الجند التيموريون منها بعد أن تسلقوا سفوح الجبل الشديدة الانحدار.

وتمكنت قوات تيمور بيك من اكتساح هذه القلعة الحصينة بعد تسعة أيام من الحصار، لقد سمي الحصن بـ(كُورْقَيت) أي: تعال انظر وارجع، بمعنى أنه لا ينال الوافد عليه سوى النظر إليه، لذلك كان في سقوطه انهيار معنوية بلاد الكرج كلها. ولكن لسان حال السلطان تيمور بيك[1] يقول:

لا يتأسف من مطلب … قطع الورى أسبابه

إن أغلقوا أبوابهم … فالله يفتح بابه

وإذا أراد الله نصرة عبده … كانت له أعداؤه أنصارا

وإذا أراد خلاصه من هلكة … أجرى له من نارها أنهارا

فترى العقول تقاصرت عن كنهه … وترى له في شوكه أزهارا

---

(1) كما يشبِّه ابن عربشاه، فالقصيدة لابن عربشاه، ويُظهر فيها اعتماد تيمور بيك وتوكله على الله، والفضل ما شهدت به الأعداء.

ولما كان هذا الحصن عين قلاع الكرج وقد قلعت، فانحلت قواهم، وانخرمت عُراهم، وقعدت بهم الحيلة، وكانت سبباً لانهيار كل مقاومة.

واجتاحت القوات التيمورية البلاد حتى وصلت إلى بلاد الإنجاز في سواحل البحر الأسود الشمالية الشرقية.

وقد أفتى رجال الدين الذين يرافقون الحملة بجواز منح السكان المسيحيين الأمان أسوة بما فعل الرسول ﷺ مع نصارى نجران.

ولما أرسل ملك الكرج كَركَين يُعلم السلطان تيمور بيك مجدداً باستعداده لدفع الجزية المفروضة عليه بشكل عام، قرر السلطان تيمور بيك الرجوع، ومرَّ وهو في طريق العودة إلى تفليس وقد قام (**الشيخ إبراهيم**) حاكم شروان بالوساطة عند السلطان تيمور بيك للرأفة ببلاد الكرج، وتمّ بعد ذلك عقد الصلح شرط الوفاء بالعهود زمن الشدة والرخاء والحروب والسلام.

وأرسل الملك الكرجي قطعاً ذهبية نقدية ضرب عليها اسم تيمور بيك بألقابه، وألف حصان مع كميات كبيرة من الأقمشة وغيرها من الهدايا القيِّمة.

❁❁❁

إجراءات وتدابير

قـام السـلطان تيمـور بيـك بتنظيـم الأوضـاع الإداريـة قبـل مغـادرة الجنـاح الغربـي لإمبراطوريته، واتخذ سلسلة من القرارات عيَّن بموجبها عدداً من أحفـاده علـى بعـض هذه المناطق بما فيها بـلاد الكـرج، فأوكـل إلى حفيـده بير محمـد بـن عمـر شـيخ حكـم شيراز، وفوَّض أخاه رستم بحكم أصبهان، وعيَّن حفيده الآخر أبا بكر بن ميران شاه على العراق، ومنح حكم أذربيجـان إلى عمـر شـقيق أبـي بكـر، وكـان عمـر[1] آنـذاك يُقيم نائباً في سمرقند عن جدِّه.

وأضاف إلى حفيده عمر حكم بلاد الروم وبلاد الشام، وسلّمه قيـادة القـوات الـتي كانت تحت إمرة والده ميران شاه، وعيَّن على كرمان أحـد قادتـه ويـدعى إيـدكو بعـد أن زوّجه إحدى بناته. وأمر حكام بقية المنـاطق ممـن كـان لا يطمـئن إلى إخلاصـهم أن يرسلوا أبناءهم وإخوتهم إلى سمرقند، وكان منهم الظاهر مجد الدين عيسى.

وقام ملـوك الـبلاد مـن حكـام منـاطق إيـران وفـارس بتجديـد خضـوعهم للسـلطان تيمور بيك أثناء عودته في طريقه إلى سمرقند.

وفي الطريق قامت ثورة المغول الذين استقدمهم من تركيـا بقيـادة اسـكندر شـيخي، فترك أمر ملاحقته إلى ابنه شاه روخ وعدد من قادته، فاسـتمروا علـى مطاردتـه إلى أن أجبروه على أن يتوارى عن الأنظار، وقام بتوزيع من تبقى في سـائر الأمصـار، وبعـد وصول السلطان تيمور بيك إلى سمرقند أمـر بتسـريح الجيـوش ليعـود كـل جنـدي إلى بلده وأهله.

---

(1) نلاحظ توارد أسماء أبي بكر وعمر في أحفاد تيمور بيك، فليس هو حقّاً بمذهبيٍ لا سني ولا شيعي" ولكن مسلم محمدي، وذلك يتضمن السني والشيعي، والحقيقة أن الخلاف أصلاً بين السنة والشيعة بالفروع وكلاهما بالإسلام سواء.

ما فعله مع التتار

ثم إنه جمع رؤساء التتار واستقبلهم بالبشر والبشاشة وقال:

قد آن الأوان لأن أكافئكم، ولكن قد أضرَّ بنا المقام في مضايق الروم، فلنخرج إلى البر الفسيح في ضواحي سيواس، وقال لهم إنني قد عرفت بلاد الروم معرفة كاملة، وقد أهلك الله عدوكم فاستخلفكم فيها، ولكن أولاد بيازيد لا يتركونكم لما فعلتم مع أبيهم، ولا بدَّ أن يلمّوا شعثهم، وأنا راحل عنكم ولا بد لكم من رئيس يقودكم، ولا بدَّ لكم من جند وسلاح، فليخبرني كل واحد منكم بما عنده من أولاد وأتباع وآلة سلاح، وليحضر ذلك إليّ حتى أتمم الناقص، فأخبروه وأحضروا سلاحهم كلّه، فأمر برفعه إلى الزردخانة، وأخذ التتار كالمأسورين ووعدهم بإصلاح أمورهم، ثم حملهم معه إلى بلاده عملاً بنصيحة بيازيد وفرقهم في البلاد، فبعث طائفة منهم إلى كاشغر، وأخرى إلى جزيرة أسى كول بجوار المغول، وضم باقيهم إلى أرغون شاه وجهزه إلى ثغور الدشت وحدود خوارزم، وكان هذا دأبه ينقل أهل بلاد إلى بلاد أخرى، فإنه لما استولى على تبريز استناب فيها ولده ميران أو (أميران) شاه ونقل إلى أطراف الخطا وتركستان عسكر العراقين والهند وخراسان، وولى سماقة ابن التكريتي الذي أتى به من مدينة سيرام، وهي على مسافة عشرة أيام من سمرقند إلى الشرق، وولى يلبغا المجنون الدمشقي بلاد وراء سيرام بنحو أربعة أيام.

ويذكر ابن عربشاه أعمال السلطان تيمور في سمرقند فيقول:

ثم أخذ يتفقد ما حدث في غيبته من أمور بلاده ورعيته، ويتفحص عن قضايا الممالك ويسلك لملوكها المسالك، ويدبر مصالح الأطراف والثغور، ويراعي أحوال

الكبير والصغير، ويتعاطى مصلحة الغني والفقير، ويضع الأشياء في محلها، وزمام الوظائف والمناصب في يد أهلها.

وأخذ يربِّي السادات، ويكرم الأولياء ذوي الكرامات، ويجلُّ العلم وأهله، ويُعلي الفضل ويعز محله، ويقلع المفسد ويقمع المارق، ويجلد الزاني وينفيه، ويقطع يد السارق حتى استقامت أمور السياسة[1].

لله درُّ بصر تيمور من علمٍ ... ما كان أعْرَفَه بالوغد والسُفَل

نهاهُمُ أن يمسُّوا عنده قلماً ... وأن يذلَّ بنو الأحرار بالعمل

❁❁❁

(١) أما ما ذكر عن استخدامه للسياسة الجنكيز خانية من جهة أعدائه في كل مكان لنفي الصفة الإسلامية عنه سواء كتبة التاريخ المماليك أو الأفرنج.. ولهم بذلك أرب وغاية وقد زوروا كتابة ما أرادوه. والحقيقة أن القوانين الجنكيز خانية عادةٌ قبلية في تعبئة الجيوش والاستعداد للقتال، والجنود اعتادوا عليه وقد اقتضت الظروف أن استخدمها السلطان تيمور بيك للأمور والتنظيمات العسكرية فقط.

الميرزا أبو بكر

بغداد:

ولما عاد الأمير تيمور بيك من حرب الروم ظافراً وسار إلى الكرج عام /٨٠٦هـ/ بقصد الاستيلاء عليها ووصل تفليس فكر في هذه الأثناء في لزوم عمارة بغداد[١] وإصلاح ما اندثر منها بسبب الوقعة عام/٨٠٣هـ/، ففوض حكومتها إلى الميرزا أبي بكر، وهذا سارع في الذهاب إليها، وجاء أمير زاده أبو بكر إلى أنحاء الحلة، ووافى إليه الأمير زاده رستم من بروجرد وآخرون كان الأمير تيمور بيك قد أرسلهم لمعاونة الميرزا أبي بكر، فتوجهوا من ناحيتين إلى بغداد فقابلهم الأمير قرا يوسف وبجوار نهر الغنم[٢] قرب الحلة التقى الفريقان، وكانت الحرب شديدة والمعركة طاحنة، وقتل أثناء المعركة أخو قرا يوسف وانهزم هو إلى أنحاء سورية، كما انهزم قبله السلطان أحمد.

أما الميرزا رستم فإنه رجع إلى فارس، كما أن الميرزا أبا بكر وصل إلى بغداد فاستقر بها، وبناءً على رغبة الأمير تيمور في عمارتها بادر في القيام بالأمر، وشرع بما يلزم لإصلاح الحالة، ولم يُعلم بما قام به هذا الأمير إلى أن سمع بوفاة الأمير تيمور بيك واستيلاء السلطان أحمد على بغداد مرة أخرى[٣]. في هذه السنة نهض أمير العرب هذا على قرا يوسف التركماني، فهرب منه قرا يوسف وجاء إلى الشام، فشفع فيه

---

(١) مع العلم أن بغداد تعرّضت لعدة نكبات كبرى في تلك الحقبة إثر فيضان نهر دجلة، ويصفها الكتبة والشعراء ويصفون دجلة بفيضانه وعربدته وينعتونه بمجنون مكبّل بسلاسل حديدية كسر قيوده واستولى بمياهه على المدينة، فخرّب عماراتها العالية، وأغرق نحو أربعين ألفاً من أهلها.

(٢) **نهر الغنم**: جاء في حبيب السيَر أنه نهر القيم بالقاف.

(٣) روضة الصفا وحبيب السير ص ١٦٦ج٣ وتزوكات تيمورلنك .

نائب الشام شيخ المحمودي الذي صار سلطاناً بعد ذلك عند السلطان الناصر فرج فقبلت شفاعته، واستقر في الشام أميراً يركب في خدمة النائب.

إلا أن السلطان فرج نظراً للاتفاق الحاصل بينه وبين السلطان تيمور بيك أمر بحبس أحمد بن أويس وقرا يوسف حينما وردا إليه منهزمين واعتقلهما نائب الشام... وبينما السلطان تيمور كان عازماً على غزو الصين وبلاد الخطا إذ وصل إليه قاصد من سلطان مصر ومعه كتاب مضمونه أن السلطان أحمد وقرا يوسف (من هيبة العساكر السلطانية "جيش تيمور بيك" قد التجأا إلينا وقد حبسناهما وأرسلنا الخبر بذلك لاستطلاع الرأي الشريف بما يأمر)، فكتب الجواب: (أن السلطان أحمد يُقيَّد ويرسل إلينا وأما قرا يوسف فيُحزُّ رأسه ويبعث إلينا أيضاً). وقبل أن يُرسل قاصد مصر عَلِمَ بوفاة السلطان تيمور بيك وهو في طريقه إلى الصين والخطا، فلم ينفذ مرغوب السلطان تيمور في حق المذكورين.

إذ أرسل الناصر كتاباً إلى نائب الشام بقتل قرا يوسف، وقتل سلطان بغداد أحمد بن أويس أيضاً الذي قَدِمَ لعنده أيضاً، فتوقف الأمير شيخ في ذلك، وعوق السلطان أحمد عنده بدار السعادة، ثم قيدهما وسجنهما ببرجين في قلعة دمشق، ثم هرب السلطان أحمد.

وأما قرا يوسف فإن نائب الشام شيخ المحمودي لما خامر على السلطان الناصر ودخل القاهرة لمحاربته اصطحب معه قرا يوسف أيضاً مستعيناً به، وهو الذي أشار على شيخ وهم بمنزلة السعدية أن يكسر بالليل على الملك الناصر، ومع هذا لم يبلغوا مقصودهم منه وانكسروا ورجعوا ومعهم قرا يوسف المذكور، ثم إنه رجع إلى بلاده، وعظمت حاله، وصار أكبر أعداء شيخ لما تسلطن، وحصل منه الإفساد بهذه المملكة.

عمد قرا يوسف بعد ذلك للتخلص من السلطان أحمد، ووقعت بينهما معركة في منخفضات غازان، أسفرت عن تغلب قرا يوسف وانهزام السلطان أحمد، وفي أثناء هزيمته ضربه تركماني فوقع من فرسه، فانتزع منه أسلحته وثيابه وتركه وشأنه، ومن ثم التجأ إلى شيخ اسكافي متوارياً، ورغم كل إغراءاته للشيخ بالمقاطعات والذهب فقد وشى به إلى قرا يوسف الذي أهانه وأذلَّه، واستخدمه في كتابة رسالات لنوابه في الولايات بالتنازل عنها لقرا يوسف، ومن ثم قتله خنقاً واستولى على ما أراد..

(مجموعة تواريخ التركمان وفيها تفصيلات عن هذه الأيام وما قبلها..) .



غرائب يذكرها ابن عربشاه

إن السلطان تيمور بيك لما توجه إلى المرج حيث اجتمع قومه على وقاره وسكينته هبطت في أُفقه بوحي الذات من أفلاك الملاحة أملاك، فأصبحت تلك الأسود الحواذر قادة الجيش وملوك الممالك ظباء جواذر، وتنزَّلوا من جحيم المنازلة إلى نعيم المغازلة. وتبدَّلت تلك الغلاظة والكثافة باللطافة والظرافة، وأصبحوا بعد جورهم يتجاورون وبمعنى ما قلته يتحاورون:

محا الظلمَ ما بين الورى سيفُ عدلنا فلن يتشبث مستغيث بمعتد[1]

فحصل الأمن والدعة والفراغة والسعة، ورخص الأسعار وقضاء الأوطار واعتدال الزمان، وعدل السلطان وصحة الأبدان وصفاء الوقت وذهاب المقت وحصول المطلوب.

وإلى تلك الروحانية السامية للسلطان تيمور بيك التي تضفي على الموجودات جمالاً ورونقاً لا مثيل له أشار السفير الأسباني (كلافيجو) بأنه راح يعتقد أن في العاصمة بعض الجن (وحيث لا يعلم حقيقة النفوس المستنيرة وتأثيرها)، وهؤلاء ينشطون فيها الألوان ويعملون على تزيينها وتجميلها بما لا يستطيع قلم كاتب وصفه .

لم ينسَ السلطان تيمور بيك أنه في ساعة النصر في معركة أنقرة فَقَدَ ابنه المحبوب محمد سلطان إثر جراحه، فراح ينفرد في جناحه الخاص لا يكلِّم أحداً ولا يجلس إلى أحد.

---

(١) أي : سيتشبث المستغيثون بتيمور بيك فقط لعدالته لا بالمعتدين من الملوك الظلاّم.

كما أنه كـان يفكـر بـإمبراطور الصـين المتحصـن خلـف جـداره العظـيم القـوي، وكان يرى أن ملكه ليس مستقراً ما دام هذا الإمبراطور الصابئ على عرشه، فمن الممكـن في أي لحظـة أن يـثير العـدوان. ومـا دامـت سـلطة تيمـور بيـك بعيـدة عنـه لا يعترف بها ولا يقبلها، ولكنه لم يتحدث إلى قادته بما يجول في فكره بل انصرف يدبر مهام الملك وينظر في شؤون الدولة.

❁❁❁

إلى الصين والشهادة الكبرى

استدعى السلطان تيمور بيك كبار الأمراء من قادة الجيش، وخطب فيهم محمّساً وصوته العميق كله حزم وصلابة:

« لقد افتتحنا كل آسيا ما عدا الصين، وقد نصرنا الله على ذلك العدد الكبير من الملوك العظام، وستظل إنجازاتنا حديث الناس على مرّ الزمن، لقد كنتم رفاقي في حروب كثيرة ، ولم تهزموا قط، ولكن رسالتنا لم تنته بعد، فهناك الصين الوثنية القائمة إلى جوارنا، وهي ضعيفة هرمة ولن يستدعي التغلب عليها طاقة كبيرة.. إنها الهدف لحملتنا المقبلة».

وبيّن للحاضرين ما بدر من جانب حكام الصين المشركين من جرائم وزلاّت، وعرض عليهم آخر ما استقرت عليه العلاقات بينه وبين إمبراطور الصين، هتف الجميع: (موافقون).

وللحال دق النفير ورفعت الأعلام.

وأخذوا الأهبة والاستعداد لأربع سنين أو أكثر، وتجهزوا وتحرك مئتا ألف جندي في عدة فيالق، كان الفصل أول الشتاء، ولا بدَّ من الانتظار ريثما يذوب الثلج، ولكن الفاتح لم يوافق على الانتظار حتى قدوم الربيع، لقد كان يشعر أن شيئاً ما سيحدث..

وتحرك الجيش مع قوافل كبيرة كانت تبدو كمدينة متحركة ضخمة، وعندما عبروا نهر سمرقند أخذ الثلج يتساقط والأنواء تشتد قسوتها واعتلت الأنهار جمودياتُ الصقيع، ولكن السلطان تيمور بيك لم يرجع رغم أن عمره حوالي ثمانين عاماً .

ولم يرضَ أن يذهب إلى مقرات شتوية ريثما يمرّ الصقيع، وصمّم على المضي حتى أوترار، القلعة الواقعة على الحدود الشمالية، وأمر حفيده باللحاق به إلى هناك حالما تصبح الطرق سالكة مفتوحة. وكان البرد شديداً والثلج ينزل مدراراً، ولكن السلطان لم يكن من الرجال الذين تقف في وجوههم حوادث الطبيعة، وأخذ يسير بجيشه **لا** يلوي على شيء باتجاه (**أوترار**) وطريق الشمال الكبرى الذاهبة إلى الصين. وأخيراً وصلوا إلى أوترار، وهنا قرر الفاتح أن يمضي الشتاء مع الجيش على أن يعاود الحركة في أول دفء الربيع.



الشهادة

أصاب السلطان تيمور بيك المرض فلزم غرفته في (أوترار). كان رجاله وقادته يقفون الساعات حول غرفته وخارج قصره في البرد الشديد والثلج يغمر أرجلهم ويسقط مدراراً على رؤوسهم.

ووقف أمام غرفة السلطان تيمور الأئمة والعلماء يتلون آيات القرآن ويطلبون من الله الشفاء لمليكهم وأميرهم، وقد ظلوا على حالتهم هذه الأسابيع يطلبون من الله الرحمة، وظهرت أمارات الانتقال على السلطان تيمور بيك، وكان آخر كلماته لقادته:

«حافظوا بشجاعة على السيوف بأيديكم، كونوا على وفاق فيما بينكم، عليكم بالجيش فحافظوا عليه، واعملوا على اتفاق كلمتكم، ولا تخاصموا فتفشلوا، ففي الشقاق والفوضى خرابكم، وسيروا نحو الصين ولا تتراجعوا، ولا تمزقوا أثوابكم بعد موتي ولا تركضوا من هنا وهناك، فإن هذا يحدث الاضطراب في الجيش».

ثم استدعى إليه أمراء الجيش وقادة فيالقه وخاطبهم قائلاً:

«إني أعيِّن بير محمد بن جهانكير ليخلفني.. يجب أن يقيم في سمرقند وأن تكون في يده السلطة التامة على الجيش والشؤون المدنية، إني آمركم أن تكرِّسوا حياتكم لأجله وأن تدعموه. يجب أن يحكم الولايات البعيدة كما يحكم في سمرقند.. وإذا أنتم لم تمنحوه طاعتكم الكاملة فسيكون خصام وحروب.

إني آمركم أن تخلصوا له كل حياتكم وأن تساعدوه في حكمه، وإذا لم تطيعوه إطاعة تامة فإن الاختلاف والانقسام واقع بينكم، أريدكم أن تطيعوه كما أطعتموني، وإنني أطالبكم بأداء اليمين الشرعي».

أقسم القادة الحاضرون واحداً تلو الآخر على العمل بوصيته، ثم طلب بقية أولاده فأخبرهم برغبته ووصيته ونصحهم بالاتفاق والتفاهم والعمل يداً واحدة.

وطلب منه القادة أن يستدعي من تبقى من أبنائه ليسمعوا بأنفسهم إرادته، فردَّ عليهم: «**هذه آخر جلسة لنا معاً .. هذه إرادة الله**».

وبعد فترة قال كمن يخاطب نفسه:

« لا أريد شيئاً سوى رؤية ابني شاه روخ مرة أخرى..»

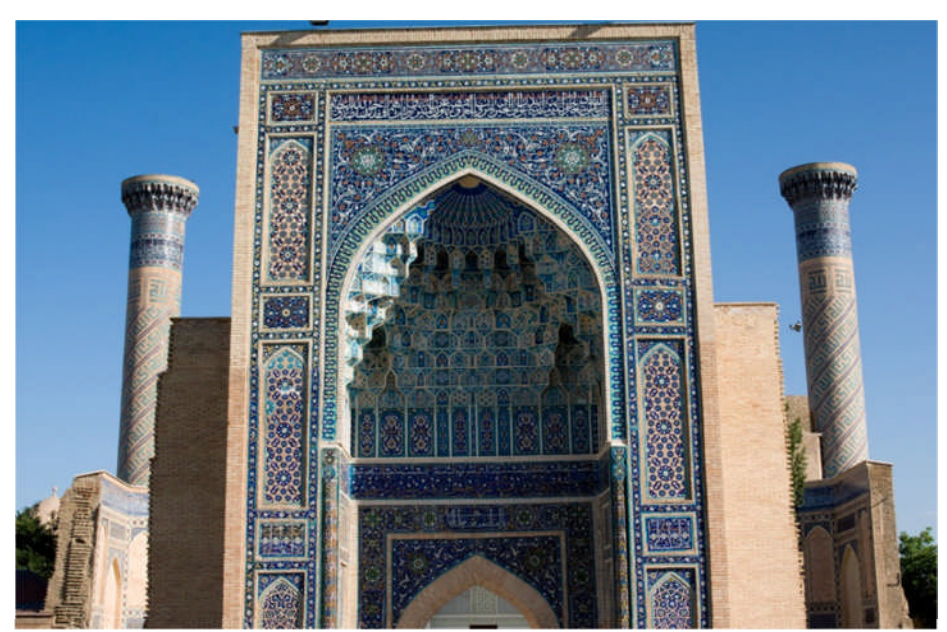
وما لبث أن أسلم الروح إلى بارئها، فعلا بكاء الرجال وأصوات العلماء تقول:

(لا إلَه إلا الله وحده لا شريك له).

حقاً لقد غاب شمس البدور، ليشرق في عالم الأبدية، برفعة وسمو وعلياء سرمديّة.

❁❁❁

ضريح السلطان تيمور بيك



بوابة ضريح السلطان تيمور بيك طول البوابة حوالي/٣٥ /متر مرصّعة بالفسيفساء ومكتوب في وسطها الآية القرآنية: (وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ) سورة آل عمران/١٠٤/.



صورة للزينة الخارجية للجدران مكتوب عليها اسم السلطان تيمور بيك

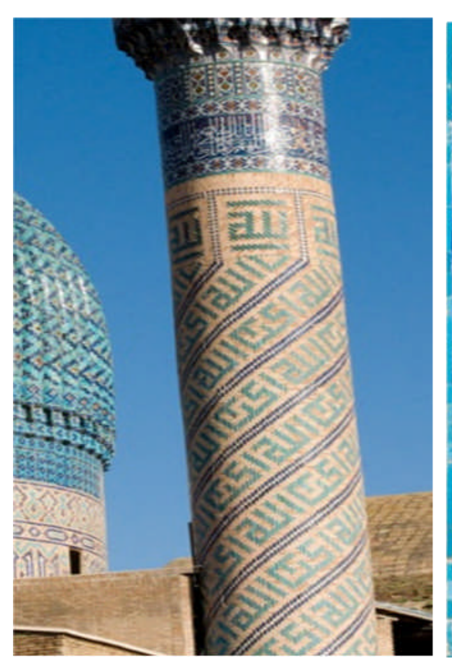
بعد الدخول من البوابة يوجد حديقة مساحتها ٤٠ م×١٠٠ م ثم مبنى الضريح



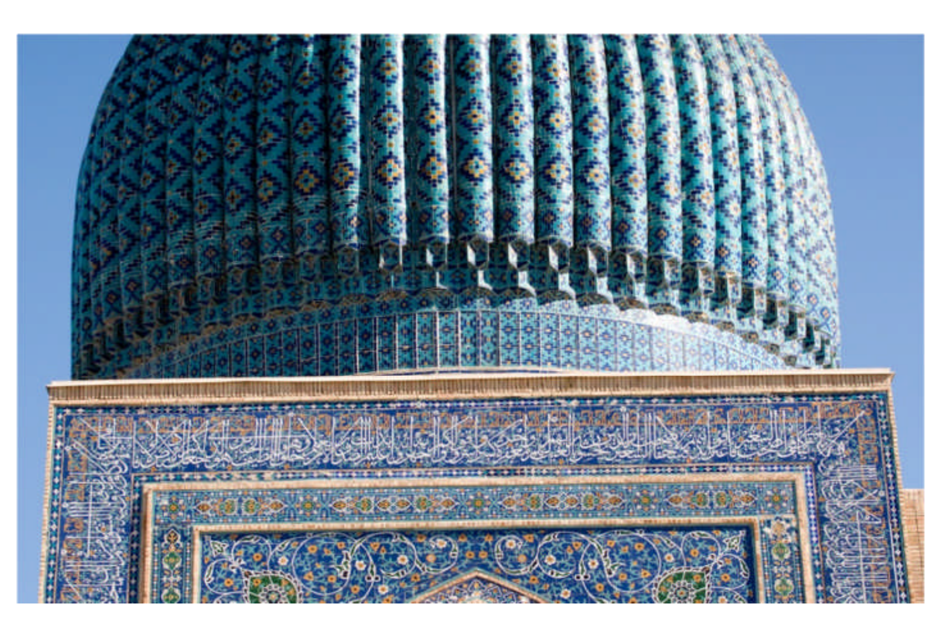
وتُقصد تربته بالنذور للتبرك من البلادِ البعيدة، وإذا مرّ على هذه المدرسة أمير أو جليل خضع ونزل عن فرسه إجلالاً لضريحه لما لَهُ في صدورهم من هيبة.



صورة من الكتابات الموجودة على الجدران الخارجية للضريح



نلاحظ جمال بناء المنارة والكتابات التي عليها طول المنارة حوالي /٤٠/م





هذا المركب المعماري الرائع بقبته اللازوردية باللون الأزرق الناصع هو ضريح السلطان تيمور بيك، قطر القبة /١٥م/ ارتفاع/١٢.٥م/





ضريح السلطان تيمورعبارة عن غرفة مساحتها تقريباً ١٠ م × ١٠م أرضيتها رخام فاخر وجدارنها مطليّة بالذهب وسقفها عبارة عن قبة مرصّعة بالذهب والمرمر وفي الوسط يوجد قبور عائلة السلطان تيمور بيك، نلاحظ أن القبر ذا اللون الأسود هو قبر السلطان تيمور بيك



داخل غرفة الضريح تظهر الكوات العميقة في الجوانب المزينة بالكتابات الإسلامية

ما الذي جرى؟!

لقد فقد العالم الإسلامي إمبراطوراً عظيماً جداً، ولكنهم فازوا بإصلاحات كبرى بأعظم قوة رفعتهُم إلى أسمى درجات الرفعة والعظمة والسيطرة والمجد، قوة ثقّفتهم ودرَّبتهم وسيّرتهم ووحَّدت صفوفهم المتنازعة، ثم قذفتهم على العالم المقتتل بين بعضه البعض، فكانت لهم الفتوحات الكبرى، وكان لراياتهم النصر في كل مكان.

كان أكثر هؤلاء الرجال الشجعان والقادة الكبار الذين حوله لا يعرفون غيره، وما أبصروا النور إلا وهو أميرهم وكبيرهم ومليكهم، خدمه آباؤهم قبلهم واستشهدوا ثم قام هؤلاء الأبناء بخدمته يعرِّضون صدورهم للسيف وأنفسهم للموت، إشارته أمر عندهم، وأمره سيف لديهم، حتى أصبحت غاياتهم إعلاء كلمة الله وتوحيد صفوف المسلمين وتشذيب طباع المنحرفين منهم وتسليكهم في طريق الكمال.

ومن أهم فتوحاته الباقية بلاد القوقاز وأممها وهدايتهم للإسلام.

كانت رغبته الجمع بين أصناف البشر على الحق، والتأليف بينهم وجمع أشتاتهم وخلق جماعة واحدة وأمة واحدة على قلب رسول الله ﷺ وكتابه كتاب الله العظيم.

وكان له ذلك، وقد ضمّت العاصمة والجيش خليطاً من البشر فيهم المغولي وبينهم التتري ومنهم الفارسي والأفغاني والتركي وغيرهم، والواقع أن احترام هؤلاء الأقوام المختلفي النزعات والطباع والإنتماءات القبلية والأمية للسلطان تيمور بيك كان عظيماً جداً، وكان حزنهم ووجْدهم لفقده ظاهراً قوياً، حتى أن أحداً لم يفكر في مخالفة أوامره بعد موته، فسار الجيش العظيم نحو الصين يريد غزوها واقتحام حصونها وفاقاً لرغبة تيمور بيك المليك العظيم قبل وفاته.

ولكـن أحـداً مـن رجـال السـلطان تيمـور بيـك لم يكـن قـادراً علـى القيـام مقامـه والقبض على أعنة الملك والسلطان باليد الحديدية التي كان يقبض بها عليها. فقد اجتمع الأمراء فيما بينهم بعد وفاة السلطان تيمور وقرروا العمل بمشيئته وغزو الصين، واتفقوا على إخفاء أمر وفاته كيلا يصل خبر موته إلى الصينيين خصومهم.

ولن يدفع تقدمهم أحد من هؤلاء إلى الظن بأن السلطان قد مات، وأن خلفاءه هم الذين يقودون هذا الجيش الجرار يحاولون تنفيذ إرادته وإقرار خطته.

وأُرسل جثمان قاهر العالم مع أحد حفدته بعد أن اهتم أحفاد السلطان تيمور وأمراؤه الذين كانوا حوله عند وفاته بتجهيزه وتكفينه، ثم وضع في صندوق خشبي وصلي عليه بعد صلاة العشاء، وحمل على محفَّةٍ وخرجت به من أوترار متجهة إلى سمرقند، فبلغتها بعد أربعة أيام فقط، ودفن في مقبرته التي أقامها لنفسه في جوار قبر حفيده محمد سلطان وقبر الشيخ بركة الذي كان مقرباً من السلطان تيمور بيك لأخلاقه الكريمة ودينه القويم.

وبعث قادة الجيش إلى بير محمد رسلاً يعلمونه بوفاة جدّه ويستدعونه للمجيء إلى سمرقند ليتولى السلطنة حسب وصية جده العظيم، وكذلك أرسلوا الخبر أيضاً إلى حكام المقاطعات المختلفة وإلى الأمراء البعيدين.

ولكن الجيش توقف حالاً عن التوجه إلى الصين لما بلغ رجالَه أن قادة الجناح الأيمن الخونة بقيادة الأمير خليل حفيد السلطان تيمور بيك بن ميران شاه وسلطان حسين ابن بنت السلطان تيمور بيك قد قرَّ رأيهما على تنصيب أميرهم على عرش الإمبراطورية، لذا عزموا على الرجوع إلى سمرقند والتوقف عن الزحف إلى الصين للنظر في المستجدَّات المخالفة لوصية السلطان الراحل.

توقفت الفتوحات بعد انتقاله كما توقفت بعد انتقال الحجاج بن يوسف الثقفي.

لقد كان السلطان تيمور بيك يعلم سوء طوية هذين الحفيدين الخائنين، لذلك لم يخصص لهما منطقة معينة يتولون حكمها كما فعل مع بقية أحفاده.

إذ كان خليل شاه مُقدماً على الزواج من امرأة سيئة السمعة والخلق. كما أنه كان ناقماً على جده تيمور بيك بسبب تجريده لأبيه ميران شاه من كافة أنواع السلطة والإمارة بسبب خروجه عن الشرع الشريف.

وأما سلطان حسين فقد خرج على السلطان تيمور بيك عند حصاره دمشق وانضم إلى المماليك ضدَّ جدِّه، مما أغضب جده عليه وأمر بمعاقبته عندما ألقي القبض عليه، وظل السلطان تيمور بيك معرضاً عن مخاطبته مدة طويلة من الزمن. وقد وصفه المؤرخ يزدي بالخبيث، حيث بدأت أول مظاهر المعارضة من جانبه كاللص حباً بالفتنة عندما أرسل بعض أتباعه إلى سمرقند لدراسة الأوضاع فيها، وليهيئوا له الجو المناسب منذ أن علم بمرض جدِّه وأنه يحتضر على فراش الموت. ولم يلبث بعد وفاة جدّه أن توجه نحو العاصمة بقوَّات موالية له.

وكانت حركة سلطان حسين سبباً لأن يرسل الأمراء والقادة الموجودين في أوترار إلى خليل سلطان في طاشقند يخبرونه بما أقدم عليه حسين.

وأحدث هذا الخبر ضجة عظيمة في المعسكر، واضطربت النفوس وثارت الخواطر، وكرَّ قائد الجناح الأيسر راجعاً إلى سمرقند.

فاضطر بقية القادة والأمراء الرجوع بدورهم لأنه لم يعد باستطاعتهم الزحف وحدهم إلى الصين.

وكـم كـان عجـب هـؤلاء القـادة عظيمـاً لمـا وجـدوا أبـواب سمرقنـد مغلقـة في وجوههم، وقد اعتصم فيها خليل وأنصاره الـذين اشـتراهم بـأموال جدّه، إذ سرقها واستولى عليها. ورضي سكان المدينة بالأمر الواقع لأن سلطانهم قد توفي بعيداً عـنهم ولم يسمع أحد منهم وصيته الأخيرة.

ولما رأى الأمير نور الدين وكـان أحـد أكبر قـادة السلطان تيمـور بيـك مـا آلـت إليـه الحالة كتب إلى خليل سلطان يقول:

(إن قلوبنا تتفطر حزناً ولوعة حين نرى أنه ما كاد الإمبراطور العظيم يمـوت حتـى رأينا رجالاً لا قيمة لهـم، وقـد كـانوا عنـده بمنزلـة العبيـد يعملـون مـا يخـالف رغبتـه ووصيته، وإن إمبراطوراً أجبر ملوك العالم على الوقوف ببابه والقيام بخدمته تتناساه عبيده وخدمه بعد موته بأيام، لأمرٌ جدير بأن يبعث على الأسى والحزن.

فأين الإخلاص؟ وأين الأخلاق؟.

لو أن لدى الحجارة قلباً لبكت ألماً وحزناً.

وأما نحن فإننا لن ننسى إمبراطورنا ووصيته وسنطيع أبناءه الأمراء كل الطاعة).

كان احتلال مدينة سمرقند من قبل حفيدٍ مـن أحفـاد السلطان تيمـور حـدثاً بسـيطاً بإمبراطوريته العملاقة الكبرى، لكنه أوقف فتوح الصين.

أما إمبراطوريته الشامخة فقد رسخت بين أبنائه البررة:

١ـ استطاع شاه روخ بن السلطان تيمور بيك فرض نفوذه على العراق وحتـى بـلاد ما وراء النهر، وقد لُقِّب بمعين الدين. وكان ميّـالاً للمسـالمة إلا إذا فـرض عليـه القتـال. ودام نفوذه وابنه أولغ بيك حاكم سمرقند وأولاده إلى عهد طويل أيضاً.

وجاء في الضوء اللامع عنه أنه :

(ملك الشرق وسلطان ما وراء النهر وخراسان وخوارزم وعراق العجم ومازندران ومملكة دلهي من الهند وكرمان وأذربيجان.

ودامت مراسيمهما السلطانية وخلعاتهما السنية على مواليهم وأختامهما الملوكية يُعمل بها أكثر من قرن ونصف قرن).

وكان من وصايا وتعاليم السلطان تيمور بيك لحفيده أولغ بيك :

« أنِ ابسطْ بساط الأمان وعامِل الكبير والصغير والرفيع والوضيع منهم بالفضل والإحسان وأن لا يجري في ممالكك ظلم ولاحيف».

وبمبدأ العدالة هذا ساد ملكهما وعاشت شعوبهما بالأمن والأمان الذي كان له الفضل كله بإحلاله بعد قضائه على كل فساد[1].

٢ـ أما بير محمد حفيد السلطان تيمور بيك والذي انتقاه خليفة من بعده ، فقد أثبتت الأيام أن السلطان تيمور بيك ثاقب البصيرة ، إذ تبين أن بير محمد هو أقدر الورثة ، فقد أنجب سلالة ظلت تحكم الهند حتى عهد بريطانيا على الهند عام/١٨٦٥م/. لقد أظهر شاه روخ شجاعة نادرة أثناء حياة أبيه السلطان تيمور بيك خلال المعارك التي خاضها ، كما أن مناقبه تخوله أن يصبح سلطاناً ليس على خراسان وبلاد الفرس فحسب بل على المملكة كلها ، ولكن بير محمد حفيد السلطان تيمور بيك أيضاً أجدر بذلك المنصب لشجاعته ودرايته وتطلُّعاته السامية ببناء مستقبل الإسلام ، وقد أثبتت الأيام ذلك.

---

(١) لم يدع الداسُّون إناء إلا ولغوا فيه عكس الحقيقة ، ولاسيما في سير المصلحين للتشويه وزرع بذور التفرقة بين المسلمين ، وقد قام هؤلاء بصياغة قصص ملفقة مؤداها نفي الصفة الإسلامية عن السلطان تيمور بيك وذريته من بعده لإقامة حاجز يحول دون التفكير بجمع كلمة المسلمين بين المشرق والمغرب.

من أحفاد السلطان تيمور بيك الذين توارثوا الحكم :

سلطان حسين بيكار :

دام حكمه قرابة الأربعين عاماً /١٤٦٩ـ١٥٠٦م/ وهو ابن غياث الدين منصور بن أمير بيك أحمد بن شيخ عمر بن السلطان تيمور بيك.

٣ـ ومن سلالة **عمر بن ميران شاه** بن السلطان تيمور بيك حاكم أذربيجان.

حكم **السلطان أبو سعيد** عام/١٤٥٥م/ ومن ثم ابنه **سلطان محمود** ومن ثم حفيده **سلطان مسعود** عام/١٤٩٩م/.

٤ـ ويعدُّ **بابر ميرزا** من بين أعظم الأمراء في العالم الشرقي والغربي على السواء ويذكر عند أئمة المستشرقين بقيصر الشرق، وقد أدرك ببصيرته النفَّاذة أن بلاد ما وراء النهر بعد قرن من وفاة جده السلطان تيمور بيك أخذت تتفتت، فتقدم ليبذل غاية جهده وكله أمل في تفادي وقوع هذه الكارثة، وانتهت جهوده بتأسيس الدولة المغولية المسلمة في الهند بعد أن أمضى ثلاثين عاماً لا يصوم شهر رمضان عامين متتالين في بلد واحد.

وكان هدف بابر كما يصرح هو بنفسه :

(أن يحول دون سقوط عرش سمرقند بأيد دخيلة بعد أن لبث في يد السلطان تيمور بيك وأحفاده قرناً ونصف).

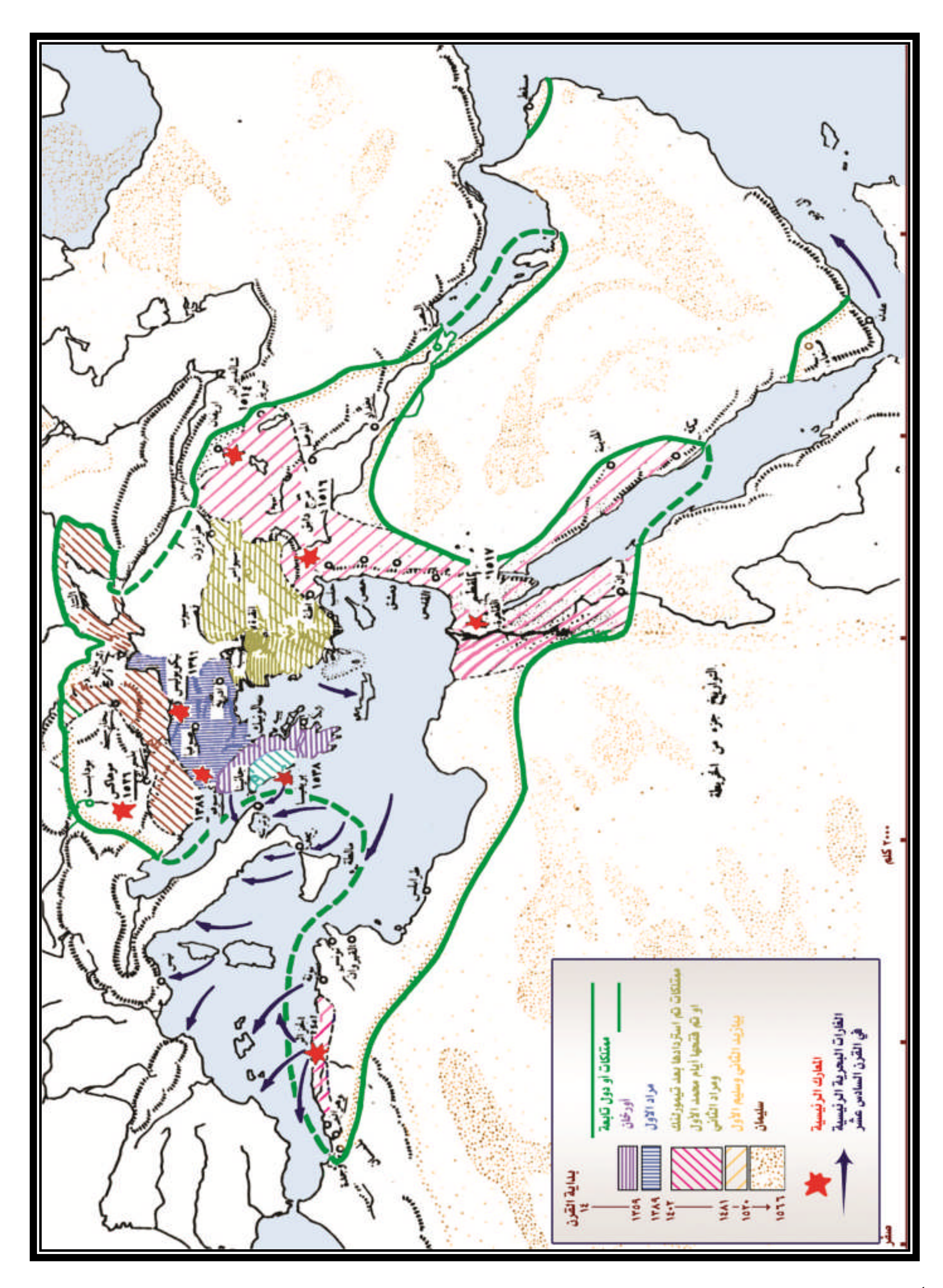
وعلى كلٍّ:

عُرف التيموريون عند المؤرخين الشرقيين بغيرتهم الشديدة وتمسُّكهم بمذهب أهل الحق والقرآن.

وهكذا سارت مركبة السلطان تيمور بيك الإسلامية قوية شامخة دهوراً طويلة من بعده، فأحلّت الأمن والسلام في مشارق الأرض ومغاربها بدل القتال والخصام، ورسَّخت أسس الإسلام، فقضت على المفاسد والسلب والنهب والخصام فشحنت النفوس بقوة الإيمان وهدْي كتاب الله، كما ثبَّتت الدولة العثمانية كأقوى قوة ضاربة لثلاثة قرون وضاءة أضاءت جبين الحق في العالم كله.

٥ـ بدأت الإمبراطورية العثمانية الكبرى بالانهيار، فكان السلطان تيمور بيك سبب تهذيب نفوس ملوكها وتشذيب عقولهم وتحسين طباعهم وعاداتهم وتخليصهم من كل عوامل الضعف والوهن والاضمحلال، فله الفضل في نشوء الإمبراطورية العالمية العثمانية الضاربة في العالم ونهوضها بعد ضعفها، وبالتالي نشوء الإسلام ورقيّه وبعثه من جديد على أسس راسخة مبنية على نظام كتاب الله القرآن المجيد والذي به النصر على العالمين.

حقاً لقد أصلح فساد المسلمين وقوَّض دعائم الباطل، فتمت ولادة الإمبراطورية العثمانية المجيدة التي دانت لها دول البلقان، وعاد الناس يدينون دين الحق، وأخذ الدين الإسلامي يرفل بالصحة من جديد، عندها أذن الله للعثمانيين المسلمين بفتح القسطنطينية، وأصبحت مدينة الإسلام (إسلام بول)، وذلك كله بفضل إصلاحات السلطان العظيم الذي كان يحمل المصحف والسيف فاتحاً مصلحاً يجتث الفساد من البلاد وقلوب العباد.



تمَّ تهييئ كافة السبل بفتوحات السلطان تيمور بيك من الإصلاحات الداخلية والخارجية لقيام إمبراطورية إسلامية عالمية.

حقاً لقد انتقل ولكنه خلَّف بأعماله وفضله إمبراطوريتين إسلاميتين عظيمتين، إحداهما بأيدي أبنائه البررة والثانية الإمبراطورية العثمانية الفاتحة، فأكبر به من إنسانٍ عصامي لم تنصره قبيلة كبرى أو أبٌ سلطان كجنكيز خان المغولي، أو الاسكندر المقدوني، فهم لا يذكرون تجاهه وليسوا على شاكلته ولا يتشبهون أبداً بشخصيته، فهو حقاً آية عظمى، كان نصره من ذاته وأفكاره، فجنكيزخان تمّ نصره بقادته ومستشاريه، أما تيمور بيك فعلى دين الله الحق سار وسلك، وأقام دعائم الحق. فكان مجدِّداً للدين الإسلامي في ذلك الزمان دون وزير، علوم فتوحاته كلها إشراقية بنصر دائم وبصيرة لا تخطئ، ينبع النصر من ذاته بذاته وتخطيطه من الحركة وأثناء المعركة فيتم الفصل والنصر على بصيرة وتنهار أمامه الجيوش وجحافلها فلم يخطئ، بصيرة كبصيرة الأنبياء المعصومين من الزلل والهزيمة والفشل.

إنه حقاً شمسٌ عظيمة محت الجراثيم المُمرضة من قلوب المسلمين وأحيت كلمة الحق والدين، بعد أن بدأ الناس يخرجون من الدين أفواجاً أعادهم إلى الدين والنصر والعزة أفواجاً، وهذه أعماله تنبئك عن حقيقته، والسلام على من اتبع الهدى وعرف حقيقة العظماء.

❁❁❁

شاه روخ بن تيمور بيك

الآن:

نترك شرف خان البدليسي يحدثنا عن شاه روخ بن تيمور بيك وشيئاً من أفعاله وسياسته الرشيدة التي جبله عليها أبوه العظيم، يقول:

سنة/٨٠٨هـ ـ ١٤٠٥،١٤٠٦م/:

توجه **الميرزا ميران شاه** بن الأمير تيمور بيك كوركان من أذربيجان إلى خراسان. ولما شاع هذا الخبر وبلغ مسامع أخيه **الميرزا شاه روخ** أرسل جماعة من الأمراء مثل **صوفي ترخان والأمير جهان ملك والأمير فيروزشاه** ومعهم خمسة آلاف فارس لمقابلة أخيه، وقال لهم:

(إذا كان قادماً بقصد الحصول على السلطنة ومعتزماً الثورة والعصيان فليبادروا إلى قتاله ودفعه، وأما إذا كان آتياً كأخ وفرد من الأسرة فليقوموا بما يجب لأمثاله من التكريم والتبجيل وقد أحسّوا ميله إلى هذا السلوك).

ثم زوَّد الأمراء بخطاب يشتمل على قواعد حسن السمعة وسوئها وما يجوز وما لا يجوز من قوانين الصلح وأصول الحرب.

فتوجه الأمراء إلى لقائه فبلغوا معسكر **الميرزا ميران شاه** في موضع يقال له كالبوش، وتشرَّفوا بتقبيل يديه وبساطه الشريف رافعين إليه خطاب **شاه روخ** وتعليماته. فأبدى الميرزا ميران شاه الجنوح إلى السلم والصلح والوحدة قائلاً:

(إن الله سبحانه وتعالى أعطى السلطنة لأخي فوهبه السعادة الأزلية والدولة الأبدية، وجعلنا نستمع إلى قوله تعالى: ﴿..سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ..﴾. آملين أن تتحقق بشرى قوله تعالى: ﴿.. وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا..﴾[1] مستبشرين).

فأثنى الأمراء عليه وسُرُّوا من إجابته داعين له بالبقاء.

سنة/٨١٧هـ ـ١٤١٤، ١٤١٥م/:

وفي هذه السنة قام **الميرزا شاه روخ** بزحف على إقليم فارس بقصد تأديب ابن أخيه **الميرزا بايقرا** الذي كان قد رفع علم الثورة والخلاف معه.

فلما استقر الموكب الهمايوني في ميدان السعادة بشيراز اضطر **الميرزا بايقرا** للتسليم والخضوع، فتوسط **الميرزا بايسنقر** نجل **الميرزا شاه روخ** لدى والده وجعله شفيعاً له، ثم تقدم هو لعمه حاملاً السيف والكفن في عنقه، علامة على خضوعه وتسليمه، فشمله عمّه بالعفو والمغفرة ساحباً ذيل النسيان على ما صدر منه.

هذه تربية تيمور العظيم لأبنائه وأحفاده مما أدام ملكه مسيطراً مظفراً قرناً ونصف القرن بعد انتقاله لرحاب ربّه الرحيم، فأكبْر به وأعظم بإيمانه العظيم، إذ أقام دعائم الإسلام على العالم ولا يزال مزدهراً في كافة بلدان القوقاز.

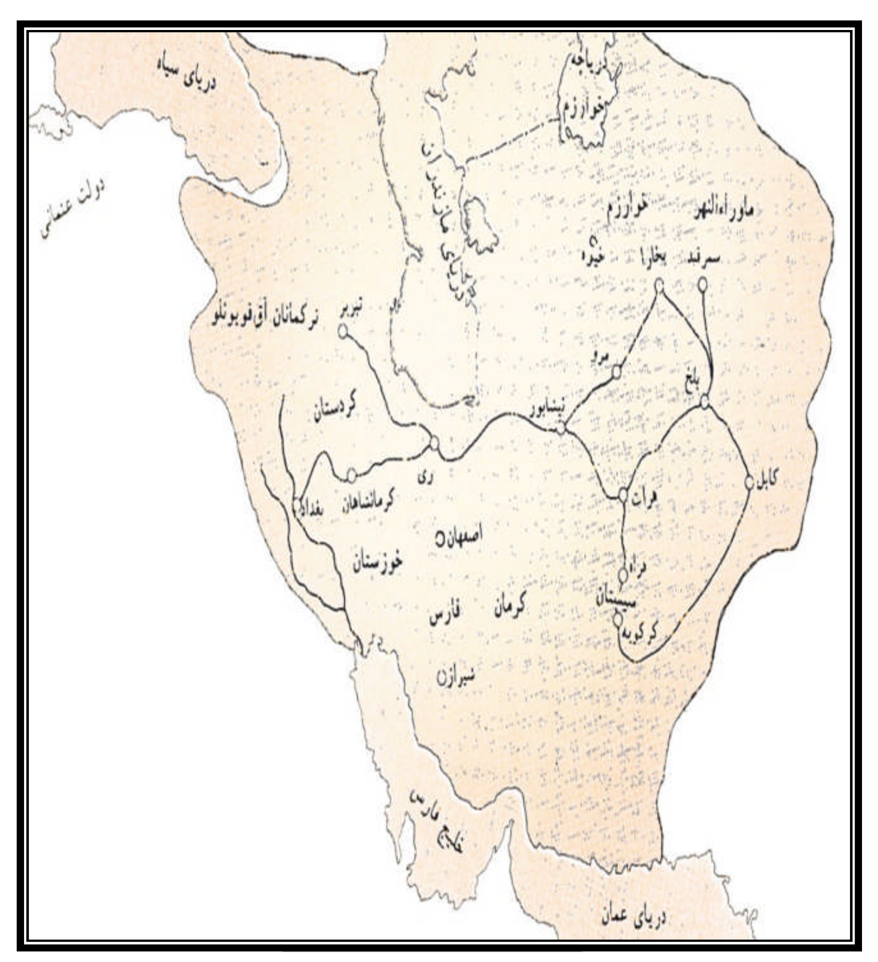
سنة/٨٢٠هـ ـ١٤١٧، ١٤١٨م/:

وفي منتصف هذه السنة أيضاً قام **الميرزا شاه روخ** من هراة برحلة بقصد زيارة المشهد المنور والمرقد المعطر للسيد **علي بن موسى الرضا.**

فوصل إلى مرقد ذلك الإمام في اليوم الخامس عشر من شعبان تلك السنة، وأدى شروط الزيارة كاملة وأهداه قنديلاً من الذهب وزنه ثلاثة آلاف مثقال كان قد أعدَّه من قبل لهذا الغرض، فعُلِّق على المرقد من ناحية الرأس. ثم أنشأ أربع حدائق وقصراً في الجانب الشرقي لذلك المرقد المعطَّر، وعاد بعد ذلك إلى هراة.

---

[1] سورة القصص: الآية(٣٥).



تيموريان (شاه روخ)

<u>سنة/٨٣٠هـ ـ١٤٢٦، ١٤٢٧م/:</u>

ومن عظائم أمور هذه السنة قضية اغتيال الميرزا شاه روخ مستشهداً بضربة سكين.

وتفصيل ذلك هو أن جناب شاه روخ كان بموجب نص قوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ... ﴾[1].

---

(١) سورة الجمعة: الآية(٩).

يقضي صلاة الجمعة في المسجد الذي يقع في داخل مدينة هراة، ففي يوم الجمعة الثالث والعشرين من شهر ربيع الثاني من السنة المذكورة بعد أن أدى فريضة الصلاة همّ بالإنصراف، فإذا برجل في زي الصوفية يعترضه، هو "**أحمد لر**"، متقدماً بورقة في يده كأنه يريد أن يرفع إليه شكواه، فأمر الميرزا أحد ملازميه أن يتعرف على قصده وأن يعرض أمره عليه، ولكن "**أحمد لر**" اندفع غير وجل وطعن "**الميرزا**" في بطنه بسكين مقوسة، أعملت فيه عملها، وعلى الفور مزق الأمراء القاتل إرباً إرباً.

❁❁❁

الإمبراطورية التيمورية

توافدت شعوب كثيرة غير متجانسة في اللغة واللهجة والعادات كالتتر والمغول والترك والفرس والعرب وغيرهم ممن أسلم لدين الحق فانضوت تحت رايته المظفرة، لذا عمد السلطان تيمور بيك إلى تنظيم الإدارة في ملكه الشاسع وبذلك النظام الذي فرضه السلطان تيمور بيك وبمحبة تلك الأمم له ساد الأمن والأمان في ربوع إمبراطوريته الإسلامية فظلت موالية له راضية بحكمه حتى بعد انتقاله. وإن شذَّ شاذٌ وظهرت بوادر ثورة في منطقة قريبة أو نائية قمعها في الحال إن لم تجدِ السبل السلمية، حيث لم يبقَ مبرر لقيام ثورة في ربوع تلك الإمبراطورية الإسلامية القائمة على مبدأ العدل والإنصاف الشامل، وتأمين كافة مستلزمات الحياة (كفالة اجتماعية تامة) مع حرية الأديان السماوية.

وبذلك لم ينتقض شعب ولم تقم ثورة إلا بدافع كراهية الإسلام وحباً بالفتنة والاستبداد بالملك، لذا كان البطش بالمحرِّضين عبرة لمن تسوِّل له نفسه القيام بمثل هذا الباطل، وحتى لا تقوم لهم من بعد قائمة.

وعمدت السلطة التيمورية لنشر الإشاعة وتهويل أمثال تلك الوقائع بالمخالفين الثائرين، لتحطيم القوى المعنوية لمن يفكِّر بالثورة أو الانتقاض، وقد أجدت أيما جدوى، إلاَّ أنه لم يصلنا مع الأسف إلا أكثر تلك المبالغات والتشبيهات اللاذعة الحاقدة من صفات الهمجية والوحشية والتي هي دسوس لا أصل لها .

مع أن عدو السلطان تيمور بيك اللدود ابن عربشاه يقول فيه :

(لطفه مندرج في قهره وعنفه مندرج في بره) :

مـر المذاقـة علـى أعدائـه بشـع　　　حلو الفكاهة للأصحاب كالعسل

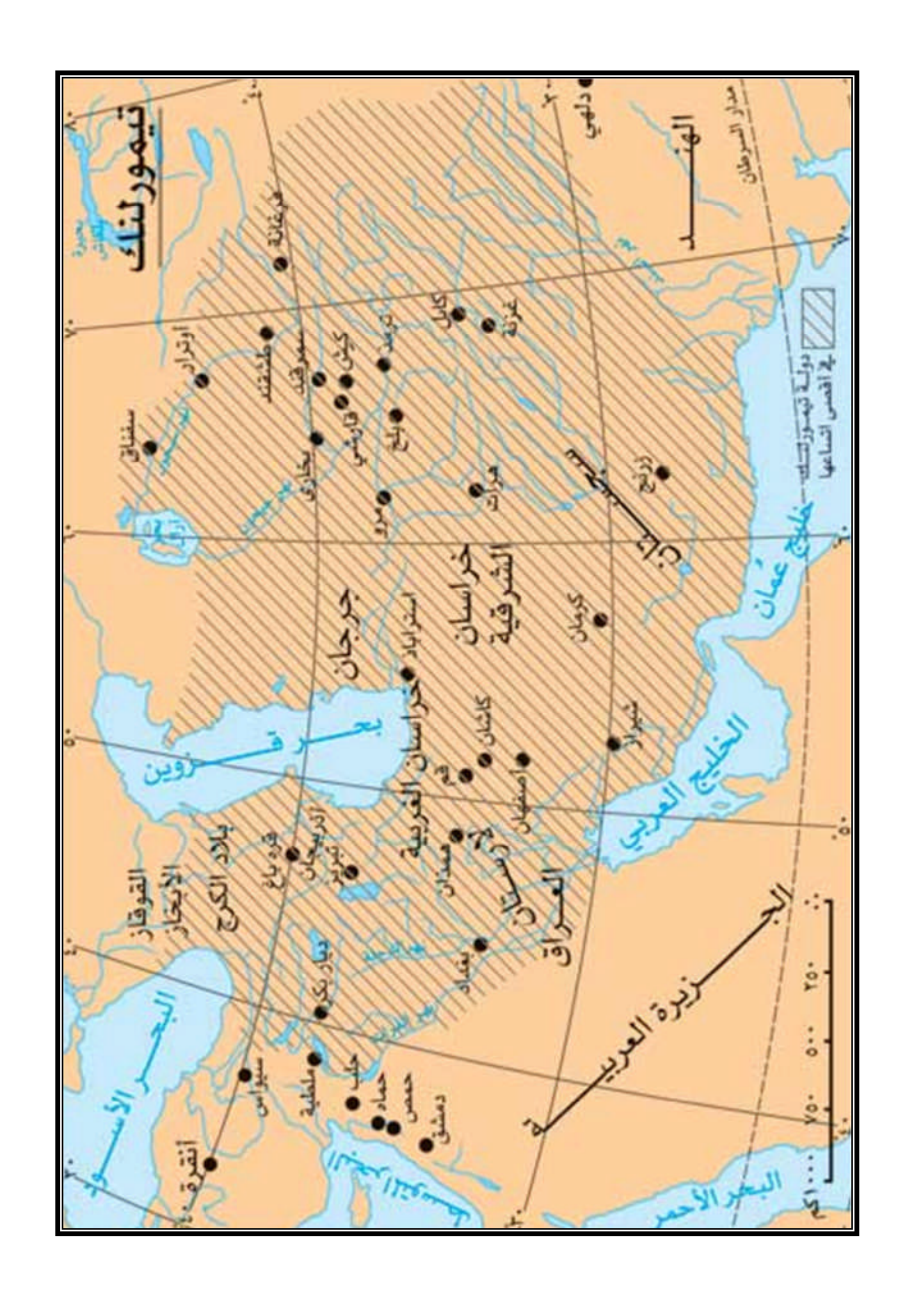
متفـرق الطعمـين مجتمـع القـوى　　　فكأنـــه الســـراء والضـــراء

فما رأى أولئك المؤرخون إلا ما أشيع وما أُحُدِث للتربية النفسية قبل القصاص الجسدي من حوادث مشؤومة وأعمال نكراء ترفع عن فاعليها صفة الإنسانية ، ورغم تلك الرقعة المفتعلة من السواد التي أحاطت بتاريخ السلطان تيمور بيك ظل شوكة في حلقوم أعدائه ، ولم يمنع ذلك من النظر بعين التقدير والاعتبار لتلك الشخصية العالمية الفذّة ، التي أشرقت في الظلمة الحالكة وشقَّتْ طريقها فوق كلِّ الاضطرابات على وجه المعمورة.

انطلق فرداً من نشأة متواضعة إلى السيطرة العالمية والشهرة المدوية إلى يوم يبعثون. فاجتمعت فيه من القوة الإيمانية والمواهب العسكرية والمزايا السياسية ما جعل لصاحبها مكانته الثابتة في التاريخ ، واسمه المدوي في أوائل العباقرة على كرِّ العصور.

هذا ولا يزال سكان ما وراء النهر يذكرون تيمور بيك بالإجلال والإكبار والعصمة حتى يومنا هذا .

تجلت قيادته الحكيمة لجمهرة همجية لا تعترف بالقواعد والأصول ، فخاض بها الأهوال ، ونازل بها أعظم الجيوش في زمانه ، وغزا الحصون المنيعة وقهر الممالك العتيدة ، وأحلَّ بهم الأمان في العالم أجمع ، ولكنه صَبَر صبْرَ الأنبياء ، وحلِم عليهم رحمة منه وحناناً.



إمبراطورية السلطان تيمور بيك الإسلامية

التيموريون حكموا في بلاد ما وراء النهر (آسيا الوسطى)، أفغانستان ، شمال الهند ، إيران، العراق، الشام، شرق الأناضول وأجزاء من منطقة القفقاس.

كما أنه قبض على دفة الحكم بيد من فولاذ، فأشرف على جميع الشؤون السياسية والاقتصادية والمدنية في إمبراطوريته الشاسعة الأرجاء المختلفة المذاهب والمتعددة الأجناس.

أصلح طرق القوافل ومهَّدها ونظفها وبنى فيها بيوتاً للنوم والراحة، وأمدها بالماء من أنابيب ممتدة بينها وبين البلاد القريبة، وأقام على الطرق حراساً من الجند والضباط وجعلهم مسؤولين عن صيانة الأمن فيها وسلامة المواصلات وكان هؤلاء مسؤولين عن كلِّ جمل أو فرس أو غيره يسرق من القوافل التي تمرّ في مناطقهم.

وكان تجّار القوافل لا يدفعون سوى ضريبة واحدة مع أن بعضهم كان يقطع في بلاده مسيرة خمسة أشهر وهذا يدل على أنه ليس للسلطان تيمور بيك غاية مادية كما يُذكر، وقد تيسر بهذا النظام تبادل التجارة بين أنحاء الإمبراطورية المترامية الأطراف وبين الشرق والغرب، كما أَمِنَت قوافل الحجاج لبيت الله الحرام من قطاع الطرق.

إحدى هذه الطرق (طريق خراسان العظيم): الذي يبدأ من الصين وصحاري جوبي ويتَّجه شمالاً نحو(ألماليك)، ثم يميل غرباً إلى سمرقند فسلطانية وتبريز وأخيراً إلى القسطنطينية، وقد وصف السفير الإسباني كلافيجو (١٤٠٢م ـ١٤٠٣م) أن الطريق ممهدة نظيفة لا تقع العين على حجر واحد ملقى عليها وتتخللها منازل للراحة، يتوافر فيها الغذاء والماء العذب الصافي، وبها محطات لتبادل الخيل والإبل، والأمن فيها مستتب.

كما بثَّ السلطان تيمور بيك عيونه في كافة البلاد، يرسلون إليه تقاريرهم عن كل صغيرة وكبيرة تقع تحت حسِّهم، ويحيطونه علماً بأخبار حكّامه وقادته وزعماء القبائل، وكانوا يتحرّون الصدق فيما يكتبون، لأنهم كانوا يعلمون أن افتراء الكذب

أو اختلاق الحوادث زرعٌ للفتنة: ﴿...وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ... ﴾ [1]، لذا كانت العقوبة هي الإعدام.

ونظراً لأهمية البريد:

اهتم السلطان تيمور بيك بمواصلاته، فعمَّر الجسور وأنشأ الطرق وأقام فيها حراساً للمحافظة عليها في أيام الشتاء حيث تكثر الثلوج والأمطار، وكانت في هذه المحطات خيول جاهزة، فكان في بعضها مائة رأس وفي غيرها أكثر من ذلك، حتى إذا أراد السلطان تيمور بيك العودة مسرعاً وجد في المحطات ما يحتاجه من الخيل القوية السريعة، كما أن أصحاب البريد يستعملون هذه الخيول لنقل الأخبار بسرعة من مكان إلى آخر، وكان السلطان تيمور بيك يفضل رسله الذين يركبون الليل والنهار للوصول إليه يحملون له الكتب والأخبار.

وكانت الرسل ترد بكثرة عليه من مختلف المدن ومن القادة والأمراء، مما يدل على عناية السلطان تيمور بيك العظيمة في التعرف على أخبار مملكته الواسعة الأطراف، والإحاطة الشاملة بأحوال الناس والخوف عليهم وضمان أمنهم وسلامتهم.

كما أنه جعل لجيشه نظاماً وقواعد وحدوداً لا يخرج عنها أحد، فكان الضبط والربط الذي يُعرف حديثاً بأنّه الأساس الذي بنى عليه جيشه، فتحول الهمج إلى جند نظاميين، يعرف كل منهم مكانه في العمل وحدوده في المعاملة، فكان الجندي يتناول راتباً معيناً كافياً وافياً من بيت المال، ولا يسمح له بالاعتداء على أحد أو التطاول على غيره، وقد حرَّم عليهم أن يتعرضوا للأهالي بإساءة أو مكروه، ومنعهم من دخول البيوت بغير دعوة أصحابها.

---

(1) سورة البقرة: الآية(١٩١).

ومثلما اهتمَّ السلطان تيمور بيك بشؤون التجارة كان مهتماً بالزراعة وإصلاح أحوال الفلاحين، إذ كان يعتقد أن الفلاحين هم مصدر الثروة ومنبع القوة للجيش والوطن، ومنهم الخير للبلاد والعباد. فعمد إلى الأراضي البور ووزعها على المزارعين الذين يستطيعون إصلاحها، وكانت تعفى من الخراج إلى أن تجود بمحصول جيد، وقد أمر العلماء وكما يقول ابن عربشاه:

(أن يؤذنوا في جماعاتهم بأن يقيم كل منهم في الزرع ففي ذلك صلاحه، والحذر الحذر أن يترك أحد فلاحته، ورام بذلك أن يكون لهم في سفرهم عتاداً وإن نقص لهم في الدرب قضيم وخضيم زاداً، فتركوا العمارة وقصد كل من الأمراء دياره، واشتغلوا باستخراج البذار، واجتهدوا في إحياء جميع الموات كما رسم وأشار).

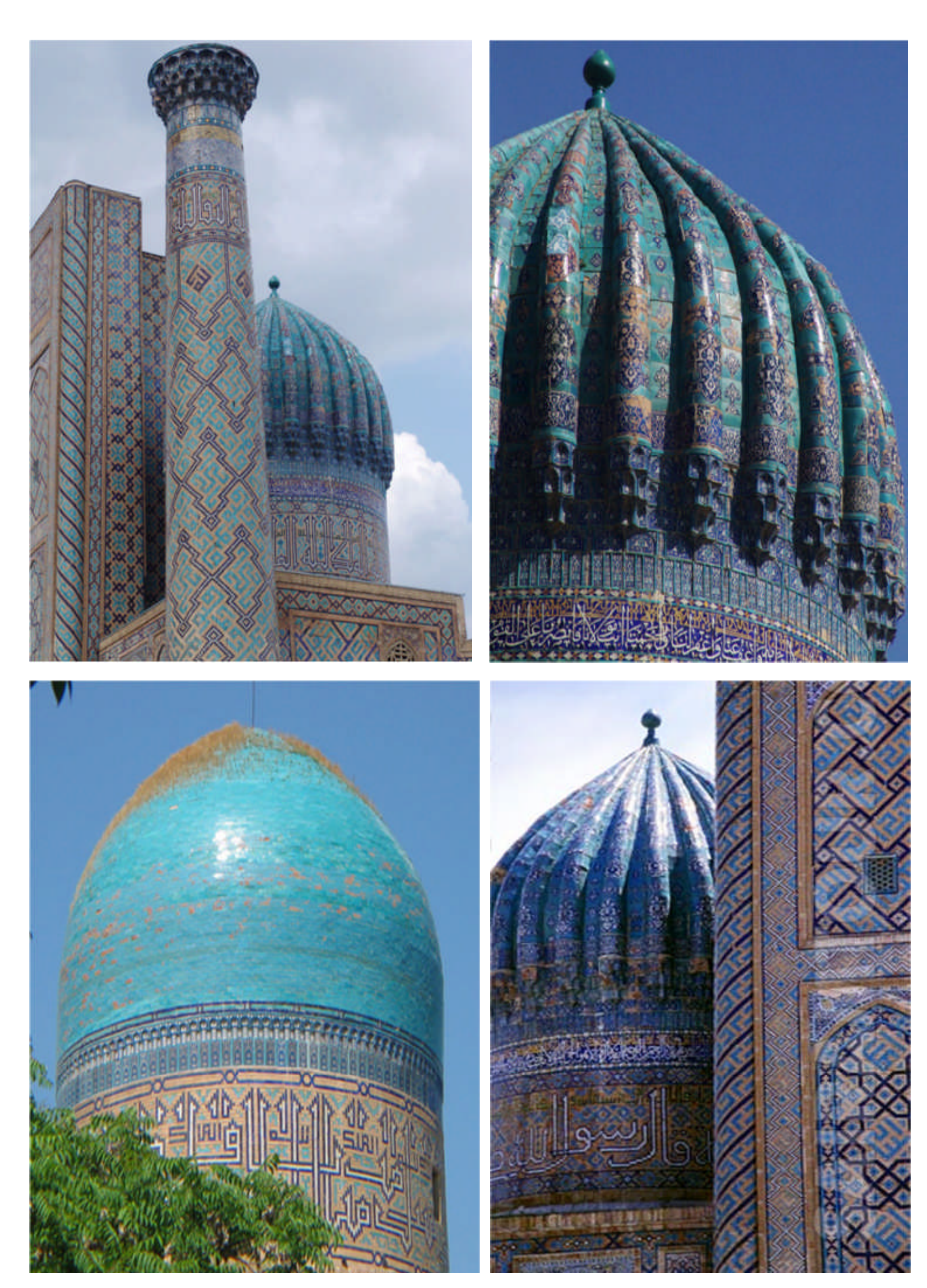
وكانت هذه شهادة من الأعداء تدل على نزاهة مقصد السلطان تيمور بيك من غزواته بأنه ليس للسلب ولا للنهب، بل كفايتهم زاداً ومؤونة، وبذلك لا يتعرض الجيش التيموري رغم كثافته للأهالي الوادعين بسوء.

كما يستطيع الناظر أن يرى شواهد ودلائل أخرى على ثمرات جهود السلطان تيمور بيك في سمرقند.

فقد كانت الأبنية التي تضم الكليَّات الإسلامية والمدارس ترتفع أعلى من قصور الأمراء في جميع قطاعات المدينة، نظراً لعزة الإسلام التي تعلو فوق كل عزة دنيوية في ربوع الإمبراطورية التيمورية. وكانت تلك المدارس تحوي بين جدرانها أشهر العلماء والأساتذة الذين يكنون له مطلق الاحترام والإجلال بوصفه الحامي الأول للعقيدة وللعلم والتعليم.

كما كانت الجوامع ذات القبب الضخمة والمساجد ذات المآذن الرشيقة تزيِّن سمرقند، بل وتزين كافة أرجاء الإمبراطورية.

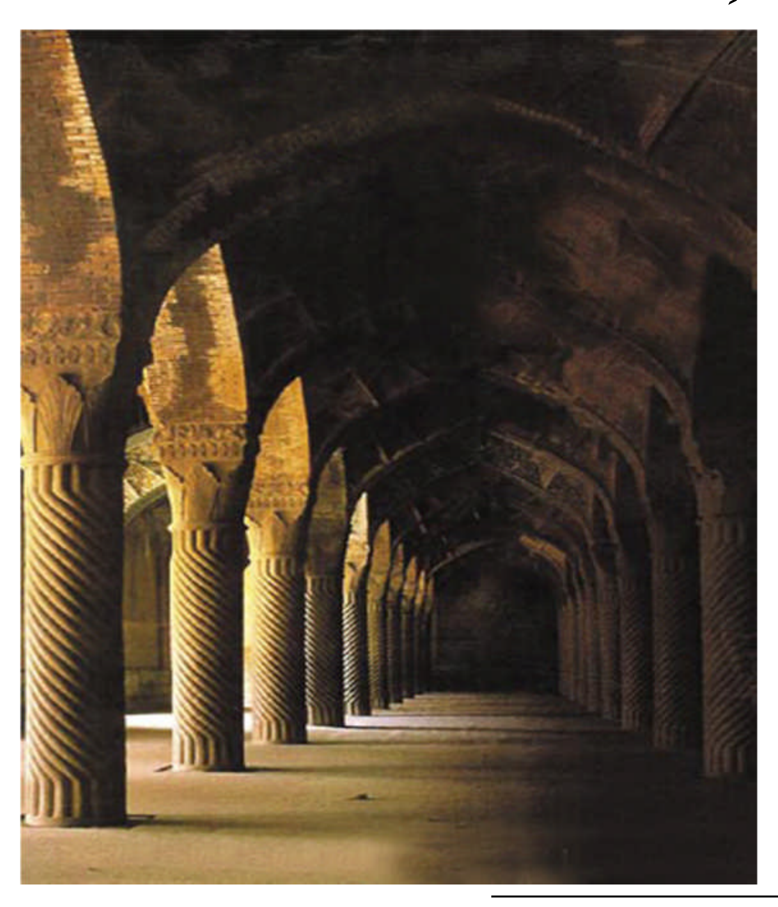
ولقد اقترن بناء المساجد في سمرقند بالأضرحة فهي تمثل سمة مميزة للمدينة ، إلا أن أبرز ما فيها هو الناحية الجمالية التي تتمثل في القباب المزخرفة وهي نموذجاً فريداً من الفن الإسلامي الشرقي.



ولقد اقترن بناء المساجد في سمرقند بالأضرحة فهي تمثل سمة مميزة للمدينة ، إلا أن أبرز ما فيها هو الناحية الجمالية التي تتمثل في القباب المزخرفة وهي نموذجاً فريداً من الفن الإسلامي الشرقي.

كما أن المسجد الذي بناه السلطان خدا بنده بمدينة سلطانية قبل ذلك بقرن لا يمكن أن يرقى إلى جامع السلطان تيمور بيك الذي يعرف بمسجد الشاه، والذي لا يزال يسمو شامخاً فوق الآثار القديمة بمدينة سمرقند الحديثة. ويذكر بابر في سيرته أن باب هذا الجامع كانت تعلوه آية قرآنية ضخمة الكتابة حتى كانت تطالع النظّار وهم على بعد ميلين وهي كما ذكر بابر نامه:

﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[1].



(1) سورة البقرة: الآية(١٢٧).

ومن منشآت هذا الطراز الأخرى والتي يرجع الفضل في إقامتها إلى السلطان تيمور بيك ذلك المسجد الكبير الذي يقوم بميدان الشاه في أصبهان والأضرحة التي توجد في قم ومشهد.

وما يُقال عن ازدهار العمارة الإسلامية عند السلطان تيمور بيك يصدق، كذلك على الصناعة في هذا الإقليم.

فقد رغَّب السلطان تيمور بيك على الهجرة إلى سمرقند أمهر النساجين من دمشق، وغزَّالي القطن الممتازين من حلب، وصانعي الأقمشة في أنقرة والصيَّاغ في تركيا وبلاد الكرج، وبالجملة كل العمال المهرة في كل فن.

وذلك ما يبين لنا سبب استقدام السلطان تيمور بيك للعلماء والأساتذة من كافة أصقاع المعمورة. وكذلك قام بتحسين الأسلحة وصنع الآلات الحربية، وقد أوجد أنواعاً جديدة من آلات الحصار والمنجنيقات لزرع الرهبة، والأكباش[١] وقاذفات النار وغيرها. وجعل لهؤلاء المخترعين والصناع جناحاً خاصّاً بهم، وكلّهم فخر بأعمالهم وحماس جليٌّ بعد أن تبينوا نوايا السلطان تيمور بيك الخيِّرة للبشرية جمعاء.

وبذلك يتبين لنا سبب أخذه للمهرة من البنائين والمخترعين، فقد أوقف شرورهم وكفَّ أذاهم عن البشرية وسخَّرهم لنفع المسلمين وإعلاء دين الحق.

وجاء في تاريخ إيران بعد الإسلام تقديم محمد علاء الدين منصور الصفحة/٦٢١/ : ويصف عبد الرزاق السمرقندي صاحب كتاب مطلع السعدين الآلات التي شاهدها : **(كما دهشت عندما شاهدت الكرات السماوية وعليها النجوم والكواكب، وكذا الخرائط التي تبين صورة كل إقليم في دقة تامة).**

---

(١) **الأكباش**: آلات حربية قديمة.

ويدل بناء مثل هذا المرصد على تقدم علوم الفلك والرياضيات والجغرافية، وكان تيمور بيك كما ذكر **السمرقندي** يهتم أكثر بعلوم الدين والتصوف، يقول:

(كان يرعى تعظيم السادات والعلماء، ويكرم الأئمة الصالحين، ويبالغ في تقوية الدين والشرع المبين، ولم يشرع أحد في زمانه من التأليف في علم الحكمة والمنطق "الفلسفة").

ويذكر الساداتي قائلاً:

(وإلى السلطان تيمور يُرَدُّ الفضل في إشاعة الاهتمام الجدِّي بالحركة العقلية والعلمية بالبلاد، حتى بلغ بذلك العنصر التركي درجة من العزّة لم يعرفها أبداً من قبل، والواقع أن تاريخ الترك في آسيا الوسطى إنما يبدأ بالسلطان تيمور، وبرغم الحروب المستمرة التي خاضها ذلك الفاتح الكبير وبرغم المتاعب المتلاحقة التي تعرَّض لها، شهدت بلاده قبيل نهاية حكمه نهضةً عقلية لا تنكر في ميداني الدين والعلم).

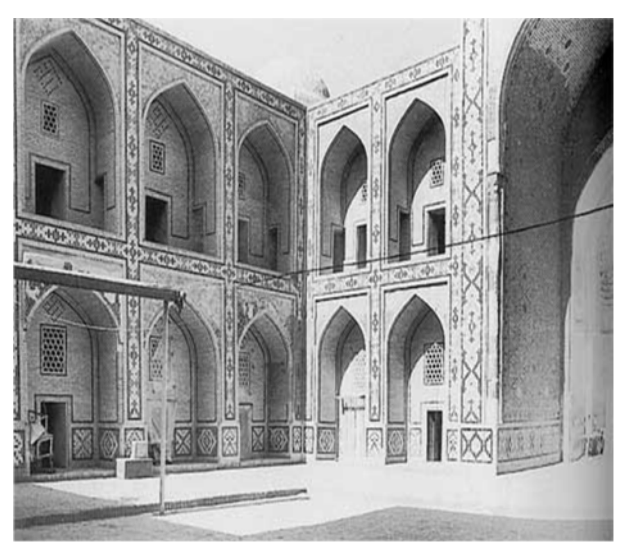
فالتاريخ يخبرنا عن رجلٍ من أسرة **زين العابدين وهو الصوفي السيد الهمداني** الذي ذرع[1] العالم المتحضر أكثر من ثلاث مرات كان يعظ الناس فيها ويهديهم، وترك مؤلفات كثيرة في مواضيع أخلاقية وصوفية، **وكذلك الصوفي الكبير خواجة بهاء الدين مؤسس الطريقة النقشبندية** بالعالَم الذي عاش في عهد تيمور بيك، وهو يُعدُّ إلى اليوم أعظم أولياء بخارى، وقد حضر (الكوريلتاي)[2] وكانت له يد كبيرة في تنصيب تيمور بيك سلطاناً.

---

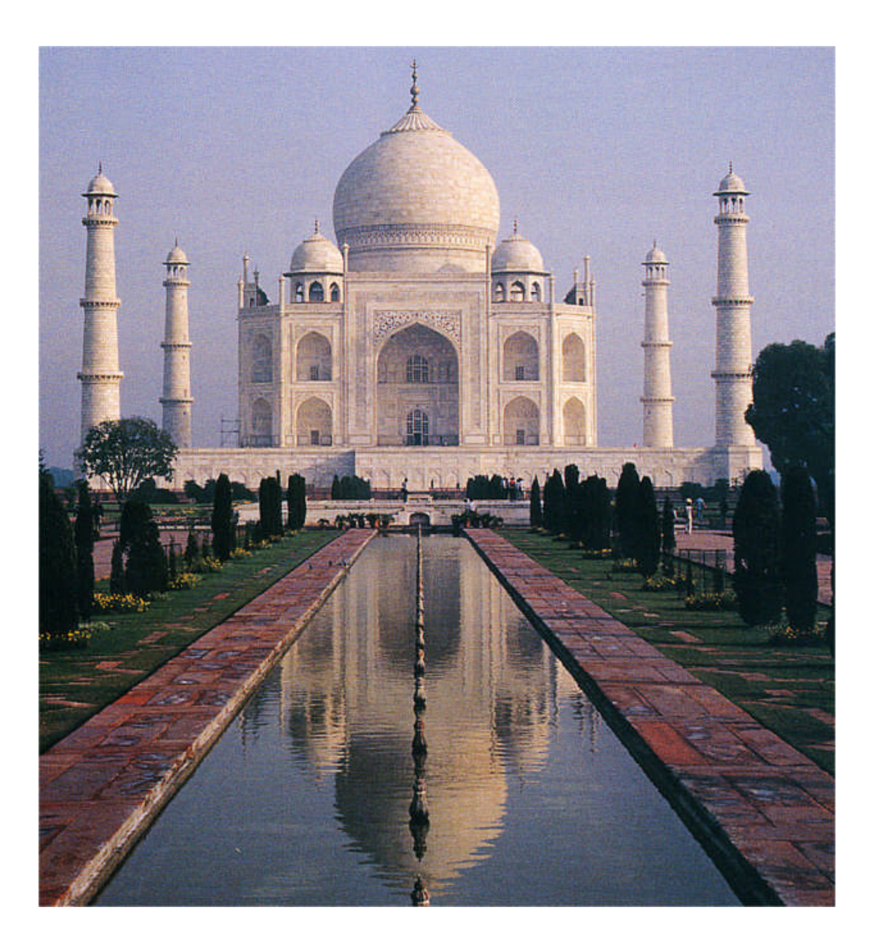
(١) أي تجوّل فيه بحرية.

(٢) مجلس تنصيب تيمور بيك سلطاناً، وكان له الباع الأكبر بذلك، انظر الصفحة/٢١٧/ ـ المجلد الأول من كتاب **(حقيقة تيمورلنك العظيم تظهر في القرن الواحد والعشرين)** بحث: **(المحرر من الشرائع الجنكيز خانية).**

وكان السلطان تيمور بيك يشمل بعطفه ورعايته عدداً ملحوظاً من العلماء من غير الترك، بل إن الذين حملهم على الهجرة من أوطانهم أغدق عليهم الكثير نظير هجرتهم، بل وأصبح لبعضهم مناصب مرموقة في البلاط، **كمحمود الخوارزمي والجَزري** وغيرهم من العلماء بُذلت لهم وظائف مجزيّة في مدارس بخارى وسمرقند وكش تزيد عن مناصبهم التي تركوها. ويتميز عهد السلطان تيمور بيك الزاهر على الخصوص بإقامة المدارس الكثيرة وإجراء الأرزاق عليها. ولا تزال بقايا هذه المدارس تثير دهشة زوار بخارى اليوم، ولقد جعل السلطان تيمور بيك من نفسه مثالاً يُحتذى من بعده في ذلك، فأخذ فريق من أبناء أسرته ومن الوزراء والنبلاء يتنافسون فيما بينهم في بناء المدارس والمساجد ودور الشفاء وإجراء الأرزاق عليها. حتى لم تجد النهضة الفكرية الإسلامية مناصاً إلا أن تسلك وتنشئ أجيالاً تحمل رسم الإسلام قولاً وعملاً وعلماً في ربوع قارة آسيا. وما الإسلام وقوته السائدة في بلدان القوقاز وداغستان والشيشان وأذربيجان وكذلك أفغانستان والباكستان وغيرهم من شعوب أواسط آسيا كإيران إلاَّ نتاج سعيه الصالح بالإصلاحات الإسلامية التي قام بها... وهذا غيض من فيض الخدمات التي أدَّاها السلطان تيمور بيك للمسلمين في العالم أجمع.



مدرسة ألغ بيك في بخارى حفيد السلطان تيمور بيك



تاج مَحلْ أحد عجائب الدنيا السبع الحديثة وجوهرة العمارة الإسلامية لما كان للحضارة الإسلامية من تأثير هام في شبه القارة الهندية بوجه خاص وتأثير على الحضارة الإنسانية بشكل عام، بعض الأماكن الخارجية مزينة بآيات قرآنية منقوشة ومكتوبة بخط جميل.

هذا الأثر الفني الرائع بناه أحد أباطرة الهند من أحفاد السلطان تيمور بيك وهذه القبة الضخمة غدت نموذجاً لتصميم القبب في آسيا إثر نقل السلطان تيمور بيك لها عن قبة الجامع الأموي في دمشق.



والأندلس؟!.

وبعد أن تبين لنا كيف حافظ السلطان تيمور بيك على ثمار الدولة العثمانية ونتاج فتوحاتهم المباركة من أيدي العابثين ذوي الأطماع الشخصية والنفعية الأنانية، فأخضع الفرنجة قاطبة بالرعب الذي حلَّ بساحتهم إثر سماعهم عن الإعصار التيموري القاهر لكلِّ مخالف له ومفسد، ممَّا جعلهم يرسلون إليه الرسل بالمهاداة والموادة رغبة برضاه ورهبة من إشارته.

لذا وجب علينا أن نبين نقطة أخرى أثارها بعض الكتبة من أنه:

كيف يقول تيمور بيك لكلافيجو سفير ملك الأسبان الذي زاره في سمرقند في أخريات أيامه:

« ها هو السفير الذي أوفده إلي ابني ملك ملوك الفرنجة، حقاً هؤلاء الفرنجة أمة عظيمة، وأني لأود أن أبعث بتحياتي إلى ابني ملك إسبانيا»؟!

والحقيقة إنما خاطبه تماماً كما كان يخاطب مبعوثي إمبراطور الصين مجاملةً دبلوماسية وهو يرغب في فتحها.

ونقول:

لو نظر المؤرخون وأعاروا انتباههم مقارنة إلى تلك الحقبة التي عاش فيها السلطان تيمور بيك وظهور نجمه قاهراً للعالم وإلى وضع الأندلس في تلك الأثناء لوجدوا أن المسلمين في الأندلس يعيشون عصراً ذهبياً في صراعهم مع النصارى القشتاليين آنذاك حيث:

لجأ **الغني بالله** ووزيره المشهور **ابن الخطيب** إلى المغرب، واستقبلهما **السلطان أبو سالم المريني** استقبالاً حافلاً، واستطاع **الغني بالله** فيما بعد أن يستعيد ملكه بمساعدة وزيره **أبي سالم عمر بن عبد الله**، فعاد إلى الأندلس ومعه وزيره **ابن الخطيب** أيضاً.

وفي عهد السلطان **الغني بالله** المذكور شهدت الأندلس مظهراً من مظاهر القوة لم تعرفه منذ عهد بعيد، فلقد افتتح حصن أشر قرب أطريرة، واستطاع دخول جيان بعد محاصرتها والاستيلاء عليها /٧٦١هـ/، وافتتح أبدة، ثم اتجه إلى الجزيرة الخضراء فحاصرها واستولى عليها عام/٧٦٩هـ/، وقد قام بعدة غارات بقصد نشر الإسلام في بلاد النصارى، وكان عصره عصراً ذهبياً مليئاً بالرخاء والدعة[١].

توفي الغني بالله وخلفه ابنه **يوسف أبو الحجاج**، وقد قام المسلمون في عهده بالإغارة على أراضي النصارى في أحواز مرسية ولورقة، وعاث الفرسان النصارى من جانبهم في أراضي غرناطة فهزمهم المسلمون هزيمة شديدة، ثمَّ عاد الفريقان بعدها إلى السلم من جديد[٢].

توفي **السلطان يوسف** بعد حكم قصير وخلفه ابنه **محمد**، وفي عهده استمرت المعارك بينه وبين القشتاليين زمناً، ثم عقدت الهدنة عام /٨١١هـ/.

ولكن خشية السلطان تيمور بيك على المسلمين في تلك الربوع جعلته يفكر في فتح (الأندلس) ولمِّ شمل المسلمين في العالم تحت كلمة واحدة وحاكم واحد، فقد جاء في خطط الشام **لمحمد كردعلي**:

---

(١) نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين/محمد عبد الله عنان.

(٢) نهاية الأندلس/١٣٧/.

(ومن جملة ما قرأته في هذا الباب وهو مما ينمّ عن عقله[1] وأنه كان يرمي إلى أن يفتح إفريقية كما فتح آسيا قوله لما اجتمع بابن خلدون في هذه المدينة على ما نقل ذلك عنه تلميذه ابن الزملكاني : « **أين بلدك**» ؟.

فقال ابن خلدون : بالمغرب الجواني.

فقال : « **وما معنى الجواني في وصف المغرب** » ؟.

فقلت : هو في عرف خُطّابهم معناه الداخلي أي الأبعد.

لأن المغرب كلّه على ساحل البحر الشامي من جنوبه فالأقرب إلى هنا برقة وإفريقية ، والمغرب الأوسط تلمسان وبلاد زناته ، والأقصى فاس ومراكش. وهو معنى الجواني.

فقال لي : « **وأين مكان طنجة من ملك المغرب** » ؟.

فقلت : في الزاوية التي بين البحر المحيط والخليج المسمى بالزقاق ، ومنها يُعبر إلى الأندلس لقرب مسافته لأن هناك نحو العشرين ميلاً.

فقال : «**وسجلماسة** » ؟.

فقلت في الحد ما بين الأرياف والرمال من جهة الجنوب.

فقال : «**لا يقنعني هذا وأحب أن تكتب لي بلاد المغرب كلّها أقاصيها وأدانيها وجبالها وأنهارها وقراها وأمصارها** ».

فقلت له : يحصل ذلك بسعادتك.

قال ابن خلدون : وكتبت له بعد انصرافي من المجلس ما طلب من ذلك ، وأوعيت الغرض فيه في مختصر وجيز يكون في اثنتي عشرة من الكراريس المنصفة القطع إلى أن

---

[1] عقل السلطان تيمور بيك.

قال: وأقمت في كسر البيت واشتغلت بما طلب مني في وصف بلاد المغرب، فكتبته في أيام قليلة ودفعته إليه، فأخذه من يدي وأمر مُوقِّعه بترجمته إلى اللسان المغلي.

وقيل أن تيمور بيك أراد فتح مصر أولاً، فأرسل جماعة من قادته يكشفون له الطرق، فلما عادوا قصُّوا عليه ما رأوا وهو ساكت حتى أتوا على حديثهم فقال لهم:

«إن مصر لا تفتح من البر بل تحتاج إلى أسطول لتفتح من البحر».

وبذلك صرف النظر عن فتحها في ذلك الحين).

لكن الأجل حال بينه وبين تحقيق أمنيته بجمع المسلمين في العالم تحت كلمة واحدة وسلطان واحد من أقصى الشرق الإسلامي إلى أقصى غربه حتى مسلمي الأندلس الذين يقفون ضدّ الإسبان القشتاليين.

❁❁❁

هـذا هـو



السـلطان تيمـور بيـك: الشخصية اللطيفة التي يحفُّ بها الجلال وتحوطها الهيبة، شـب علـى صـهوة جـواده، ودان لـه المُلْـك بحدِّ سـيفه فأضاء العالم. كثير التنقل، وأكثر مكان عاش فيه هو ظهر حصانه. صقله إيمانه بالله وثقته به، حنكتهُ التجارب وصقلته الأحداث الهائلة. ظهر على مسرح التاريخ بسيفه وعقله فبهر الأنظار واجتذب تقدير المؤرخين والمفكرين بعظيم مزاياه وجلائل أعماله.

لم تلهه فتوحاته وغزواته عن التقدم العملي المدني، فحمل الرقي الإسلامي إلى جميع البلاد التي تحت هيمنته وكذلك الأمن والأمان كانا راية خفاقة في ربوعها وحمل الخير والجمال لعاصمته، والذكرى الخالدة لبطولاته وفطانته وخططه وأعماله.

يفقه هذا من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.
أو ألقى السمع ولو مع قليل من التفكير لا التقليد.

وأخيراً : عودٌ على بدء

أحوال الأمير تيمور[1]

تيمورلنك (حياته):

إن تاريخ الرجل العظيم هو في الحقيقة ما قام به من الأعمال الكبرى، وما أحدثه من دويٍّ في هذه الحياة، وتظهر عظمة مترجمنا بما زاوله من الأعمال والمشاريع، أو ما اختطّه من المناهج... ليسيِّر بها البشرية. لا من ناحية تولّده، والطالع الذي صادفه، ولا من البيئة التي برز فيها، ولا من القوم الذين عاش معهم... فكان من الخطأ الاعتماد على المجتمع، أو المحيط، أو الطقس وتفاعلاته، والألزم أن يظهر للوجود دائماً أمثال هذا العظيم، في حين أنّ الأمم لا تستطيع أن تعدَّ من نوابغها الأفذاذ إلا القدر اليسير.

وغاية ما يمكن تلقيه من البيئة أنه استفاد من الأوضاع وربح من الظروف، ولو لم يجدها لأوجد أمثالها، وأبدع نظائرها. ذلك ما دعانا أن نجمل القول في ماضيه قبل ظهوره كفاتح، وأن نراعي خطته التي نهجها، وما يتراءى من خطيئات أو أغلاط من غيره مما شعر به نفسه، أو ما عُرف في نتائج التجارب الحياتية لفاتحين كثيرين...

يقص علينا أهل الأخبار أن المُتَرجم (الأمير تيمورلنك) من ذرية **تومنه خان**، وكان الأخير ملكاً من ملوك المغول القدماء، حكم على قبائل **نيرون** سنين عديدة، وكان له من الأولاد تسعة.

---

(١) ملحق رقم (١) (موسوعة تاريخ العراق بين احتلالين)، تأليف عباس العزاوي المحامي.

ومن كل من أولاده تفرعت القبيلة والقبيلتان، أو الثلاث، والأربع... وأن من أولاده (**قابول**) و(**قاجولي**) قد وضعتهما أمهما توأمين، كما أن هؤلاء ثالث البطون من أولاده، وأن أحدهما (**قاجولي**) صار له ابن اسمه **ايروجي** أو(**ارده مجي**) برلاس، وأن القبيلة المعروفة باسم(**برلاس**) تفرعت منه... وأن الأمير تيمور من هذه القبيلة. ومعنى(**برلاس**) في لغة المغول(**القائد**).

وتيمور يعرف بـ(**تيمورلنك**) و(**تيموركوركان**) و(**اقساق تيمور**)... **وتيمورلان** : أي عاهل التتر العظيم "كما قال عنه المؤرخون الأجانب .." وهو **ابن تاراغاي**(١) ويلفظ (**طراغاي**) و(**طوراغاي**) أيضاً، وساق صاحب وقائع تاريخية(٢) وهو الفريق <u>**حافظ إبراهيم باشا نسبه**</u>:

أنه تيمور(٣) بن طوراغاي بن أمير **يركل بن الشكر بهادر.**

ولد يوم الثلاثاء ٢٥ شعبان سنة ٧٣٦هـ في مدينة **كش** من بلاد ما وراء النهر (في قرية **خواجة ايلغار**). وكان والده صديقاً لملك الملوك كورغان وكانا يقودان الحملات معاً لكنه زَهِدَ وكرَّس حياته للخدمة في الجامع.

وقد أطنب المؤرخون في بيان ما وقع أيام ولادته أو ما شوهد في يده من دم... ويقصدون إلفات الأنظار من طريق أساطيري إلى عظمته من صغره مما لا يهم كثيراً في التطلع على أحواله، إلا أنه من صغره كان مولعاً في الألعاب التي من شأنها أن تكون فيها إمرة وسيطرة وإدارة ليتولى القيادة ويدبر شؤون رفاقه خصوصاً التي هي بشكل حربي، لحد قيل إنه كان يشعر بذلك، وأن رؤيا بعض أجداده أشارت إلى ظهوره، وكان في أوائل أيامه يمرن نفسه على الركوب واستعمال الأسلحة والتصيد مستمراً .

---

(١) هو الصحيح ويخفف إلى تراغاي وله أصل في لغتهم ويعني السرو، وغير ذلك من المعاني اللغوية (لغة جغتاي).

(٢) وقائع تاريخية ص٢٦٦.

(٣) ويلفظ تمر أيضاً والاختلاف في أسماء أجداده وضبطها كبير جداً وقد ساق صاحب الشذرات نسبه بشكل آخر وفي عجائب المقدور ساقه بما يخالف غيره وهكذا... وفي الأنباء تيمورلنك بن طظرغان.

ولما بلغ العشرين أو تجاوزها صار يزاول الحروب ويشترك في شؤونها... وفي أيام فراغه يميل إلى المطالعة ((بواسطة من يقرأ له لأنه ما كان بقارئ)) ومجالسة العلماء، فلا يدع وقته يمضي هباءً، وعلى كل ظهر في الخامسة والعشرين من سنِّه واشتهر أمره في الشجاعة.

وكانت أحوال بلاد ما وراء النهر آنئذٍ من الاضطراب والاختلال ما يضيق القلم عن تبيانه، وذلك من أمد ليس باليسير، فإن ملك الملوك **(كورغان)** كان قد قتله اثنان من الأمراء الحانقين مع رجالهم وفروا إلى التلال الواقعة في شرقي بالخ ، ومن ثم افترقت المملكة إلى أمراء عديدين، كلٌّ صار يتولى إمارة ناحية من تلك المملكة، ويحارب بعضهم البعض ويتنازعون السلطة.

وفي هذه الأثناء أعلن**(طغلوق تيمور)** خانيته على **الجغتاي** وهو من أحفاد جنكيز خان، والأوْلى بمملكة ما وراء النهر، فأراد القضاء على الأمراء المتعددين هناك، المتحاربين دائماً، فساق جيوشه عليهم إلى ما وراء النهر، فخاف أكثر هؤلاء الأمراء وفرّوا إلى خراسان عام /٧٦١هـ/، أما تيمور فإنه لم يهرب وإنما وافى إلى قائد الجيش وتكلم معه أن يفاوض **طغلوق تيمورخان** في إشراكه معه في حروبه، فوافق وولاه قيادة عشرة آلاف، أي صار **(نوياناً)**، ثم ولي قيادة ما وراء النهر برضى من**(طغلوق تيمور)**.

ثم ظهر **الأميرحسين** من أحفاد أحد الأمراء القدماء في ما وراء النهر وصار يدّعي السلطنة فأقام زعزعة الحروب هناك، فاضطر **(طغلوق تيمور)** أن يسير عليه جيشاً عام/٧٦٢هـ/ فانتصر على **الأمير حسين** واكتسح مملكته، وأجلس ابنه(**إلياس خواجة)** في حكومة ما وراء النهر، وجعل **الأمير تيمور** وزيره وقائده، إلا أن تيمور لم

يرضَ بأعمال **إلياس خواجة** ونقم عليه أموراً كثيرة، ومن هناك تولد العداء، فساق **إلياس خواجة** جيشاً عليهم فتأهبوا له وقابلوه، فتمكنوا من طرد جيشه إلى خارج المملكة، فذهب **إلياس خواجة** إلى **مغولستان** وصار ملكاً عليها، إذ وجد أباه قد توفي.

إن هذه الأعمال التي قام بها **تيمور** حببته من أفراد الجيش، فإنه لم يدع فرصة ترغِّبهم فيه إلا اغتنمها، ومن ثم صار **الأمير حسين** يخشى من تيمور، وعزم على البطش به والقضاء عليه فلم يوفَّق، حيث أخفق في المعركة وغلب عليه فقُتل في رمضان سنة /٧٧١هـ/.

وعلى هذا انقادت **لتيمور** مملكة ما وراء النهر، وأعلن سلطنته ولُقِّب **(بصاحب قران)**، إلا أنه لم يلقب نفسه بخان وإنما لقب به أحد الأمراء من أحفاد جنكيز خان ممن أتى إليه وجعله **(قائداً)** عنده، وهكذا نال الحكومة بعد أن رأى من الأخطار الجمّة ما لا يوصف، فلم يبال بها وقابلها بعقل رزين فائق، وفي كل هذا لم يهمل استشارة ولم يضيِّع حزماً.

ثم إنه قضى بعد إعلانه السلطنة نحو ست سنوات في حروب مع مملكة المغول وخوارزم، وانتصر فيها على أعدائه. أسس الصلح مع **سلطان خوارزم** وتزوج من أسرته ابنته، كما أنه قضى على ثائرين كثيرين عليه فلم ينل أحد منهم مأرباً.

وبينما هو في حرب وانتصار وما ماثل إذ دهمه خبر وفاة ابنه **جهانكير**، فكان لها وقع كبير في نفسه، وتأثر للمصاب الجلل وذلك عام/٧٧٧هـ/، وفي تلك الأثناء هجم المغول على مملكته فاضطر للكفاح، فكانت هذه من أكبر دواعي نسيانه الرزء، فأدب القائمين وأرجعهم على أعقابهم خاسئين.

اتَّقِ شـرَّ من أحسنت إليه

ولما عاد ركن(**توكتاميش**) من أحفاد جنكيز خان إلى **تيمور** ورجا منه أن يناصره ويساعده لنيل إمارة **تاتارساتن** الكبرى نظراً لحق سلطنته فيها، وكان حاكمها آنئذٍ الأمير (**أروس**) (**أرص**)، فوافق تيمور على ذلك وأجاب الملتمس، فأقام (**توكتاميش**) مكان (**أروس**) عام /٧٧٨هـ/.

وهذا زاحم **الأمير تيمور**[١] واتخذ بعض حروبه في إيران وسيلة، وحاربه مراراً إلا أنه في جميع حروبه قد خذل وقُضيَ على شروره وعليه.

هـذه الانتصـارات الكـبرى المتواليـة بالقضـاء علـى إمـارات صـغرى والمظفريـات العظيمة على المجاورين... مما شجع **الأمير تيمور** على محو الإمارات المتعددة في إيران، وعـزم علـى أن يضـمها إلى مملكتـه لإنهـاء أمـر هـذا التذبـذب والاضـطراب الـذي ملّـه الناس وضجروه.

فمضى إلى **خراسان** فاستولى عليها عـام /٧٨٧هـ/، وهكـذا سـار في طريقـه حتـى اكتسح جميع **ممالك العجم** وساق جيوشه إلى **العراق**، فكان ما كان.

وهكذا جرت له الوقائع الأخرى في **سورية والأناضول والهند**.. حتى أيام وفاته..

وأكـبر داع لانتصـاراته أنـه لم يغـتر بقـوة، ولـم يُضِـعْ فرصـة، ولا يـزال في اتصـال بأخبار المجاورين ومعرفـة حركـاتهم وسـكناتهم، والتطلـع إلى مـواطن الضـعف فـيهم. كما أنه لم يقصّر في تأهب، ولم يخاطر بمغامرة، ولا سلّم للطـالع، ولـم ينـم أو يغفـل عن أمر. فهو أشبه بالأنبياء كما نعته الشاعر بقوله:

---

(١) أي بحجة أنها تابعة لأملاك توكتاميش.

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي   بأخرى المنايا فهو يقظان هاجع[1]

ومن كانت هذه حالته، سار على طريق الحكمة والسداد، ولم يضع الحزم واليقظة، وحصل على مطلوبه مهما عزّ وغلا.

لم يقصِّر في وسائل الحضارة وضروب العمارة، ولكن في مملكته ووطنه فقد عرف عنه من الأنباء وغيرها أنه كان أنشأ بظاهر سمرقند بساتين وقصوراً عجيبة وكانت من أعظم النُّزه، وبنى عدة قصبات سماها بأسماء البلاد الكبار **كحمص ودمشق وبغداد وشيراز**.

كان حادث وفاته من أكبر الحوادث في هذا العالم، بعد أن كان في قراع ونضال مع ممالك عظيمة وحكومات متعددة؛ فإنه من حين فتح **بغداد** لأول مرة افتتح **ماردين وحلب والشام وبلاد الروم (الأناضول)** وأقساماً كبرى من **الهند** وحارب **القفجاق**[2] ومن في أنحائهم...

و خلال هذه الحروب قضى على إمارات كثيرة مختلفة الأهواء لم يكن لتألفها الممالك والأقوام، وكانت هذه الممالك بين نيران ملتهبة وحروب دامية، فلا راحة، ولا استراحة، ضجر الناس من هذه الحالة وملُّوها، وكان العالم في حاجة إلى من يقضي على هذه الدويلات وسيطرتها وتحكمها بأهليها وأموالهم، وليس لها من همّ إلاّ أن تنال حظاً أو قسطاً من مجاوريها.. فكان هذا الدواء ، ظهور تيمور بلاءً فتاكاً على ملوك الإجرام، ولا مندوحة عنه للقضاء على أمثال هذه الحكومات.

---

(١) والحقيقة أن هذه الصفة تنطبق على الأنبياء الذين تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم، والعلماء ورثة الأنبياء.

(٢) **القفجاق**: جنس من الترك يسكنون صحراء الدشت. على عادة البدو الرحَّل.

أبدى في ظهوره حتى أواخر أيامه من مظاهر الشدة ما أرعب قلوب الناس وذكَّرهم بأيام **جنكيز** الأولى الكافر الجبّار وحذرهم بطشه، وأخافهم صولته تأديباً لهم وتخويفاً. لا يعرف التواني، ولا يبالي بالتعب، ولا يقف عند غلبة.

((فجعل بينه وبين الدول سوراً ظاهره الشدّة والرعب وباطنه الرحمة والإصلاح والسلام)).

فتراه يقضي على حكومة من الحكومات بمعركة دامية أنهكت قوى الفريقين، ويتأهب إثرها للوثوب على أخرى فيسير لمفاجأتها والصدام معها، فكأنه قرَّر فتح العالم والسيطرة عليه، والمنقول عنه كما أشرنا أنه يرى الدنيا لا تكفي لأكثر من سلطان واحد كما أن الله واحد.

ونجد عمله الإصلاحي الإنساني لا لنفسه وإنما كان لمن يخلفه، وأراد أن يكون ملكه أبدياً لخير وإصلاح الناس، ووضع التصاميم للمحافظة على ما في اليد، والحصول على الباقي... وهكذا.

ويتبادر لأول وهلة أنّ الذي ولَّد فيه شعور الفتح والاستمرار على فكرته المتأصّلة فيه، عاملان مهمان: أحدهما فتوح **جنكيز** وسيطرته على العالم الشرقي الإسلامي المحتضر بسبب قوة جيشه وحسن قيادته وتدريبه على قوانين خاصة **(الياسا)**، رأى لزوم تطبيقها بشدة لا تقبل أي إهمال أو تهاون. والآخر الفتح الإسلامي واكتساحه عوالم شرقية وغربية عديدة. بعد أن علم أنه قد زالت مهمة الفتوح الإسلامية المصروفة بسبب الحرص على الملك، فأغفلت النهج الإسلامي وتركت العمل بأحكامه... فصارت في تذبذب واضطراب وتشعب إدارات وتعدد حكومات واختلاف أهواء!.

وهنا يرد سؤال سهل الإيراد وهو: هل كان من رأيه تطبيق الخطة الحربية كما جاء بها جنكيز بعينها أو الفكرة الإصلاحية لتوحيد قيادة المسلمين وجمعهم بحيث يكونون قوة وجهتها موحدة، ليسيروا على سنن لا تتغيَّر؟!.

أما من الوجهة الأخرى فلم تعدم الأدلة وأهمها ما حققه في الصلة التجارية بين الأقطار التي تحت سلطته وجعلها تسير بحرية وأمن لم تر نظيرهما.

وعدله في حكومته وبيانه أنه لم يقطع رؤوس المسلمين ويتخذ منها منارات إلا من القتلى تأديباً وإرهاباً للناس وتخويفاً وهكذا... واحترامه للعلماء وصحبتهم وللصلحاء، وإظهاره الحب والتكريم لهم، والاستمداد بشيخه **السيد بركة**. وقوله للسلطان **يلديرم بيازيد** العثماني حينما انتصر عليه معاتباً له:

« إنك رأيت مازرعت، كنت أود أن أصافيك فاضطررتني للحرب كارهاً.. وهذه نتائج عنادك، كنت أفكر في نصرتك لحرب أعدائك، ولو كانت المخذولية أصابتني في حربك لأريتني وجيشي ما لا يدور في حسبان، كن واثقاً سأحتفظ بحياتك وأؤدي واجب الشكر لله».

هذا وأمله أن سيكون قوة ظَهرٍ له على أعدائه، وأنه ركن ركين له في حراسة مملكته من الأعداء.

وعلى كلٍّ رأى أن المملكة الإسلامية يجب أن يحكمها أمير مسلم لا أكثر، وأن تتجمع القوى لتتمكن أن تقوم بما قامت به الدولة الإسلامية في أوائل أمرها، فكان يريد ملكه كملك سيدنا سليمان عليه السلام لغيظ الكفار وتثبيط باطلهم، كما أنه عزم في أواخر أيامه على تحقيق أغراضه، فعزم على الجهاد في سبيل الله ومحاربة الظلاَّم المعتدين من غير المسلمين فمات في هذه الطريق.

ومهما كانت الآمال أو التصاميم، فقد وقع ماوقع، وجرى ماجرى.

والظاهر أنه حاول مزج الطريقة الإسلامية بشدة جنكيز في الصرامة العسكرية فقط.. (يشهد بذلك وصاياه في إدارة الجيوش من غير الترك والاستفادة من مجموع قوة الكل)... وإرادة الله غالبة، وعمل الإنسان في هذه الحياة ضئيل فيجب أن يصرف للإصلاح، والعمارة والعدل، ولراحة الناس واطمئنانهم وتآلفهم، لا السيطرة عليهم والتحكمات المتنوعة فيهم، فالطمع والحرص على ما في يد الآخرين لم يولد نتائج مرضية، وإنما الانكشاف الفكري والمدني في الأمة من أقوى دعائم الاستقلال والعزة.

إن حالة العصر الذي ظهر فيه تيمور كانت مشتتة الأهواء في السياسة، مفرقة الآراء في النِحل والعقائد، مختلفة العوائد، وهكذا في عقولها وعلومها. فلا أمل في التأليف بين هذه الأمم إلا بمراعاة طريقة هذا الفاتح التي اختطها وعلم أنها الناجحة لما عزم على القيام به.

<u>جاء في الشذرات:</u>

(كان له فكر صائب ومكايد في الحروب وفراسة لا تخطئ، وكان عارفاً بالتواريخ لإدمانه على سماعها، لا يخلو مجلسه من قراءة شيء منها سفراً ولا حضراً، وكان مغرماً بمن له صناعة ما حاذقاً فيها، وكان لا يحسن الكتابة، وكان حاذقاً باللغة الفارسية والتركية والمغولية خاصة، وكان يقدِّم[1] قواعد **جنكيز خان** (الحربية فقط) ويجعلها أصلاً، وكانت له جواسيس في جميع البلاد التي ملكها والتي لم يملكها، وكانوا ينهون إليه الحوادث الكائنة على جليتها ويكاتبونه، فلا يتوجه إلى جهة إلا وهو على بصيرة من أمرها...)[2] أ هـ.

---

(١) أفاد المحققون أنه كان يستخدمها للترتيبات العسكرية التي تتناسب مع ذلك العصر وتلك الدول التي كانت تحت إمرته العسكرية.

(٢) الشذرات ج٧ص/٦٦٠/.

وعلى كلٍّ كان في أيام تغلُّبٍ وكان قد فاق الكل، وتمكن من الاستيلاء على ممالك كثيرة وكان يضارع **جنكيز** في حروبه، بل فاقه في نواح عديدة، وقد مر من حوادثه ما له علاقة **بالعراق**، وقد وصفه صاحب **الضوء اللامع** بقوله:

(كان شيخاً، طوالاً، مهولاً، طويل اللحية، حسن الوجه، مهاباً، بطلاً، شجاعاً.... جهير الصوت، يسلك الجد مع القريب والبعيد، ولا يحب المزاح، ويحب الشطرنج وله فيها يد طولى ومهارة زائدة وزاد فيها جملاً وبغلاً، وجعل رقعته عشرة في أحد عشر بحيث لم يكن يلاعبه فيه إلا أفراد، يقرِّب العلماء والشجعان والأشراف وينزلهم منازلهم.

وكانت هيبته لا تدانى، مات وهو متوجه لأخذ بلاد الخطا على مدينة أوترار. وبالجملة فكانت له همة عالية وتطلع إلى الملك.. والقدر الذي اقتصرت عليه هنا اعتمدت فيه ابن خطيب الناصرية وشيخنا "**ابن حجر في أنبائه**"، وترجمته في عقود **المقريزي نحو كراستين**) أ هـ[1].

وفي هذه وغيرها من النصوص العديدة ما يعين خطته، وأنه لم ينهج نهجاً مغلوطاً، ولا تحرك دون حساب وأهبة للأمر. ويطول البحث بالكلام عنه كثيراً، إلا أننا نرى محل استفادتنا في دراسة نهجه الحربي والسياسي ومعرفة تعديله في مناهج الفاتحين لإنقاذ البشرية من أوضاعها السيئة التي ولدتها آمال خسيسة، والسير بها نحو الطريقة المثلى وهي طريقة الإصلاح لا التخريب، والعمارة لا الإبادة، والعلوم لا الجهل والسخافة، والرأفة لا القسوة.

❁❁❁

[1] الضوء اللامع ج٣ ص/٥٠/ والتفصيل هناك لا يسعه هذا المقام ومثله في الأنباء ج١.

وفاة السلطان تيمورلنك

انتقل هذا الفاتح العظيم ، وله /٧٩سنة/ ، كان قد دوخ الممالك وأدهش العالم، وملك أقطاراً كثيرة، وعزم في آخر عمره على الدخول إلى الصين فمضى في الشتاء ...

وكان قد شغل العالم الإسلامي مدة في أيام اضطرابه، وحالة تعدد حكوماته، ولا يزال ذكر وقائعه تردده الألسن.

والغريب أن هذا الفاتح ترك وقعاً في النفوس وأثراً في الأذهان يستحق الدرس والاعتبار، ويدعو للبحث والتنقيب، والمشروع الذي قام به كفاتح عظيم، وسياسي كبير بصير يهمُّ كل لبيب أمر مطالعته، ويجب الالتفاتة إليه برغبة زائدة لكل متفكر، وخاصة من يحاول إدارة مقدرات البلاد.

يختلف عن أكثر الأبطال الذين غالب أحوالهم عادات خرافية، وصارت حوادث بطولتهم أساطيرية مخلوطة غثاً بثمين...

وهكذا جاءت أخباره واضحة، ووقائعه مدونة، وآثاره مسجلة في تواريخ كتبت في أيامه، وبعده بقليل انتقلت إلينا من ثقات الرواة، وفي كل حروبه وغزواته لم يخل مجلسه من علماء، ولا من مباحث علمية وتاريخية...

وأكابر الرجال الذين أدركوا وقته بصروا بوقائعه، وقدَّروا عظمته، ونقل عنهم الرجال المشاهير بعض خصاله ومزاياه...

فهو من الفاتحين الذين يحق للمرء أن يقف على نزعاتهم في الفتوح، والطريقة التي مضوا عليها في إدارة الممالك للحصول على المعرفة، وعلى مزاياه الخلقية والإنسانية

من الحلم والرحمة والشجاعة والفكر المخطط الجوال، فهو بطل لا كالأبطال، وسيد لا كالأسياد، فاق الجميع بخصاله، واستفاد مما قام به بنواياه الخيِّرة، بحيث كان النصردائماً حليفه في مواقفه.

خلَّف هذا الفاتح في كل قطر من الأقطار التي افتتحها أثراً من آثار عظمته، وظاهرة من ظواهر قدرته..

❁❁❁

نهجه السياسي والحربي

من المعروف أن تيمور أوصى أولاده وهو في فراش الموت قائلاً :

« أولادي لا تنسوا وصيتي التي تركتها لكم لتأمين راحة الأهلين، كونوا دواء لأمراض الخلق، احموا الضعفاء وأنقذوا الفقراء من ظلم الأغنياء.

ليكن نهجكم في كل أعمالكم العدل والإحسان.

فإذا أردتم دوام سلطتكم فاستعملوا السيف بيقظة واحتياط ولياقة، اعتنوا كثيراً واحترسوا أن يدخل الشقاق والنفاق بينكم، ولا تدعوا للصديق الحميم، أو العدو الألد طريقاً ينفذ فيه لإلقاء البذور من هذا النوع أو أن يسعى لها...

وإذا مضيتم على وصيتي وبقيتم عليها دائبين وبدساتيرها آخذين احتفظتم بها، اسمعوا وصايا أبيكم الذي هو على فراش الموت وتمسكوا بها ولا تنسوها»...

وهذه تبين حسن نيته؛ وعنايته بحكومته وإدارته القويمة، وقد قررها بنظام قطعي متبع.

❁❁❁

الوصايا المنوه عنها

إن وصاياه في خطابه هي المذكورة في (تزك تيمور)...

وفيها تتجلى نفس هذا الرجل العظيم أكثر مما قام به في حروبه وما اشتهر في مقارعاته الفعلية، وما عرف عنه نقلاً عن أعدائه من أصحاب الحكومات المغلوبة، فهي تجاربه وأعماله الإدارية والسياسية، وفيها علاقته بأمرائه ووزرائه وجيوشه وسائر أتباعه، وبالأهلين ممن دخل تحت سلطته..

وتزك تيمور هذا:

هو تاريخ السلطان تيمور ومذكراته الحربية والسياسية أملاها لنفسه، وموضوع هذا الأثر الجميل يتضمن ما سار عليه تيمور من القوانين، وما عمل بمقتضاه من الدساتير العملية، وما اكتسبه من الحوادث اليومية والتجارب الشخصية.. وهي في الحقيقة نتائج أعماله في إدارته وما زاوله من المهام في حياته، فهي التاريخ الصحيح المجمل، والوقائع الجزئية أمثلة لها وتطبيقات لما قام به، وينطوي تحتها الاستفادة من الآراء والاستعانة بالشورى والحزم والاحتياط في إدارة المملكة، وتدبير الأمور في السياسة الخارجية، والاهتمام بأمور الجيش وحسن تدريبه وإدارته.. ومنها نرى أنه لم يضيّع حزماً ولا تهاون لفكرة، بل راعى ما أمكنه من التدابير الصائبة. فلم يضيع فرصة ولا توانى عن تسجيل ما رأى وشاهد أو ما صادف بالعودة إلى التفكير فيما وقع، وبهذا يكذّب أعداءه الطاعنين به من أن همّه السفك والنهب والقتل، وكأن غايته تشفية غليله من البشرية باتخاذها مجزرة له، وإنما راعى المصلحة، ونصب الغاية أمام عينيه، وفي كل هذا لم يضع رشده، ولم يدع فرصة، ولا تأخر عن العمل بها عند سنوحها

بلا تهاون أو توان، بل لم يعرف التواني.. وإنما يحاول بكل ما أوتي من قدرة لإدراك مواطن الضعف في خصومه والتطلُّع على أحوالهم والتبصُّر بشؤونهم حتى الشخصي منها، ليعرف مدى قوة العلاقة بالأعمال العامة، وإن كانت تُرى لأول وهلة وكأن ليس لها مساس بشؤون المملكة خارجاً وداخلاً.

ولكنه مع كل ما قام به من أعمال وفتوحات لم يظهر بعد بمظهر الفاتح العظيم وكل ما في الباب أنه قضى على الدويلات الصغيرة في تلك الأنحاء... وبرزت فيه آثار القدرة والحكمة والعظمة... وإنما ذاع اسمه واشتهر صيته بعد أن قارع أكابر الملوك ودوَّخ الممالك على ما مرَّ ذكره في الوقائع السابقة الذكر...

وهنا يجب أن نقول إن هذا الرجل متمسك بعقيدته الإسلامية تمسكاً ليس وراءه (غاية دنيوية)...

واشتهر تواتراً عنه حبه للعلماء ومصاحبتهم حتى في حروبه وأسفاره... ولعله أول من استفاد من أصحاب العلوم والمواهب للحياة العملية والسياسة المدنية فجمع بينهما، ونرى في تاريخ ابن الشحنة صفحة من مجالسه العلمية، وحمايته العلماء، وسعة الصدر لهم وأن يتكلموا بحرية تامة.

ومخابراته السياسية مع الحكومات الأوروبية لا تتجاوز حدود المجاملة والمقابلة بالمثل، ومراعاة المصافاة لمن ليس بينه وبينهم علاقة جوار، أو احتمال حرب قريب، وليس أصح للبرهنة على ذلك من كلامه للسلطان يلدرم بيازيد حين أصر في حروبه معه... ومن بكائه لفقده يوم وفاته، وإنعامه على أولاده، والمنقول الصحيح أنه لم يقتله وإنما مات كمداً مما أصابه في الاعتقال[1].

---

(1) إثر أخبار تنازع أبنائه على السلطة وتمزقهم فأصابه الخناق وضيق التنفس، ولم تجد محاولات الأطباء التيموريين بانتشال بيازيد إذ حان أجله فمات في آق شهر.

نعـم نـرى أعـداءه مـن رجـال الحكومـات كـثيرين، وأكـبر مـن شـنع عليـه الـترك العثمانيون والعرب، ونخص بالذكر **صاحب عجائب المقدور، وصاحب الأنباء، وبعض العجم**...

يستدل من أوضاع السلطان تيمور وحالاته أنه لم يعتز بالشعراء ولم يقرب منهم أحداً وإنما كان يكره لقياهم، ومن المشهور عنه تخريب قبر الفردوسي، ولعل ذلك من جراء انصرافه للخيال، ومبالغاته الزائدة في شعره بما نسبه للقدماء من الفرس كأنهم خلق آخر غير هؤلاء البشر، بغية تفضيل عباد النار الصابئة على المسلمين والإسلام.

هذا ونقف في ترجمته هنا ونقول إن (**تيمور**) كان في نيته أن يعمر بغداد بعد أن خربها ودمرها ولكنه لم يتحقق له ذلك ولا تيسر لأولاده من بعده فبقيت على خرابها، هذا ومن أراد التوسع وأحب التفصيل عن وقائعه وإتقانها من ناحية سوْق الجيش، أو عن سياسته وإدارته الممالك ومعرفة وزرائه مع مقابلة سائر أعماله بالإدارات الحاضرة، وبأعمال الفاتحين الآخرين... لاستخلاص نتائج عصرية نافعة فليرجع إلى المصادر التي تستحق النظر والمطالعة مما مرّ بيانه من المراجع التاريخية المعاصرة له، أو التالية لعصره بقليل...

وهذه التواريخ مكتوبة في أيامه:

١ـ ظفر نامة نظام الشامي:

ومنها نسخة في المتحف البريطاني برقم /٢٣٩٨٠/ ومؤلفها نظام الدين الهروي المعروف بـ(شنب غازاني)، وهذا هو أول من قدم مستقبِلاً للأمير تيمور من بغداد حين قصد إليها فصار مكرماً عنده.

٢ـ جوشن وخروشن (لكنه لم ينتشر):

للشيخ محمود زنكي الكرماني، قارب إتمامه ومات، سقط في النهر من قنطرة تفليس سنة/ ٨٠٦هـ/.

وهذا لم ينتشر كما ذكر صاحب **حبيب السير**.

٣ـ تاريخ صفي الدين الختلاني من علماء سمرقند:

كتب طرفاً من وقائعه باللغة التركية.

٤ـ كذا في كشف الظنون.

وهذه الكتب لم تنل رواجاً ولا عُرِفَت مواطن وجودها، غطت عليها الكتب التاريخية المدونة بعد هذا التاريخ في أيام أولاده...

فبقي غموض من تاريخ حياة تيمور ووقائعه وإنما عرف **(تزك تيمور)**.

وفيه ما يفوق كثيراً من الكتب... والكتب العربية المعاصرة أو التالية لهذا العصر، كتبت بسعة زائدة... ولا يُسْتغنى عنها، وما يُرى من كتّاب آل تيمور من الإغراق في المدح غالباً...

(ليس إلا تعبير عن تلك الشخصية العظيمة).

❁❁❁

المعجزة

أضحى المسلمون في فرقةٍ واختلاف وتنازع على الحكم، فساء المصير والمآل وتبدل الحال، وانقسمت الأمة الإسلامية على نفسها أمماً وجماعات وقرىً محصنة وأفراداً.

تسلط عليها أعداؤها ولم يجدوا من يرد عليهم حجراً قذفوه، سلَّم الأمراء والقادة أرجلهم للفرار وتخلّوا عن كل مروءة وشرف ووجدان، تركوا عفاف النساء يُهتك، والمسلمين الوادعين البسطاء عرضةً للقتل والسلب والنهب.

استفحل الخطر العظيم بانحلال أمة الإسلام وذهابها، وبغاة الفتن تُشعل وتقوِّي أوار نيرانها تعيث في الأرض الفساد، وانتشرت معالمها وظهرت في الحكام.

فاعترت الأمة الإسلامية موجات فتن عاتية متتالية تسري بين المسلمين لتطيح بهم، وتذيق بعضهم بأس بعض، وفي زحمة هذا الباطل ضاع الحق، و عمَّت الأحقاد وتشعَّبت الخصومات، والفناء بات قاب قوسين أو أدنى. وأمة الإسلام تعيش القهقرى في يوم كاد أن يكون من أمسيات الدهر.

وهنا تظهر المعجزة وتأييد الله لنوره في رجل قام بمفرده، ورأى أن قيام دين الله وحدوده ورضاه لا يكون بين تلك الأمة إلا بالسيف وطابع التأديب لمخالفتها نهج القرآن الكريم، فجمع ثلة أقام بهم ناموس الحق..

وأعاد سيرة سيدنا ذي القرنين عليه السلام فاتح العالم، وأقام سداً من الرهبة فصل فيه بين المعتدين والمنافقين والمسلمين. سداً عملياً إصلاحياً من الجذور.

هدَّ النفوس الظالمة الغاشمة هدّاً، وجعلها قاعاً صفصفاً لا تجد فيها عوجاً ولا هضماً، فكفَّت عن التعدي من شدة هيبته.

وكان من أسرار بطشه ونصره أنه أقام صرحاً للإسلام في القلوب، صرحاً شامخاً يطمح لاجتياز سدّ الصين الفاصل بين الصابئة والمسلمين. 〈**عقبة كبرى أخيرة بالعالم**〉 .

فطمح إلى هداية أمم الصين وإخراجها من ظلمات الوثنية إلى مرابع نعيم مقيم، والمنيّة تدركه.

كما كان يركز اهتماماته للوصول إلى إسبانيا ليحرِّرها ممن حاولوا اغتصابها من المسلمين، وظهر ذلك واضحاً بلقائه بابن خلدون وسؤاله عن المواصلات لتلك المناطق والجغرافيا لتلك البقاع، حيث كان يطمح أن يصل بإصلاحاته إلى تلك البقاع من العالم الإسلامي، لما كان يخشاه من تدهور مريع انساب في تلك البلاد، وخشية أن تحدث المذابح الوحشية من الإسبان بحق المسلمين إن تم انتصارهم الكامل عليهم، وبالفعل حدث فيما بعد من الجرائم التي يندى لها جبين الإنسانية وما تقشعر لهوله الأبدان، وحقاً لو تابع السلطانان العثماني والمملوكي مسيرة إصلاحاته ولم يتعجرفا عليه، لما آلت إسبانيا إلى ما آلت إليه من مذابح وجرائم بحق المسلمين العزَّل. أما هو فقد كان ينوي أن يقوم بذلك بنفسه درءاً لما سيحدث لاحقاً، لكنه الأجل سبقه وحال دون تحقيق طموحه، والذي كان على خلفائه من بعده أن يحقِّقوه بفتح بلاد الصين وإسبانيا الطاغية.

وعلى كل حال أعاد صرح الإسلام إلى سابق عظمته وقوته على العالم أجمع، رغماً عن ذوي القلوب المريضة أصحاب الأطماع الشخصية والنفعية الأنانية من الحكام المسلمين اسماً، الساعين وراء غرور مجد نفوسهم، الذين لا يهمهم إلا حالهم ومالهم، وليس لإعلاء كلمة الله.

أشرقت فترة ثلاثين عقداً وضَّاءة على جبين الإنسانية بالرحمة والمحبة والحنان وبالحكمة والقوة.

فأكبر بأعمال السلطان تيمور بيك على العالمين بزمن وصل فيه الإسلام في الضعف للحضيض.

وقد دعا بيازيد سلطان العثمانيين للاستمرار بمجاهدة المعتدين شرقاً وغرباً، ولعلمه أن المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، فوجَّه رسالة إيمانية أخوية تدعو للشراكة في العمل مع أخيه المؤمن بيازيد المالك لمساحات كبرى وبلاد واسعة إذ ذاك، ليتفقا وينطلق كلاهما للجهاد في سبيل الله، وكف أيدي المعتدين، وإخراج الناس من الظلمات والتعدي إلى النور والأعمال الصالحة، فيعم دين الحق ما بقي من مشارق الأرض ومغاربها التي سينطلقان إليها بجيوش الحق بغية نصرة الحق وإنقاذ الخلق. لكن الصدمة الكبرى والخيبة العظمى، كان في جواب بيازيد برسائل كشفت عن سوء طويته، وأنه ليس بمؤمن حقّاً بل نسلاً، وقد اتخذ نهج إبليس مسلكاً: **(أنا خيرٌ منه)**، فظهر أنه يبحث عن مجده الزائف لا عن مجد الله الحق في الأرض.

وبدأ بالانحراف عن منهج آبائه المؤمنين من السلاطنة العثمانيين السابقين.

ولم يكن بقية حكام المسلمين أحسن حالاً من السلطان بيازيد، الذي كان أفضلهم وهم دونه، فما بالك بوضع أمة الإسلام آنذاك!...

هل يرضى السلطان تيمور بيك بالمكوث والتثاقل إلى الدنيا حتى تلتهم نيران التفرقة بلاد المسلمين أجمع؟! وبصراع كبير بين السلطانين العثماني والمملوكي ضد بعضهما البعض، ما سيكون عليه حال المسلمين؟! وما الحل الجذري لتلك النزاعات والتنازعات التي بدأ يُدق ناقوس خطرها؟ لا بدّ من الامتثال لأمره تعالى:

﴿ وَقَـٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ.. ﴾[1].

فالمصحف والسيف هما السبيل للأخذ بزمام هذه الأمة ذات الفتن والأهواء المختلفة المتنافسة على دنيا زائلة.

ردَّ التائهين عن الحق، وعاد بالشاذّين إلى الحق، ودانت الأرض بعهده لدين الحق. رضخت له جبابرة الأرض بعد أن كانوا في أعاصير أمواج مدمرة تكاد لا تبقي إلا الضلال فالهلاك، فلا بدَّ من الحزم والعزم لإحقاق الحق.

جدَّد روح الجهاد الهادف إلى السلم والسلام الذي يحث عليه الإسلام بعد موته، وأحيا حوافزه بعد أن استنزفت الاختلافات الباطلة جميع طاقاته، حيث وصل آخر الأمر إلى حالة من الضعف مع القوى المعادية له الداخلية منها والخارجية. بل وصل المسلمون لحالة من الضعف إلى أن أصبح الخليفة دمية بيد ملوك الزمان، ليس بوسعه اتِّخاذ أي موقف دفاعي للحفاظ على حياته. فعادت الجاهلية الأولى، وأي جاهلية!.

وفي غمار هذا الوضع المتأزم من حدود الصين شرقاً إلى إسبانيا غرباً يخرج رجل بمفرده طامحاً أن تعم كلمة لا إلـه إلا الله المشرق والمغرب، وينتشر الإسلام في كل بقعة من بقاع الأرض، كما حدث زمن رسول الله ذي القرنين عليه السلام، بوصول فتوحاته مشارق الأرض ومغاربها، و كان ينجح دوماً وأيما نجاح حتى وافته المنيَّة.

فأباد الفتن الداخلية وقضى عليها، وهيأ الأسباب للمضي قدماً لما أراده الله من نصر عباده المؤمنين.

---

(1) سورة البقرة: الآية(١٩٣).

عبَّأ القلوب ليشحنها ببعض من روحه الاستبسالية في سبيل دعوة الحق لتخليص الناس من فتك بعضهم قبل التعبئة المادية من جند وعتاد.

تغلب على كافة المخاطر والعقبات، بالرغم من طول خط المواصلات الذي تجاوز آلاف الكيلو مترات، ومنها الامتدادات في الصحاري والقفار الجليدية.

تجاوز كافة الصعوبات، من اختلاف الميدان القتالي للقوات من حيث الطبيعة الثلجية القارسة، والمناطق الجبلية الصعبة المرتقى، المعرقلة لنقل الإمدادات والتموين، والميسِّرة لإقامة الكمائن والمباغتة وكثرة المفاجآت مع سهولة الدفاع بعدد من الجند قليل رغم كثرة الأعداء، عدا عن الحواجز المائية وصعوبة الاجتياز، ولكنَّ نصر الله وتأييده كان حليفه دوماً.

بل ويكفي أن نعلم أن **ارتفاعات بعض ميادين القتال بلغت/٧٥٠٠م/** لتنبئنا عن أخبارها، فكيف تغلَّب على كل هذه المعضلات؟!.

فنظم المواصلات، وأزال العوائق، وأمَّن الخيام المناسبة، واللباس والتدفئة والتموين الكافي للجند والخيل، فجاء نصر الله:

﴿..وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

فأي صدق عظيم حواه صدر السلطان تيمور بيك بحبه لله وبحبه لإنقاذ عباده؟!! ذاك العظيم الذي قدم من مدينة في شرق العالم ليمتد بالفتوحات حتى كادت تشمل قارة آسيا كلها:

---

[1] سورة الروم: الآية(٤٧).

مـن سـيبيريا شمـالاً إلى شـبه جزيـرة الهنـد جنوبـاً، ومـن حـدود الصـين شـرقاً إلى القسطنطينية[1] غرباً، ورضخت لـه ملـوك أوروبـا وسـلاطين أفريقيـا، وكـلٌّ راح يتـودَّد ويتزلَّف رغبة في رضاه. ضمّ ألـوف المجاهـدين الـذين حملـوا رايات الإسـلام ورفعوهـا عالية فوق كل مكان وصلوا إليه، بعد أن كانوا هم يقتتلون، فأصبح لـه الفضـل الكـبير في كسر الحواجز المادية التي كانت تقف أمام الدعوة الإسلامية في تلك الربوع الوثنية.

وغدا المناخ مهيأ لانتشار الدعوة الإسلامية في حرية وسلام بـين مئات الملايـين مـن سكان البلاد المفتوحة حتى غدوا بالهدى يرفلون (بعد عبادة أهواء ملـوكهم)، وأهـلاً للجنان، بعد أن كانوا عبدةً للطغيان، وحطباً لنيران الآخرة.

أصبحوا مسلمين يشكِّلون اليوم أكبر نسبة عددية في العالم بأسره.

(حقيقة واهنة لكنها راهنة)، وكفى لنا شـاهداً لما للإسـلام في صـدور تلـك الأقـوام من تمسك وعقيدة. إن الإسلام في الأندلس اندثرت آثاره في نفوس مسلمي الأندلس بعد أربعة قرون، أمـا مسـلمو إمبراطوريـة السـلطان تيمـور بيـك، فإنهم قـاوموا كـلَّ مقاومة لهم، وقهروا القيصرية الروسية رغم كافة ضغوطاتها.

---

[1] **القسطنطينية**: إسطنبول حالياً. أكبر مدن تركيا، وميناؤها البحري. وتُعد المدينة الكبيرة الوحيدة الواقعة في قارتين هما آسيا وأوروبا. وتقع عند الطرف الجنوبي من خليج البوسفور، وهو مضيق في الشمال الغربي من تركيا يربط البحر الأسود ببحر مرمرة، ويفصل خليج البوسفور وجسر السلطان محمد الفاتح. وكانت إسطنبول منذ أمد طويل، واحدة من أهم مدن العالم.
فقد كانت القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية، ثم البيزنطية بعد ذلك.
ثم أصبحت عاصمة الدولة العثمانية من عام ٨٥٧هـ، ١٤٥٣م حتى عام ١٣٤١هـ، ١٩٢٢م، وعرفت إبان هذه الفترة باسم الآستانة. وفي عام ١٣٤٢هـ، ١٩٢٣م أصبحت العاصمة أنقرة مع مولد الجمهورية التركية. إلا أن إسطنبول ظلت أهم مركز للتجارة والصناعة والثقافة. ويزور السائحون المدينة لمشاهدة أسواقها ومتاحفها، وجوامعها ذات الشهرة العالمية.

نعم: لقد أذاب شحم هواة المكوث عن جهاد النفس والهوى بشغلهم عنها بالفتوحات، وكشف حقيقة المتوارين الذين اتخذوا دينهم بطانة، وخلع عنهم فراءهم وما يستترون خلفه، فقوَّم صُلب العرب والترك وسوّى اعوجاجهم بثقَافة.

فعزَّ على الحاقدين من هؤلاء أن يروا وثنيي ربوع ما وراء النهر أشدّ منهم سبقاً في مضمار الخير والإسلام، وأكثر صلابةً في إقامة أحكامه، وقد أصلح أسيادهم بفضل هذا الدين الحنيف، بعد أن كانوا قطاع طرق وغزاة صحراويين دأبهم السلب والنهب.

أدركوا أن هذا السؤدد ما كان ولن يكون إلاّ بفضل السلطان تيمور بيك وتمسكه برسالة السماء (القرآن الكريم)، والذي كله دعوة للإيمان والأنس والإنسانية، لذلك وجّهوا جلَّ اهتمامهم إلى إشعال الفتنة السياسية وزرع بذور التفرقة بين الشرق الأقصى الإسلامي والأدنى منه، بتشويه سيرة أولئك الفاتحين العظماء، وتفطَّن الفرنجة للربح الذي يجنونه من تلك الفرقة، فساندوا أولئك وزودوهم بمعلومات لا تزيد المسلمين إلا تباعداً عن التآخي بين المشرق الإسلامي وغربه، ولإشاعة الفرقة بينهم، حتى أخرجوا سيرة ذلك الفاتح العظيم عن غايتها، وأفرغوها من محتواها، وعمد آخرون إلى أسلوب ماكر خبيث من التستر خلف مظاهر دينية تغرِّر بالعامة، وانطلت تلك الأكذوبة والألاعيب وسرت سريان النار في الهشيم في البلاد الشامية وبعض الأقاليم الإسلامية زوراً وبهتاناً..

ولكن **جاءت علوم العلاَّمة الكبير محمَّد أمين شيخو قدِّس سره** تكشف ذلك الخداع وتجتث أصوله، وتجعل خراب ما صنعوه بناء شامخاً لأمة الإسلام.

وتقوِّض كل الذي حاولوه وأرادوه من نيلهم من السلطان تيمور بيك العظيم، مُظهرةً ما أحرزه من المجد، كاشفةً ما اصطنعوه من قصص خرافية، وما نظموا فيه من روايات باطلة، شأنهم شأن بغاة التفرقة ليسودوا في كل عصر، يبتكرون من خصب خيالهم الخبيث ما يوحيه لهم مزاجهم، **وما آفة الأخبار إلا رواتها.**

على أن التناقضات والاختلافات فيما بينهم في هذه القصص المفتراة والاتهامات المتباينة تقوم دليلاً واضحاً على الاختلاق، فكيف يُرجى العقل والرأي عند من يروح على مديح وإطراء ويغدو على قدح وذم! وعلى من؟! على من آثاره تنبيك عن أخباره!.

وأنَّى يختفي للشمس ضوءٌ ... عن الأبصار في صحو النهار

وكيف يُسَرُّ ذفر المسك يغشى ... خياشيم الورى في يوم حار

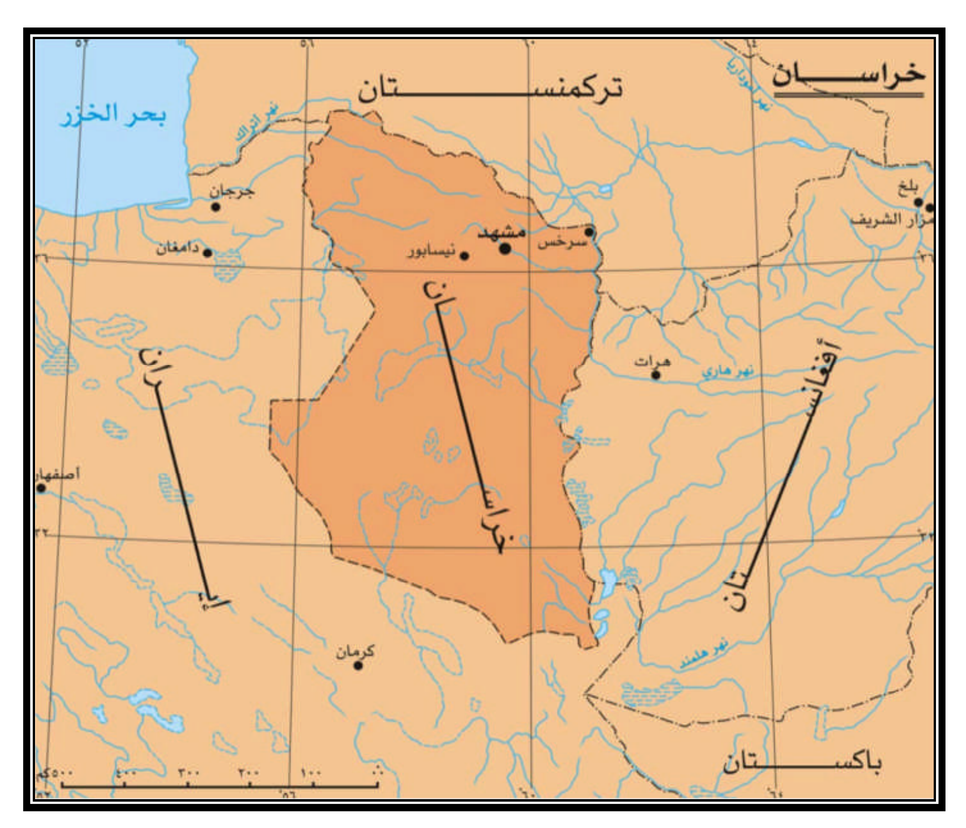
وأنى يختفي للبوق صوتٌ ... عن الأسماع في وقت النهار

ذلك السلطان تيمور بيك العظيم الذي يقول ملخصاً سيرته أثناء حياته:

«إن هناك رباً واحداً فكذلك يجب أن لا يكون هناك إلا سلطان واحد... في كل إقليم يسوده العسف والظلم يصبح من واجب كل أمير كائناً من كان أن يقتلع أرباب الفتن ويغزو هذا الإقليم، وذلك لصالح السلام العام والأمن، وعلى كل أمير مظفَّر أن يخلّص الناس من الذين يستبدُّون بهم، وهذا هو الذي دفعني إلى فتح خراسان[1] وتخليص ممالك فارس والعراق والشام من الفوضى التي كانت تسودها».

---

(1) **خراسان**: إقليم من أقاليم الجمهورية الإيرانية الإسلامية يقع في أقصى الشمال الشرقي منها وعاصمته مدينة مشهد، وإقليم خراسان في الوقت الحاضر يضم منطقة أصغر بكثير من تلك التي كان يضمها الإقليم المعروف باسم خراسان في العصور الإسلامية، والذي كان يحده كما يذكر الجغرافيون العرب سجستان والهند شرقاً، وجرجان وصحراء الغز غرباً، وبلاد ما وراء النهر شمالاً، وصحراء فارس والعراق العجمي(منطقة الجبال) من الجنوب الغربي.



خريطة توضح موقع خراسان

ومن أقواله ﷺ : « **وإن الحاكم الذي يهاب الناس سوطه أكثر من شخصيته غير جدير بمنصبه**»..

« **وجودي في ميدان المعركة ومعي عشرة من الجند أفضل من أن أكون بعيداً عنها وفيها عشرة آلاف**».

هذه كلمات واقعية حكيمة ، السلطان تيمور بيك (تيمورلنك) العظيم قائلها.

نعم لقد حقّق كل ذلك، فكان سلطان العالم، ووقع على كل إقليم يسوده الظلم والعسف فأحلّ الأمن والأمان بنشر ديانة الإسلام الحق.

وعمد إلى الرهبة في حروبه تجنباً لإراقة الدماء، فكان له ذلك، فهابه الناس ملوكاً وأفراداً خشية سطوته، وتمّ له النصر بإذن الله، ولم تكسر له راية طيلة حياته السلطانية، ولم يهزم قبلها أبداً.

أجرى الله على يديه أعمالاً فكأنما صاغها القدير معجزات تُتلى وتُردَّد، بصدقه ونواياه الخيِّرة .

- كانتصاره بستين رجلاً على ألف فارس.
- انتزاعه حصن كارشي بمئتي رجل من ثلاثة آلاف مقاتل.
- تخليصه لأسراه الستمائة من يد البادقشانيين برجل واحد معه.
- انتصاره على بيازيد بأقل ما يمكن حفظاً لأرواح وشكيمة المسلمين.
- انتصاره على المغول جميعاً بمفرده بتدبير حربي أوقع بينهم وردَّهم عن بلاد الإسلام يقتلون بعضهم بدل قتلهم المسلمين، نعم ردَّهم على أعقابهم خاسرين دون إراقة قطرة دم.
- إنشاؤه العصر الذهبي للإسلام في منطقة القوقاز "أذربيجان وداغستان" وترسيخ قواعد الإسلام والقضاء على كل ما يتنافى مع الإسلام.
- إنشاؤه قواعد إمبراطورية الهند الإسلامية التي دامت حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي.
- صهر المغول في بوتقة الإسلام إمتداداً من حدود الصين إلى العراق العربي.
- تأديب العثمانيين وتربيتهم وتهييئهم للقيام بالإمبراطورية العثمانية طيلة ثلاثة قرون خلت...

فعليك السلام يا تيمور بيك يا باني أمجاد الإنسانيّة بعملك، يا عنوان الكمال، ومخرج الخلق إلى النور من الظلام.

خليف رسول المسلمين وسيفه — لكل إمام مصطفى وخليل

بنى قبة الإسلام حتى كأنه — هدى الناس من بعد الضلال رسول

والحمد لله في بدء وفي ختم

❁❁❁

اتهموك يا تيمور

اتهمـوك يـا تيمورُ فيمـا أوردوا   إفكـاً وبهتانـاً بـحقـك رددوا
وتـداولـوا وتشـاوروا وتآمـروا   وتوعـدوا بـالنيل منك وهـددوا
فتشـدقوا في سجعهـم وجناسهـم   طعنـوا بتيمـور العـظيم ونـددوا
سهـروا الليـالي في حياكة دسِّهم   سُمّـاً زعـافـاً للخـليقـة مهـدوا
واستـشـهـدوا بـالميتـين وأرّخـوا   فقـرأنا تـاريخـاً بـحـبرٍ أسـود
ابـن عـربشـاه تـولّى كـبـره   والتـابعـين لـه شـرار عُـبّد
نقلـوا بـلا فكـر ودون تمحّصٍ   فنسـوا بـأنه مـؤمن ومشـاهـد
عمَرَ المساجد والبلاد على السوى   واستبـدل الحكـام لمّـا أفسـدوا
وأقـام شـرع الله لمـا خـالفوا   للـدين قـد بعـث الإلّـه مُـجَدِّدُ
كـتبـوا لإرضـاء المـلوك وودِّهـم   زوراً وصـدّوا الـلاحقـين وأبعـدوا
آهٍ عـلى الإسـلام يُـهـدمُ عـزّه   والمسـلمـون لهـم عيـون تـرقُدُ
فـأتى الأمـين مبيّنـاً ومنـاصراً   للحـق يَقْـفُ الهـاشـميَ محمـدُ
فـأزاح عـن تيمـور مـا نسـبـوا لـه   وأضـاء عصـراً في الوضاءة يشهدُ
أُنصفـت يـا تيمـور بعـد قطيعـةٍ   وتـصفّـد ذاك الـلعـين الأمـرد
هـم في جـهنم يـكتوون بنـارهـا   ومقامـك الفـردوس تحيـا وتخلُـدُ



جدول زمني لأهم الأحداث

السنة الميلادية	الأحـداث
١٣٣٦م ـ٨ نيسان	ولادة تيمور بيك قرب كش فيما وراء النهر.
١٣٦٩ م	أخفقت كافة محاولات الأمير حسين ضدّ تيمور بيك، وكانت نهايته في المعركة الأخيرة، وجلس تيمور بيك على العرش وعمره آنذاك ثلاثة وثلاثين سنة.
١٣٧٠م	عبر السلطان تيمور بيك على رأس قواته صحراء (كيزيل كوم واستولى على مدينتي خيفا وكات دون قتال.
١٣٧١م	قام الأميرولي حاكم مازندران بحشد جيش كبير لمقاتلة السلطان أويس.
١٣٧٢م	جاء الأميرولي إلى بلاد الري ومنها توجه إلى ساوه ضد السلطان أويس.
١٣٧٤م	خرج السلطان أويس إلى عمارة الرشيدي لقتال الأمير ولي.
١٣٧٥م	توجه الشاه شجاع إلى أذربيجان بقصد مقاتلة السلطان حسين بن أويس وكانت مقتلة عظيمة بين المسلمين في أطراف همذان.
١٣٧٩م	توجه الشاه شجاع من فارس إلى السلطانية قاصداً أمراء السلطان حسين بن أويس.
١٣٧٩م	وفاة جهانكير بن تيمور بيك، وهجوم المغول على مملكته فأدبهم وأرجعهم على أعقابهم خاسئين.
١٣٨١م	لجوء توكتاميش إلى تيمور بيك ومناصرته حتى أقامه على العرش.
١٣٨٢م	خرج السلطان أحمد بن أويس على أخيه حسين وقتله.

الأحـداث	السنة الميلادية
وفاة الشاه شجاع وتنازع أبنائه على السلطة من بعده، واستعرت المعارك إثر محاولة ضم الشاه منصور كافة ممتلكات الأسرة تحت سيطرته.	١٣٨٤م
استولى السلطان تيمور بيك على جيلان وحضّ حاكمها على اتباع مذهب	١٣٨٤م
لما بلغ السلطان تيمور بيك أنباء التطاحن والفرقة وإهراق الدماء هبط على فارس غزواً دون قتال على رأس سبعين فرقة من جنده لزرع الرهبة بملوك فارس كلها لو كانوا مجتمعين بغية حقن دماء المسلمين.	١٣٨٦م
أخمد السلطان تيمور بيك ثورة شيعية مغالية، وألزم أهلها القصاص العادل.	١٣٨٧م
هبط توكتاميش على تبريز بجيشه عنوة ونهبها، وقتل منها نحو عشرة آلاف وأسر أولاد المسلمين، وذهب بهم إلى أقصى تركستان، وهتك الأعراض وفعل الفساد، وكانت آنذاك قصبة مُلك أحمد بن أويس.	١٣٨٩م
نكبة دمشق الأولى على يد السلطان برقوق مع القوات المنطاشية.	١٣٨٩م
رجوع برقوق إلى العرش.	١٣٩٠م
معركة كندروتشا وفرار توكتاميش من وجه السلطان تيمور بيك.	١٣٩١م
انتقضت بعض بلاد الشرق الأوسط، وأغار توكتاميش على البلاد متعرضاً لأطرافها. فنهض إليهم السلطان تيمور بيك بغزوات سريعة ومفاجئة وانتصر عليهم جميعاً.	١٣٩٢م
أسرع قرا محمد التركماني واستعاد تبريز بعد مغادرة تيمور بيك لها، وراسل السلطان برقوق ليقرّه على فعلته وكان ذلك.	١٣٩٢م
نكبة دمشق الثانية على يد اليلبغاوية والمنطاشية ضدَّ السلطان برقوق.	١٣٩٢م

السنة الميلادية	الأحـداث
١٣٩٣م	أمر السلطان تيمور بيك باعتقال أفراد الأسرة المظفرية الحاكمة وألزمهم القصاص العادل .
١٣٩٣م	انتشار الشائعات حول انكسار الجيش التيموري ومبادرة السلطان بيازيد بالإغارة على قيصرية التابعة للسلطان برقوق.
١٣٩٣م ٦رجب	توجه السلطان تيمور بيك من أصبهان نحو همذان وفوض الأمر إلى ابنه ميران شاه.
١٣٩٣م ١٣شعبان	ومن ثم توجه نحو صحراء قولاغي.
١٣٩٣م ١٠رمضان	عاد من صحراء قولاغي ليوا في آق بولاق.
١٣٩٣ م	قام سكان بغداد بأنفسهم بفتح أبواب المدينة للقوات التيمورية والاعتراف بسيادة تيمور بيك.
١٣٩٣م ٢٤ذي الحجة	توجه السلطان تيمور بيك نحو تكريت.
١٣٩٤م	عاد السلطان تيمور بيك بجحافله منتصراً ، وسارع بيازيد باعتذاره إلى برقوق .
١٣٩٦م	حريقان كبيران في دمشق.
١٣٩٦م	متابعة الرسل من قبل السلطان تيمور بيك إلى برقوق للحل السلمي بإطلاق أطلمش.
١٣٩٧م	عاد السلطان تيمور بيك إلى بغداد وراسل مجد الدين عيسى السلطان برقوق كي يكون عوناً له.
١٣٩٧م	وصلت رسل السلطان تيمور بيك الرحبة وسُجنوا.
١٣٩٨م	طلب بيازيد للتفويض الشرعي بالسلطنة من الخليفة العباسي.

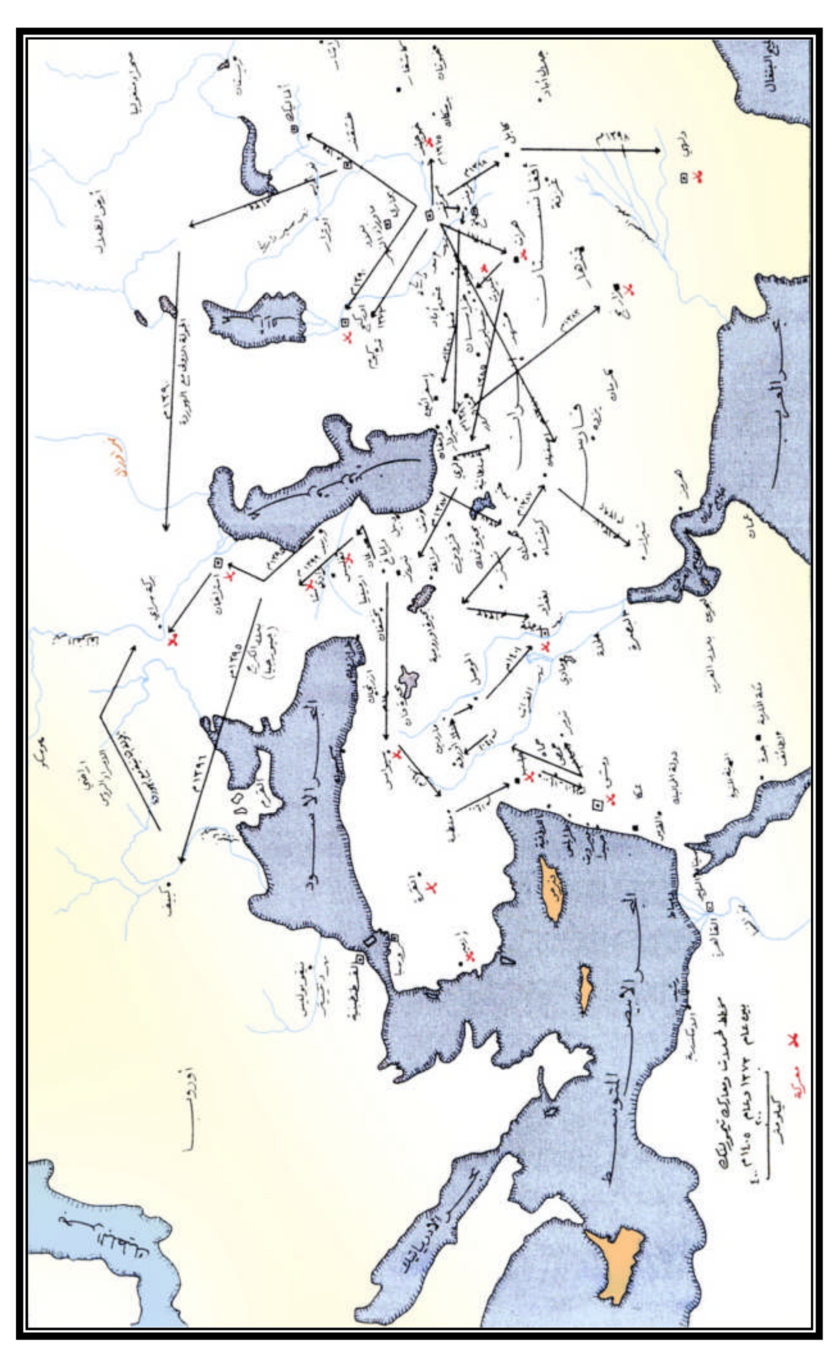
الأحـداث	السنة الميلادية
طلب بيازيد أن يخلع عليه لقب سلطان الروم وأيده السلطان برقوق لطلبه خوفاً على لقب سلطان المسلمين.	١٣٩٩م
توجه السلطان تيمور بيك إلى بلاد إيران ومنها إلى غزوات السنوات السبع على ما يسميه المؤرخون.	١٣٩٩م
الاستيلاء على قلعة تكريت واكتساح روسيا والهند وعدد كبير من بلاد الشرق الأوسط، ومراسلة السلطان برقوق لإطلاق أطلمش وللحلول السلمية.	١٣٩٩م
تحرك السلطان بيازيد على بلاد السلطان برقوق ووصلت طلائعه الإبلستين وهو قاصد حلب، فوقف الاتفاق في مصر على محاربته.	١٣٩٩م
وفاة السلطان برقوق وتولى السلطنة من بعده ابنه الحدث القاصر فرج.	١٣٩٩م
انسحاب الجيش التيموري إلى الهند، وانتهاز السلطان بيازيد فرصة انقسام الأمراء المماليك في مصر عقب وفاة برقوق وأغار على الحدود السورية، واستولى على ملطية ودرند مستهتراً بكافة العلاقات السياسية والدينية بين البلدين.	١٣٩٩م
مسير السلطان تيمور بيك من سمرقند إلى المُلتان لافتتاح الهند إثر ثورات الهنادكة ضد الأمراء المسلمين المتنازعين على السلطة بعد وفاة فيروز شاه.	١٣٩٩م
اضطراب الأحوال في بغداد بسبب ثورات الأمراء على أحمد بن أويس، واستولى عليها السلطان تيمور بيك مرة ثانية، واستيلائه على سيواس وملطية ومراسلته السلطان فرج بن برقوق.	١٤٠٠م

السنة الميلادية	الأحـداث
١٤٠٠م	الزحف إلى البهنسا وعينتاب وبزاغة في شهر آب.
١٤٠٠م آب	سقوط سيواس وبهنسا وعينتاب.
١٤٠٠ م ٣٠ تشرين الأول	سقوط حلب.
١٤٠٠م ٢تشرين الثاني	سقوط قلعة حلب، وسقوط حماة على يد ميران شاه.
١٤٠٠م ٢٠تشرين الثاني	مغادرة السلطان تيمور بيك حلب.
١٤٠٠م ٩ كانون الأول	دخوله حماة، ثم وصوله إلى حمص دون أن يتعرض لها.
١٤٠٠م ٢٢كانون الأول	وصول السلطان الناصر إلى دمشق.
١٤٠٠م ٢٣كانون الأول	وصول السلطان تيمور بيك دمشق بعد أن ترك بعلبك.
١٤٠١م ٣ ـ ٤ كانون الثاني	مفاوضات الصلح.
١٤٠١م ٧ كانون الثاني	هروب السلطان فرج وحاشيته، وتكرار محاولة تيمور بيك لعقد الصلح.
١٤٠١م ١٤ كانون الثاني	حصار قلعة دمشق.
١٤٠١م ٤ شباط	استسلام دمشق رسمياً.
١٤٠١م ٨ آذار	سقوط القلعة ومناقشة في حضرة السلطان تيمور بيك حول الخلافة العباسية.

السنة الميلادية	الأحـداث
١٤٠١م ١٩ آذار	مغادرة السلطان تيمور بيك دمشق.
١٤٠١م	طلب أهل قلعة كماخ الأمان من تيمور بيك ودخولها بالسلم.
١٤٠٢م ٨تموز	معركة أنقرة والنصر على السلطان بيازيد، والاستيلاء على قلعة إزمير وتأدية إمبراطور القسطنطينية الجزية. وزرع الرهبة في ملوك أوروبا ومراسلاتهم له ومهاداتهم.
١٤٠٢م	استقبل السلطان تيمور بيك أطلمش، وأرسل رسله بكتب للسلطان فرج يعرض فيه رغبته في إقامة علاقات المودة مع السلطنة المملوكية. وبكاءه أمام وفد مملوكي حزناً وأسى على دمشق.
١٤٠٢م	سار قرا يوسف والسلطان أحمد بن أويس لقتال السلطان طاهر بن أحمد بن أويس وكانت معركة طاحنة، ثم استيلاء قرا يوسف التركماني على بغداد حتى استعادها التيموريون.
١٤٠٢م	قيام السلطان تيمور بيك بأعمال إدارية في ولاية الأناضول.
١٤٠٣م	دخول السلطان أحمد بن أويس حلب بصورة فقير، وإمساكه بموجب مرسوم واعتقاله.
١٤٠٣م	إصابة بيازيد بمرض الخناق وضيق التنفس مما أدى إلى وفاته، إثر أخبار النزاع بين أولاده والسلطان تيمور بيك آنذاك في ضواحي إزمير.
١٤٠٣م	مسير السلطان تيمور بيك إلى بلاد الكرج، وتفويض حكومة بغداد إلى ابنه ميرزا شاه لإصلاحها وعمارتها مما لحق بها في فتح /٨٠٣هـ/.

السنة الميلادية	الأحـداث
١٤٠٥م	إرسال هدايا من قبل السلطان تيمور بيك إلى السلطان فرج واعتذاره عن اضطراره إلى اكتساح بلاده.
١٤٠٥م	المسير إلى الصين والشهادة الكبرى في أوترار.

❖❖❖



مخطط لحملات ومعارك تيمور بيك بين عامي /١٣٧٣ـ١٤٠٥م/

المراجع التاريخية

١) عجائب المقدور في نوائب تيمور/أحمد بن عربشاه/ترجع أهميته للجهود المشكورة التي بذلها محققه أحمد فايز الحمصي.

٢) تاريخ بخارى/أرمينوس بن فامبري/ترجمة أحمد محمود الساداتي.

٣) الضوء اللامع للقرن التاسع/السخاوي/المجلد الثالث.

٤) شذرات الذهب/ ابن عماد الحنبلي/ المجلد السابع.

٥) شرفنامه / شرف خان البدليسي/ بعض النصوص المنقولة عن شرف الدين يزدي وروضة الصفا (ميرخواند). وكذا الترجمة في المجلد الثاني.

٦) قاهر العالم/السيد فرج/.

٧) الفتوحات الإسلامية الجزء الثاني/ زيني دحلان/.

٨) أحداث العصر/جيرار وولتر/.

٩) أعلام الحرب (**تيمورلنك**)/ مارسل بريون/.

١٠) الأمير الكبير (**تيمورلنك**)/ ج. ج. ساندرس/.

١١) (**تيمورلنك**)/ موسوعة كولومبيا/.

١٢) (**تيمورلنك**)/ هارولد لامب/ ترجمة عمر أبو النصر، للأسف لم يتقيد بالترجمة حيث يقول: ليس يصح من المعرِّب العربي أن يتقيد بما تقيد به المؤلف الإنكليزي.

١٣) (**تيمورلنك**)/ محمد فياض/.

١٤) (**تيمورلنك**) وحكايته مع دمشق / أكرم العلبي/ تظهر مدى تفكك وانحلال المسلمين المصريين، والغزاة على الأبواب وقد بذل جهوداً مشكورة.

١٥) الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة.

١٦) العالم الإسلامي في عصر المغول/برتولد شبولر/ ترجمة أسعد عيسى.

١٧) تاريخ ابن الفرات/محمد بن عبد الرحيم بن فرات/الجزء التاسع ٧٨٩-٧٩٢هـ.

١٨) (**تيمورلنك**)/الدكتور مظهر شهاب/ رسالة دكتوراه من الجامعة اللبنانية ١٩٨١م يُعد أكبر موسوعة عربية تتحدث عن (**تيمورلنك**).
١٩) أنباء الغمر بأنباء العمر/ابن حجر العسقلاني/ كتاب التراجم ٧٧٣ ـ ٨٥٠هـ.
٢٠) بدائع الزهور في وقائع الدهور/محمد بن إياس الحنفي/.
٢١) تاريخ ابن قاضي شهبة/أبو بكر بن أحمد الأسدي الشهير بابن قاضي شهبة/.
٢٢) الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية/محمد بن محمود بن صصري/.
٢٣) السلوك لمعرفة دول الملوك/أحمد بن علي المقريزي/.
٢٤) تاريخ ابن خلدون/عبد الرحمن بن محمد الإشبيلي التونسي القاهري المالكي/.
٢٥) النجوم الزاهرة في ملك مصر والقاهرة/ يوسف بن تغري بردي/.
٢٦) (**تيمورلنك**) قاهر الدنيا/ كوثبر أونيل/.
٢٧) الإسلام وحضارته/أندريه ميكيل/.
٢٨) قيام دولة المماليك الثانية/ الدكتور حكيم أمين عبد السَّيِّد/. كتاب ذو أهمية يظهر طوايا وخفايا السلطان برقوق من حبِّه لزعامة العالم الإسلامي وتنافسه مع السلطان بيازيد العثماني على ذلك.
٢٩) أعيان الشيعة المجلد الثالث/السيد محسن الأمين/.
٣٠) خطط الشام/محمد كردعلي/.
٣١) موسوعة تاريخ العراق بين احتلالين/عباس العزاوي المحامي/.
٣٢) لقاء ابن خلدون وتيمور/فيشل/.
٣٣) تيمورلنك ودولة الجراكسة.




الحمد لله رب العالمين

اتهموك يا تيمور

اتهموك يا تيمورُ فيما أوردوا إفكاً وبهتاناً بحقك رددوا
وتداولوا وتشاوروا وتآمروا وتوعدوا بالنيل منك وهددوا
فتشدقوا في سجعهم وجناسهم طعنوا بتيمور العظيم ونددوا
سهروا الليالي في حياكة دسِّهم سُمّاً زعافاً للخليقة مهدوا
واستشهدوا بالميتين وأرّخوا فقرأنا تاريخاً بحبرٍ أسود
ابن عربشاه تولّى كبره والتابعين له شرار عُبّد
نقلوا بلا فكر ودون تمحّصٍ فنسوا بأنه مؤمن ومشاهد
عمَرَ المساجد والبلاد على السوى واستبدل الحكام لمّا أفسدوا
وأقام شرع الله لما خالفوا للدين قد بعث الإلّه مُجَدِّدُ
كتبوا لإرضاء الملوك وودِّهم زوراً وصدّوا اللاحقين وأبعدوا
آهٍ على الإسلام يُهدمُ عزّه والمسلمون لهم عيون ترقُدُ
فأتى الأمين مبيّناً ومناصراً للحق يَقْفُ الهاشميَ محمدُ
فأزاح عن تيمور ما نسبوا له وأضاء عصراً في الوضاءة يشهدُ
أُنصفت يا تيمور بعد قطيعةٍ وتصفّد ذاك اللعين الأمرد
هم في جهنم يكتوون بنارها ومقامك الفردوس تحيا وتخلُدُ



